جين بيكر ميللر

ترجمة: حكمت لميا

نحو علم نفس جديد للمرأة



دار الفرقد

نحو علم نفس جديد للمرأة

عنـوان الكتـاب : نحو علم نفس جديد للمرأة
اســم المؤلفة : جين بيكر ميللر D.r Jean Baker Miller
العنوان الأصلي للكتاب: Toward a new psychology of women
المترجـــم : حكمت لمنيا
الـناشــــر : دار الفـرقـد
الطبعـة الأولى : 2008

التنفيذ والإشراف: دار الفرقد
الإخـراج الفني : رغداء حلوم
تصميم الغلاف : اسماعيل سويلم

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع
سـورية ـ دمشق
هـاتـف : 6660915 - 6618303 (00963-11)
ص.ب : 34312 فاكس: 6660915 (00963-11)
البريـد الإلكتروني : info@alfarqad.com
الموقع على شبكة الإنترنت : http://www.alfarqad.com

د. جين بيكر ميللر

نحو علم نفس جديد للمرأة

ترجمة: حكمت لَمّيا

دراسة

المحتويات

مقدمة المترجم

ما يزال وضع المرأة الاجتماعي قضية تثير الحوارات والمناقشات والخلافات في شتى المجتمعات. فالفوارق الاجتماعية الناشئة عن الجنس، على تنوع درجاتها هي المحرك الأهم لكل هذا الحديث عن المرأة. ومن الناحية التاريخية أسهم كلٌ من الرجال والنساء في الخوض في هذا الموضوع بل لعل الرجال كانوا سباقين إلى إثارته قبل النساء.

لكن بعد انتشار التعليم، وخاصة في أوساط النساء وفي معظم المجتمعات، بادر العديد من النساء إلى خوض هذا النقاش من وجهة نظر أنثوية بحتة. و هنا يحضر إلى الذهن الكاتبة الفرنسية سيمون دي بفوار صاحبة الكتاب الشهير ((الجنس الآخر)). كما يحضرنا في المجال نفسه كاتبة عربية هي الدكتورة نوال السعداوي.

أما مؤلفة هذا الكتاب فهي طبيبة و محللة نفسية من مجتمع آخر هو المجتمع الأمريكي. ومع أن مضامين كتابها و أفكارها تعكس بدرجة ما هموم المرأة الأمريكية فإن جوهر طروحاتها يظل ذا طابع إنساني كوني. فالإنسان هو الإنسان أينما كان بالرغم من الإقرار بوجود فوارق بين المجتمعات يمليها تفاوت الظروف الثقافية و الاقتصادية و السياسية ومستويات التطور العلمي والتقني. ونقصد بذلك أن ما تثيره الكاتبة من قضايا ليس شأناً محلياً صرفاً بل هو في جوهره إنساني يواجهه المرء في شتى المجتمعات، و إن كانت التجليات على السطح تبدو متباينة أحياناً.

إن مما يعطي الكتاب بعداً إنسانياً كونياً هو أن المؤلفة تتناول وضع المرأة من وجهة نظر التحليل النفسي بحكم اختصاصها و تجربتها و أهدافها. وهكذا تمضي عميقاً تحت سطح التجليات الظاهرية محاولة الكشف عما يعتمل في عقول وقلوب النساء اللواتي يحاولن الإسهام في بناء الإنسان والمجتمع والعالم. و نستنتج من ذلك أن المرأة تكاد تكون ضحية للثقافة الذكورية السائدة. لذا فإن مضامين كتابها ليست أفكاراً تقليدية تسعى إلى ما يسمى تحرير المرأة بالمعنى الحقوقي بل إن دأبها هو تحرير الثقافة السائدة من قيدها الذكوري كي تصبح ثقافة إنسانية يصوغها الرجال و النساء على حد سواء. إنها ترى أن هذه الثقافة المجتمعية التي ترسخت عبر قرون على أيدي الرجال كانت سبباً في إفراط الرجال في ممارسة السلطة و القوة ضد المرأة من ناحية ثم ضد بعضهم بعضاً من ناحية أخرى. وفي رأيها الذي لم تطرحه بصراحة أن هذا هو سبب جوهري من أسباب ما تشهده الإنسانية اليوم من ظلم و اضطهاد وحروب وأزمات لا حصر لها، ولا يبدو أن لها حلولاً في الأفق.

وقد يكون من أهم ما طرحته المؤلفة هو أن تحرير المرأة يختلف عن المساواة. فتحرر المرأة و مساواتها لا يعني أن تصبح "رجلاً" بل بأن تبقى أو تصبح "امرأة" و هذا جانب مما عنته المؤلفة بما أسمته "الأصالة".

إن المرأة العربية بحاجة إلى مزيد من التفكير في وضعها ودورها. و مع أن لديها مشاكل خاصة ببيئتها وثقافتها فإنها ستجد هنا قضايا تهمها منها ما حاولت أن تعالجه مع مجتمعها ومنها ما لم تتجرأ حتى على التفكير بها حتى الآن. ونأمل ألا تخطئ بعض القارئات العربيات و يعتقدن أن أفكار الكتاب هي دعوة إلى التمرد ،بل إن هذه الأفكار هي في جوهرها دعوة إلى بناء مجتمع قوي عادل و آمن تكون الحياة فيه زاخرة بالمتعة و مفعمة بالسعادة .

حكمت لميا

المؤلفة: د. جين بيكر ميللر

D.r Jean Baker Miller

حصلت جين ميللر على شهادة البكالوريوس (الإجازة) من جامعة سارة لورانس Sarah Lawrenc College والدكتوراه في الطب من جامعة كولومبيا. وهي تعمل في الطب النفسي منذ خمسة وثلاثين عاماً وتدرّسه منذ ثلاثين، وهي الآن أستاذة عيادية للعلاج النفسي في كلية الطب في جامعة بوسطن حيث تعمل أيضاً في برنامج النساء المريضات المقيمات في الولايات المتحدة. كانت الأستاذة ميللر مديرة لمركز الصخر للدراسات التطويريّة والخدمات في معهد ويلسكي، وهي الآن باحثة مقيمة هناك. وقد مارست التدريس في كلية لندن للاقتصاد وأمضت سنتين في معهد تافيستوك وعيادته في لندن. كذلك عملت أمينة سرّ وقيّمة لدى الأكاديمية الأمريكية للتحليل النفسي، وقيّمة للرابطة الأمريكية للطب العقلي عند الأطفال، وعضو هيئة حركة النساء لنزع السلاح النووي، وعملت أيضاً لدى مركز إليزابيث ستون هاوس وهو مركز إقامة بديل للنساء ذوات الأزمات.

وما تزال الأستاذة ميللر عضواً في لجنة البطالة عند النساء وتعنى بالقضايا الاجتماعية ذات الصلة بالبطالة لصالح الأكاديمية القوميّة للعلوم، وهي مسؤولة عن المنح الدراسية لدى مؤسسة روكفلر العاملة في هذا الميدان، وقد

ظهرت للأستاذة ميللر عدد كبير من المقالات في عدة مجلاّت مهنيّة. وكان أول كتاب صدر لها هو (التحليل النفسي والمرأة) الذي كان قد نشر عام ١٩٧٣ في بنجوين Penguin. أما كتابها هذا "نحو علم نفس جديد للمرأة" فقد صدر في إحدى عشرة لغة.

مقدمة

إن أهم ما ينبغي أن أعمله في مقدمة هذه الطبعة الجديدة هو أن أشكر النساء والرجال الذين كتبوا لي أو تحدّثوا معي عن هذا الكتاب. فقد تشكل كلماتهم إسهاماً ذا قيمة أكبر من أي شيء يمكنني أن أكتبه هنا. إن كلماتهم تصور مبنى ومعنى حياة الكثير من الناس بكل غناها وتنوعها.

إحدى الرسائل جاءت من امرأة كانت قد قرأت الكتاب وهي في السجن. قالت أن بوسعها الآن أن تشعر بمغزى حياتها، تحس بما كان قد حصل لها ولماذا. لقد استنتجت تحليلاً للقوى التي تؤثر فيها، وكشفت الأسباب التي تكمن وراء تصرفاتها. كما وردت في رسالة أخرى من امرأة مهنيّة سوداء قالت فيها أنها كانت ناجحة جداً وفق المعايير المألوفة. كتبت تقول أنها كانت تعاني من سرطان قاتل. وقالت أنها كانت سعيدة بأن حياتها شهدت حركة الحقوق المدنيّة في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين. وخرج من صفوف هذه الحركة كتّاب وكاتبات سود، وبذا فهي تفهم الآن حياتها في سياق التجربة السوداء في الولايات المتحدة. إنها مثل الكثير من النساء الناجحات سواءً كن بيضاً أم سوداً. ولم تعد تفكر أن ثمة أي شيء آخر تحتاج إلى فهمه عن النساء كنساء. بيد أنها كانت وما تزال تشعر بكثير من الغضب

والألم، وتعتقد أن هذين العنصرين يعكسان جوانب النقص عندها. بعد قراءة هذا الكتاب دمجت تجاربها كامرأة وكشخص أسود معاً. فكتبت تقول: "أستطيع الآن أن أموت دون مرارة".

إنني شديدة الامتنان لهؤلاء القرّاء لأسباب عديدة. لكن ثمة سبباً خاصاً يتصدّر كل الأسباب وهو أنهم مضوا أبعد من الكتاب. لقد رحّلوا الكثير من الصيغ المعقدة. كانوا في الغالب مختلفين معي. لقد استخدموا الكتاب نقطة للانطلاق. كان ذلك هو أملي الرئيس. ولأن عدداً كبيراً منهم فعلوا ذلك فقد قدموا لي عوناً كبيراً.

منذ عشرة أعوام كان ثمة دافعان متضافران أرغماني أن أكتب هذا الكتاب. أحدهما كان في أثناء ممارستي للطب لسنواتٍ عديدة. ففي غضون ذلك سمعت نساءً كثيرات يتحدثن عن همومهن، وهذا ما بدا لي أكثر الأشياء أهمية في الحياة. ومن الأمثلة على ذلك العواطف الحقيقية بين شخصين، أو هموم النساء حول الكيفية التي كانت أنشطتهن تؤثر في أولئك القريبين منهن. من هذه الأنواع من الهموم ومن حياة المرأة اليوميّة تشكل لدى النساء صفات نفسيّة كانت قيّمة للغاية، لكنها ظلت موضع إغفال الآخرين لها. وإن كان الأطباء النفسيون والمحلّلون النفسيون قد لاحظوا تلك الصفات بأي شكل فقد وصفوها بلغة ومصطلحات مشوهة لم تنفذ إلى جوهرها.

كانوا ينزعون إلى تصنيفات لنشاط النساء صيغت في قوالب تتسم بالاستخفاف كالقول: "إنهن يفرطن في الاعتماد على ردود أفعال الآخرين". بدلاً من أن يستخدموا لغة أدق كالقول: "إنهن قادرات على احتضان خبرات

الآخرين وتحقيق الرفاه لهم". إن الصفات القيّمة للمرأة كثيرة وليست نادرة، وتتوافر بكثرة عند "المرأة العاديّة". وفي معظم الأحيان لا تلحظ المرأة نفسها هذه الصفات لأن ثمة من يحرفها عن ملاحظتها. إن هذا يحصل بشكل منهجي.

لذا ما تزال ثمة أزمة ماثلة. فهذه الوفرة من القوى النفسيّة عند المرأة ما تزال كامنة، لكنها لا يمكن أن تزدهر وتقدم نفسها بشكل كامل في عالم هو بحاجة ماسة إلى هذه الأنواع من القوّة. ليس هذا وحسب بل إن المرأة نفسها لا تستطيع أن تصدق حقاً وجود هذه الضروب من القوّة، كما لا تستطيع أن تمنحها صدقية، وتعول عليها بوصفها الأساس لتطورها ونموها. لماذا لم تتعرف المرأة على هذه الجوانب من تلقاء ذاتها؟ من أجل الإجابة على هذا السؤال كانت المهمة التي أخذتها على عاتقي أن أبدأ بوصفٍ لنقاط القوة عند المرأة، وأن أقدّم تعليلاً يبين أسباب عدم الاكتراث بنقاط القوّة هذه. إنني أعتقد أن هذه ما تزال مهمة رئيسة أمامنا. انطلاقاً من هذه الحقيقة يمكن البحث عن إطار جديد لفهم النساء والرجال.

أما السبب الثاني والمتصل بالسابق للعمل على هذا الكتاب منذ عشر سنوات فهو أن نموذج المرأة الجديدة بدا للعديد من الناس أنه نموذج الرجل. وفي حين لم يكن هذا ما تقوله الكاتبات وزعيمات النساء فقد بدا لي أن الكثير من الناس كانوا يتداولونه. كانت بعض الكاتبات وما يزلن يقبلن ضمناً نموذج الرجل بوصفه النموذج الوحيد للشخص كامل النضج. وقد لعبت أجهزة الإعلام الجماهيريّة المحترفة دوراً في تسويق هذا الانطباع للعديد من النساء والرجال على حدٍّ سواء. إن الهدف بأن تصبح المرأة رجلاً بل أن تصبح

مثل الرجل يبدو أمراً كارثياً لأسباب عديدة. لهذا يبدو من المهم أن نبدأ بخلق صور ورؤى جديدة، وان تشرح الأسباب الكامنة وراء حاجتنا إلى رؤى جديدة بدلاً من تقليد القوالب القديمة. وفي هذا الصدد كانت نقطة البدء هي وصف أنشطة الحياة الواقعية للنساء، وقيم الأغلبية الساحقة منهن. وقد أدى الانطلاق على هذا الدرب إلى نقطة مركزية في هذا الكتاب ألا وهي فكرة أن فهمنا للحياة برمتها قد بات متخلفاً ومشوهاً لأن تفسيراتنا وشروحنا السابقة كانت قد تمت على يد نصف الجنس البشري فقط. أما الآن فإن بوسعنا أن نلمح شروحاً أوفى وأغنى.

كيف تجلت هذه الصورة بعد عشر سنوات؟ هل ما تزال هذه القضايا مهمة؟ أعتقد أنها ما تزال كذلك. لكن قدراً كبيراً من المعرفة الجديدة وصل إلينا في العقد الماضي. وقد شهدنا تغييرات كثيرة في الواقع في أثناء تلك السنوات العشر الأخيرة. لذا فإن من المهم إعمال العقل في هذه التغييرات ليصبح بوسعنا أن نصل إلى تبصر جديد بينما نغيّر الطريقة التي نتصرف بها.

في الماضي بات جلياً أكثر ما إذا كانت المرأة تحاول أن تعرّف وتبدع شخصية كاملة. وهكذا نجد أنفسنا مشغولين في مشروع ضخم. إننا نرى أن هذه المحاولة تنطوي على بناء أسلوب جديد للعيش يشمل كل مظاهر حياتنا - من الاقتصاد العالمي إلى الحياة الاجتماعية والمستويات السياسيّة وصولاً إلى أكثر العلاقات الشخصية حميمية. ونحن نعي أننا بعملنا هذا لا ننجز هذه المهمة كلها بسهولة أو بسرعة. فإذا أخذنا وضع المرأة فإننا لن نفكر بلغة الحل السريع. قد نكون بحاجة إلى منظورين مزدوجين وهما التفكير بكل الأعمال

العاجلة. وعملية طويلة جداً. وقد يساعدنا المنظور الثاني في ألا نسقط ضحية للإحباط بسبب بطء الإيقاع. فإذا أخذنا بالحسبان جميع الوسائل العميقة التي بوساطتها جرى حفر حالة الأنثى - الذكر في كل حياتنا، فإن جميع التغيرات الضروريّة لا يرجح أن تحصل حالاً وبسرعة.

لدى النظر إلى وضع المرأة في ضوء ما تقدّم نستطيع أن نرى أن المرأة حققت تقدّماً بيّناً في ميادين كثيرة. لكن إذا أخذنا النسبة لكل ما يحتاج إلى تغيير نرى أن التغييرات لا تبدو كافية. لذا فإن الصورة مختلفة جداً.

تواجه النساء في كل الأعمار وفي أطوار مختلفة من الحياة عدداً متنوعاً من القضايا في هذه الأيام. أحد الملامح المزعجة من الماضي كان أن النساء يبلّغن أنهن "جميعاً على طريق واحد"، كما في القول إن "الشيء الوحيد للمرأة الحقيقية هي أن تكون زوجاً وأمّاً"، ثمة خطر آخر هو أن بعض الناس يدافع عن شكل آخر من أشكال "الشيء الصحيح" كما في القول "إن الشيء الصحيح الوحيد هو أن يكافح المرء دون كلل للحصول على وظيفة ذات نفوذ كبير". ووفق تعريف الرجال للوظيفة ذات التأثير الكبير فإنها لا تنشأ من خبرة الحياة والرغبات التي خبرتها معظم النساء. إن الكثير من النساء والرجال طرحوا أسئلة جدية عن مدى فائدة هذا النمط من الحياة للرجال. لقد بدأت النساء يحتفين بطرق مختلفة لكونهن في عالم بنته نساء مختلفات، ويشجع بعضهن بعضاً على متابعة هذه الطرق والاستمتاع بها. لكن في حالات كثيرة تدفع الضغوط الحقيقية النساء إلى الأنماط القديمة. وإذا رأينا أن هذه الضغوط مقلقة فإن ذلك قد يعين على الاستمرار في وصفها وتحليلها ومن ثم تغييرها.

تشارك النساء حالياً في ميادين مختلفة من الحياة بأعداد كان يبدو تخيلها شبه مستحيل منذ خمس عشرة سنة أو عشر سنوات. إنهن يشرفن على معاهد طبيّة وقانونيّة ويتبوأن مناصب مهنية في شركات كانت مغلقة في وجوههن منذ أمد قصير. ومع ذلك فإن الأدلة الراهنة تشير إلى أن النساء قد يصلن إلى النسق الأدنى من المهن أو النقابات لأن معظم هذه المؤسسات تمنعهن من التحرّك إلى أعلى. وقد وصفت النساء العقبات والمشاكل المعقدة التي تعترضهن في أثناء المراحل التي تلي الخطوة الأولى بعد "وصولهن" إلى هذه المراكز. إضافة إلى ذلك يتساءل الكثير من النساء بجدّية عن قيم وسياسات مؤسساتنا الراهنة. كما يتساءلن عن الأساليب التي تشتغل بها هذه المؤسسات، وعن كيفية التعامل مع الصراع مع زميلاتهن وأسرهن اللواتي يحملن قيماً متأصلة على نحو عميق.

تدخل النساء إلى مشهد للعمل لا يرجح أنه يلبي حاجاتهن. لذا فإن من المهم أن نحلل هذا المشهد بالدقة الممكنة. إن الخطر الكبير في هذا الوقت هو أن النساء يُفترضن أنهن ناقصات لأنهن "لا يتكيفن" بيسر وسهولة. فإذا شعرت النساء بالصراع حول أوضاع العمل فإن لذلك عادة مبرراً وجيهاً.

الأهم من ذلك أن التطورات الإيجابية في عالم العمل تكشف عن مكاسب يحققها أكثر النساء حظوة، وربما عدد قليل من الطبقات الدنيا. إن عدداً كبيراً من النساء (٨٠٪) يشغلن وظائف متدنية الأجر أو غير دائمة في هذه البلاد. أما النساء في بلدان أخرى كثيرة فإنهن يعملن في ظروف أسوأ بكثير من الظروف في الولايات المتحدة. إضافة إلى ذلك فإن تخفيض الإنتاج في الكثير

من المشاريع العامة قد حرم النساء ذوات الدخل المتدني أكثر من ذلك عبر تحديد الرعاية الصحية، ورعاية الطفل، وبرامج الغذاء المدرسية، وغير ذلك من الخدمات علماً بأن هذه الخدمات لم تكن كافية حتى قبل التخفيضات الأخيرة. ومع ذلك فإننا لا نرفع الصوت بشكل كافٍ دفاعاً عن هذه الأغلبية من النساء. لهذا كان لزاماً علينا أن نتابع هذه الحالة الاقتصاديّة بوصفها أكبر الحاجات.

كذلك ففي هذا العقد من الزمن طرحت النساء في الولايات المتحدة وعلى امتداد العالم تقريباً قضايا النساء الملونات. وقد جاء هذا الطرح قويّاً وواضحاً كل الوضوح. وقد أثبتن أيضاً أن نساء العالم بأسره يرتبطن بالقوى الاقتصادية والسياسية المحركة التي ما فتئت تحشر نساء العالم في ظروف اقتصادية تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. لقد قدمت لنا النساء في العالم النامي رؤية كونية حين بيّن لنا أن هموم النساء جميعاً مترابطة بشكل جوهري تام.

ليس بوسعنا أن نتوقع تحقيق مكاسب كبيرة وقوية للمرأة إذا لم تكن تشارك في التمتع بالإنجازات. ولا أعتقد أن الميزات الإضافية التي تحققت لتوها للنساء ذوات الميزات الخاصة في العقد الأخير سوف تنعزز ما لم تبدأ الأغلبية بالمشاركة فيها.

لكن يمكننا في الوقت ذاته أن نتقدم بالامتنان الكبير للنساء اللائي عملن بشكل هائل وبجد على قضايا تؤثر على الطبقة العاملة والنساء الفقيرات على الصعيدين القومي والدولي. إن الكثير من نساء الطبقة العاملة والنساء الفقيرات والمهنيات قد عملن معاً لتحسين أجور النساء، وظروف العمل، والتعويضات، والبطالة، والسكن، ورعاية الطفل، والحقوق المشروعة،

والحاجات الأساسية الأخرى. لقد تعاونت النساء معاً للحصول على وظائف وتحسين شروطها في كل الميادين التقليدية وغير التقليدية. ففي الولايات المتحدة ثمة منظمات مثل تسعة إلى خمسة، وتحالف اتحاد العمل النسائي، والمفوضية القومية للنساء العاملات. وقد شقّت هذه المنظمات الطريق نحو ظروف أفضل للمرأة. فقد حققت النساء في هذه المنظمات مكاسب مهمة في وجه مقاومة قوية. وقد ألهم ذلك نساء كثيرات للنضال بأساليب جديدة، لكن التغييرات لم تكن كافية حتى الآن لتحسين ظروف الأغلبيّة من النساء في مواجهة القوى النافذة في العمل والاقتصاد العام..

كذلك حققت النساء تغيّراً كبيراً في ميادين أخرى تجاوزت خطوط الطبقة والعرق. أحد هذه الميادين هو العنف ضد المرأة. فقبل أن تبدأ النساء جهدهن الرئيس ضد قضايا مثل الاغتصاب، وضرب النساء، وسوء الممارسة الجنسيّة مع الأطفال، والزنا لم يكن من أحدٍ يأبه لهذه الجرائم، بل إن الكثيرين لم يكونوا يصدقون أنها تحصل. ونتيجة لذلك كانت النساء يجبرن على الصمت أو أسوأ من ذلك. فإن حاولن أن يتكلمن بصوت مسموع عن هذه القضايا فإنهن عادة ما يعاقبن بشكل مضاعف. لقد تعرضن لسوء المعاملة على يد سلطات تنفيذ القانون والمحاكم والعيادات والمشافي وأرباب العمل في مؤسسات مثل مراكز الأزمات وبرامج النساء اللواتي تعرضن للضرب حيث يقدّم لهن مكان للتوجيه، ويرفعن صوتاً مسموعاً في المشهد العام. وقد وصلت هذه البرامج إلى النساء الفقيرات. وبالرغم من أن كل النساء معرضات فإن النساء الفقيرات يعانين من الافتقار إلى حماية الجمهور وإيلاء العنف واسع الانتشار اهتماماً كافياً.

في مواجهة القبول الاجتماعي الواسع والمتزامن مع الصمت الاجتماعي نحو النساء تبذل جهود مضنية وهائلة لتسليط الضوء على الحقيقة بغية توضيح أن هذه الخروقات ليست نادرة بل شائعة. وللقيام بعمل ما حيالها بذلت جهود إضافية أخرى. لكن الاستمرار في برامج المرأة ما يزال بالغ الصعوبة ويرجع ذلك جزئياً إلى خطوات الحد من الإنتاج واسعة الانتشار. وبدلاً من التخفيضات فإننا نحتاج إلى تغيير جوهري لا مساعدة الضحايا وحسب، بل لإنهاء تحويل النساء إلى ضحايا، أي لنجعل من المستحيل حدوث هذه الخروقات في المقام الأول.

أحد أهم التطورات الإيجابية التي حصلت هو أن الكثير من النساء قد التقى عند نقطة واحدة هي إحساس جديد بأنفسهن أنهن نساء. وهذا تغير كبير منذ وقت كانت فيه النساء عاجزات عن أن يرين قيمة كبيرة أو أهمية لأنفسهن أو كل منهن للأخرى لأنهن كن يرغمن على النظر إلى الرجال بوصفهم الأهم. فنظرة المرأة اليوم إلى ذاتها تختلف كثيراً عما كانت عليه منذ عشر إلى خمس عشرة سنة. إن التشعبات النفسيّة مؤقتة لأن من الصحيح ـ كما قالت بعض النساء ـ أن الحط من قدر بعضهن يعني الحط من قيمة أنفسهن حتماً. وحتى الآن لم تتغلب النساء على هذه المشكلة. ولعلّ ثمة نساء قليلات يعتقدن بشكل عميق أنهن يتمتعن بجانب جيد من الجدارة والتأهيل. وعلى نحو مماثل فإن عملية تقويم بقية النساء لم تؤتِ أكلها تماماً. وتنشأ أنواع من المشاكل حين تبدأ النساء معاً. وتأخذ هذه المشاكل أساليب وأشكال جديدة. إن بين النساء مشاكل حول قضايا رئيسة، ولعلنا بدأنا نفهم أن النساء لا

يستطعن التغلب على قرونٍ من فصل بعضهن عن البعض الآخر دون حصول مشاكل تبرز إلى السطح، ودون تطوير طرائق جديدة للاهتمام بهذه المشاكل. وينجم معظم هذه المشاكل من العرق أو الطبقة أو الاختيار الجنسي. وبالرغم من هذه المشاكل الجديدة فإن العملية النفسيّة قد بدأت تجد من يتعامل معها بشكل مختلف.

في الوقت الذي أدركنا فيه أن النساء قد بدأن للتو بالتصرف انطلاقاً من أنفسهن، فإننا نرى أن هجوماً معاكساً قد نشأ كرد فعل حيال التغيّر الجزئي في تطور المرأة. هذا الهجوم المعاكس قد يكون مؤشراً بأن النساء قد حققن فعلاً تأثيراً ما. لكن الهجمات المعاكسة تحصل حين تكون التغيّرات ضئيلة، أي قبل أن تكون كافية لمساعدة الكثير من الناس. ومن الأمثلة على ذلك أن لوماً قد وُجه إلى النساء بسبب "انهيار الأسرة"، وكل مشاكل الشباب، والمخدرات، والجريمة، والبطالة. لم يحصل للنساء أن كنّ سبباً في أي أذى أصاب الذين قادوا تلك الهجمات أو حرموهم من أي شيء. ويوشك هؤلاء على استخدام الخوف من التغيير بمثابة إنذار قبل حصول تغيير رئيس فعلي. لقد رأى البعض أن الهجوم ضد النساء قد تمّ بشكل مقنع أكثر لأن النساء موضوع مشحون بالعواطف ما يجعله هدفاً للسياسيين وغيرهم كي يستخدموه لأغراضهم الخاصة والذاتيّة. إن المشاكل التي تواجهها النساء تنبع من مصادر متركزة عميقاً لا تحددها النساء قطعاً بل إن النساء هنّ ضحاياها.

لكل هذا فإننا نعيش فترة من التدفق الكبير، وقتاً للتحوّل يتسم بنزعات ذات اتجاهات عدة. لقد عمل الكثيرون بجد لحل مشاكل معينة ليجدوا فقط

مجموعات جديدة من المشاكل تظهر من جديد. لقد ناضل العديد من النساء والرجال ليحققوا تغييراً شخصياً عميقاً. كما حاول البعض أن ينجح في مراكز العمل التي لم تبدأ اعتناقها لخبرة وقيم النساء. وقد حاول العديد من النساء جنباً إلى جنب مع حلفاء من الذكور إحداث تغيرات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ومؤسسات دينيّة. بيد أن هذه البنى القوية لا تتغير في الحال. إنها تستجيب بمضادات قوية. وكل خطوة جديدة تجعلنا واعين للطاقة والشجاعة اللتين ما تزالان ضروريتين.

في سياق هذه الصورة المشوشة ماذا حصل في العقد الأخير لدعم فهمنا النفسي؟ إحدى الملامح الصاعقة هي الإنتاج الهائل من أدب علم النفس إضافة إلى ميادين أخرى مثل الثقافة الجديدة عن المرأة. إن حجم ونوعية هذا الأدب يثبتان وجود مخزون كبير من الإبداع الذي كان كامناً وانكشف، وكذلك الغنى الذي يستمر في التدفق. إن هذا الأدب يقف متوهجاً إجلالاً لمواهب وطاقات العديد من النساء. كما يبين أن إبداع الناس يتفتح حين يبدأ الوسط المحيط بتغذيته. ما تزال الظروف الاجتماعية بعيدة عن أن تكون مشجعة لأن معظم أعضاء المجتمعات المهنيّة والأكاديمية ما يزال لا يعتبر أن دراسة المرأة هي عمل جدي. كذلك فإن هؤلاء ينظرون إلى مثل هذه الدراسة على أنها جانبيّة، أو سطحية في أفضل الأحوال. إنهم لم يستوعبوا كامل المعاني الواضحة للجماعة الإنسانية، وللمجتمع برمته ـ للرجال والنساء على حد سواء. أو لعلهم يلمحون هذا العمق ويدركونه بمثابة تهديد. ولعل هذا الخوف يعلل جزئياً تقليلهم من شأن هذا العمل حتى حين يكون بعضه متألقاً ومعظمه تقريباً

محفزاً. وهكذا فحين تتوفر بعض الاستثناءات فإن معظم الجماعات المهنيّة والأكاديمية لا تؤيد أو تشجع الثقافة الجديدة والمثيرة حول المرأة. فهذه الجماعات لا تدعو النساء كي تساعدهن على التعلم وكي تساعدهن على توسيع وتحسين نظرياتهن وممارساتهن. وعلى نحو مماثل لا يُدخل التعليم في معظم الميادين القدر الواسع من الثقافة الجديدة في القوام المركزي للمعرفة. ومن المؤكد أن برامج التأهيل الخاصة بالمهنيين في الصحة العقلية لا تقوم بذلك. إنها تُنزل مرتبة الثقافة عن المرأة إلى السطح لكي يعثر عليها فقط أولئك الذين يبذلون جهداً خاصاً من أجل ذلك. لكن الذين يفعلون فإنما يبذلون جهدهم في ظل الفكرة العامة بأن عليهم أن يعملوا شيئاً لا أهمية له. ونتيجة لذلك يصبحون "أشخاصاً لا أهمية لهم" وبالرغم من هذه المحاولة لتجاهل العمل أو الحط من شأنه فإن الكثير من النساء المهنيات في منظمات كبيرة ومجموعات صغيرة في ميادين مهنية ووظيفية متعددة. قد نهلوا من هذه المعرفة الجديدة التي تبدعها النساء ويحافظن عليها حيّة وقوية. إنهن يعرفن الآن أموراً لم يعرفنها قط. وقد أغنين حياتهن وفهمهن بطريقة لا تضاهى. علاوة على ذلك تلتقي النساء في منظمات كبيرة ومجموعات صغيرة في ميادين مهنية ووظيفية متعدّدة. كما تطورت رؤى جديدة عند مجموعات نسائية في بيئات أخرى مثل الكنائس والاتحادات والمنظمات الخيريّة والسياسية. من هذه البيئات يأتي التشجيع الذي يعد أساسياً للتطور المستمر لمزيد من المعرفة في الجسد الكبير للأدب الجديد حول علم نفس المرأة. لقد وفر لنا العديد من الكتاب والكاتبات ثروة ثرّة من المعرفة. وسوف أركز هنا على موضوعين

رئيسين فقط . أحدهما هو النزعة المتنامية للتركيز على الدراسة الوثيقة للنساء ووصف حياة النساء وتطورهن باللغة التي يحيا بها هذا التطور بدلاً من حشره في تصنيفات كنا قد ورثناها ، تصنيفات نشأت من محاولات قام بها الرجال لوصف الحياة برمتها . وبمعنى أوسع نقول أن كل تفكيرنا الأولي انبثق من مؤسسات الرجال، ومن طرائق الرجال في التفكير والإدراك . لكن النساء في العقد الماضي بدأن يدرسن المرأة والرجل بطرائق غيّرت هذا المنطق .

أما النزعة الرئيسة الأخرى فهي المعرفة المتزايدة للتأثيرات النفسيّة للعنف الجنسي ضد المرأة والرجل على حد سواء . وبملاحظة هذا العمل فإنني لا أقصد أن أضع ضمناً تقييماً لكامل العمل الذي أنجزته النساء في علم النفس، بل إن هذين مجالين يرتبطان باهتماماتي في الوقت الحالي .

مع مرور الوقت سوف يكون بمقدورنا أن نرى بعض السمات في كتاب لأفراد من الفريق المظلوم . في البداية يعمل العديد من الكتاب والكاتبات على تبديد الأفكار الزائفة التي انتشرت عن هذا الفريق . وتبديد الأفكار الزائفة على جانب كبير من الأهميّة . لكن جنباً إلى جنب مع هذا العمل غالباً ما تنبثق نزعة "لإثبات" أن المجموعة المظلومة هي "جيدة بقدر ما يكون أفراد الدرجة الأولى جيدين" ويجب أن تعامل كما يعاملون ، وفي السعي لإثبات هذا غالباً ما يقبل الكتاب والكاتبات معايير وقيم المجموعة المهنية سواءً عن قصد أو عن غير قصد . وهم غالباً ما يفترضون أن طريقة المجموعات المهيمنة في تطوير المعرفة هي الأفضل أو هي الطريقة الوحيدة . والواقع أن الفروع الدراسية الجامعية تمارس ضغطاً كبيراً على كل فرد ليصدق هذا ، ولديهم نزعة لمعاقبة وإسكات أولئك الذين ينحرفون عنه .

حين تكون عملية تبديد الأفكار الزائفة آخذة مجراها تنبثق القدرة على رؤية خبرة المظلومين أو "الأشخاص من الدرجة الثانية" حسب تعبيرهم، ولرؤية أن هذا التعبير يمكن أن يمهد أكبر ليس فقط للأشخاص من الدرجة الثانية بل للجميع. عندئذ يصبح من الأوضح أن التصنيفات وحتى المصطلحات التي تستخدمها المجموعة المهنية ليست ملائمة. فهذه المصطلحات تميل عادة وبشكل منهجي، إلى الحط من قيمة خبرة الفئة التابعة وإلى التفسير السيئ لخبرة المجموعة المهنية. إذا بحث الكتاب والكاتبات عن مصطلحات ملائمة أكثر فإنهم سوف يتخلون عن التصنيفات والافتراضات المألوفة.

وعندئذ سيرون خبرة الفئة المهيمنة على ضوء جديد، على ضوء مصطلحات يمكنها أن تنير تلك الخبرة إضافة إلى الخبرة الإنسانية برمتها.

هذه الثقافة الجديدة تفضي إلى الاعتراف بأن وصف الحوادث التي تحصل في حياة الفئة التابعة كانت غير دقيقة. وهنا تنبثق مجموعة من الافتراضات والنقطة هنا هو أن النساء يعرفن كل شيء على الفور أو يفهمن كل شيء. إن صيغة التابع ـ المهيمن كانت وما تزال تحرم وتشوه الأفراد من كلا الجنسين لكن بطرق مختلفة لكل منهما. إن الفكرة الرئيسة في هذا الصدد هي أن الدراسة الوثيقة لفئة مظلومة تظهر أن فئة مهيمنة تصف فئة تابعة بشكل زائف حتماً. وتستخدم في هذا الوصف مصطلحات مستمدة من نظامها الخاص بالتفكير. هذه المصطلحات الزائفة نفسها توجه شروحات الفئة المهيمنة على نفسها. وحين يكتشف الكتاب والكاتبات عدم دقة هذه المصطلحات؛ فإن عليهم أن يعثروا على مصطلحات جديدة. وبمجرد أن يعثروا على مصطلحات

جديدة يرون أن منظومات التفكير التي تنطوي على هذه المصطلحات الزائفة تتسم بعيوب في افتراضاتها الأساسيّة.

قد يكون بوسعي أن أوضح هذه النقطة من خلال عودة قصيرة إلى اهتماماتي الخاصة في غضون السنوات العشر الأخيرة. لقد أصبحت أكثر اقتناعاً أن الدراسة خاصة للتطور النفسي عند المرأة تفتح الطريق إلى فهم أفضل من كل التطورات النفسية لاسيما تلك الجوانب الأكثر غموضاً. فإذا نظرنا إلى ما تفعله المرأة في الحياة نرى أن جانباً كبيراً منه يمكن أن يدعى "مشاركة فعالة في تطوير الآخرين". وتحصل هذه المشاركة عبر التفاعل اليومي الذي يستغرق معظم وقت المرأة مع الكبار كما هو الحال مع الأطفال. ومن الأشكال التي تصف ما تفعله النساء القول بأن النساء يحاولن التفاعل مع الآخرين بأشكال تعزز تطور الشخص الآخر ضمن أبعاد كثيرة ومختلفة. وهذا يعني الجوانب العاطفية والعقلية وغير ذلك. هذا النوع من التفاعل يبني الطاقات النفسية للشخص الآخر. ويستخدم المهنيون عبارات مثل "الأمومة"، "الحضانة"، "الرعاية" وما شابه لوصف هذا النشاط. وهم لا ينظرون إليه بوصفه فعالية قطعاً بل جعلوه يبدو جزءاً من "السلبية".

ثمة طريقة أخرى لوصف هذه الفعالية بالقول إن النساء يحاولن استخدام قواهن وإمكاناتهن العقلية والعاطفية لمساعدة الآخرين، لبناء قوة الآخرين وتأثيرهم ووجودهم. لكن لا تنجح جميع النساء طيلة الوقت بل يحاولن.

ليس من إنسانٍ ينمو بلا هذه التفاعلات. ومع ذلك يركز علماء النفس على اكتسب معرفة دقيقة بتجربة المرأة في هذه التفاعلات بالرغم من أن

التطور النفسي هو عنصر مركزي في هذا المجال. كذلك فإن النساء أنفسهن لم يشجعن على منحها قيمة كاملة وصادقة.

يستخدم علماء النفس مصطلحات مثل "اندماج"، "انصهار"، "ارتباط" أو تبعية لوصف علاقة الطفل المبكرة بأمه، وعبارات مثل "انفصال" "استقلال" في الحديث عن النضج أو النقطة الأخيرة في التطور. ويلاحظ أن ليس بين هذه العبارات ما يركز على طبيعة التفاعل عند كل سن. والواقع أن الكلمات لا تدل على التفاعل. فكلمة مثل "انصهار" لا تعني تفاعلاً، ولا كلمة مثل "استقلال" تعني النضج. وعلى نحو مماثل لا يشمل معيار النضج القدرة على الانشغال في التفاعل الذي يقوي الذات والآخرين في آن معاً. هذا ينطوي على أن الشخص "المستقل" يقوم أيضاً بصنع علاقات طيبة لأنه "هو" يكون قد بنى بنية نفسية داخلية قويّة. لكننا نعلم أن ثمة القليل من أولئك الأشخاص الأقوياء المستقلين. وإذا رأينا واحداً فعلاً، فإن الكثرة الباقية، عادة ما يساعدونه على البقاء والفعل.

وفي حين يبدو واضحاً أن النشاط الحيوي والتطور يحصلان ضمن علاقات فقط فإن نظرياتنا عن التطور تبدو أنها تستقر أساساً على فكرة التطور بوصفه فصلاً عن الآخرين. أعتقد أن هذه الفكرة مستمدة من وهم، من خيال يشجع الرجال لا النساء على الكفاح من أجلها. وبشكل عام فقد أنيطت بالنساء حقول من الحياة تعنى ببناء العلاقات لاسيما تلك العلاقات التي توفر التطور بالقوة. لذا يمكننا أن نبدأ اكتساب المزيد من الفهم عن التفاعلات النامية المتصاعدة وذلك من خلال دراسة حياة النساء. كما يمكننا أن نرى العقبات

التي تحول دون الإدراك التام لهذه التفاعلات. إننا نعي المشاكل ونواحي القصور في تطور الرجال بطريقة جيدة.

لم تبدع المرأة حتى الآن نظرية نفسيّة جديدة وشاملة. وليس لديها حتى الآن مجموعة من التصنيفات للمصطلحات المناسبة للثقافة عن المرأة. فالقفز فوق منظومات الفكر واللغة التي ورثناها ليس عملاً سهلاً. وهذا ما يجعلنا نشعر بالحاجة أكثر فأكثر إلى افتراضات وكلمات جديدة، ويزداد وعينا لهذه الحاجة. إننا ندرك أن الدراسة الوثيقة لتجربة المرأة تقود في النهاية إلى فرضيات جديدة تصف التجربة برمتها على نحو أفضل. وتقوم الكتابات اللائي يملكن الاستعداد للابتعاد عن أقدس الفرضيات بتوسيع رؤيتنا عن إمكانيات الإنسان.

إن الكشف عن العنف في حياة النساء وتأثيره النفسي لا على الضحايا المباشرين وحسب بل على الجميع قد تعمق في غضون السنوات العشر الماضية. هذا القوام من الأدب يستحق تكريماً خاصاً لأن النساء اللواتي كنّ رأس حربته كن هن أنفسهن قد نجون من العنف، أو أنهن النساء اللواتي انبثقت كتاباتهن من الفعل المباشر لتغيير الوضع القائم أو أنهن الاثنان معاً.

ثمة قوى إضافية فعالة في حالة الرجل ـ المرأة بسبب الطبيعة الشخصية وحدتها. إن ثقافتنا تعلّم معظم الناس أن يبحثوا عن إشباع حاجاتهم ورغباتهم الأعمق ضمن هذه العلاقة. فضلاً عن ذلك باتت هذه العلاقة هي أساس الأسرة حيث يتشكل عقل كل جيل. في الطبعة الأولى لهذا الكتاب لم أعطِ عامل العنف في هذه الحالة وزناً كافياً.

حتى حين تعيش النساء مع التهديد الواسع بالعنف فإنهن يطورن صفات نفسية قيّمة جداً لأنهن يتابعن محاولة خلق تفاعلات متنامية ومشجعة ضمن الأسرة وفي أشياء أخرى. وتكافح النساء، كجماعة، لإبداع علاقات لحياة معطاءة وحية متنامية في سياق العنف وقوى الحياة التدميريّة.

يتركز عملي في هذا الوقت، بوجه خاص، على محاولة فهم المزيد عن طبيعة "بيئة الاتصال" و"أمزجة الاتصال" التي تنمي التطور النفسي. وأشعر أنني محظوظة جداً لأن بوسعي أن أقوم بهذا العمل مع عدد من الزملاء الذين يشتركون، بطريقة عامة، والذين ظهرت أعمالهم في سلسلة من أوراق العمل التي تصدر عن مركز (Stone) للخدمات والدراسات المتطورة في جامعة ويلسيلي (Welleselly). وتتدفق أفكارنا أحياناً من التفاعل فيما بيننا. لذا فقد يكون من غير الملائم القول بأن فكرة ما "تنتمي" إلى شخص ما. فالفكرة تكبر وتتحول تدريجياً ضمن التفاعل بحيث لم تعد ما كانت حين انطلقت. فهي حقاً إبداع الكل مجتمعين. ومن ناحية أخرى لا نفكر جميعاً بالشكل نفسه، ونستمر في الكفاح لتبجيل هذه الاختلافات والتعلّم منها.

هناك بعض التعليقات التي تضمنتها مقدمة الطبعة الأولى لهذا الكتاب والتي لا بد من إيرادها من جديد. فقد أشرت هناك إلى أنني أوردت تجارب من حياة نساء، وأن وصف هذه التجارب كان مبسطاً وتخطيطياً. واقتصر استخدامها على التوضيحات فقط. ولحماية الناس ذوي العلاقة فقط تم تقنيعهم تماماً. وهذا التصوير الموجز لا يبدأ بتوليد النشاط والتعقيد لصاحب التجربة مرّة أخرى.

لم أحاول التعامل مع العوامل الطبقية والعرقية التي تخلق اختلافات هائلة بين النساء . كما أنني لم أناقش موضوع المرأة السحاقية . فانا أعتقد أن بوسع كتاب آخرين أن يتحدثوا عن هذه الموضوعات بمعرفة أوسع . لقد ركزت، بشكل عام، على العوامل التي أعتقد أنها موجودة عند كل النساء بوصفهن نساء .

لقد ناقشت جوانب من المادة مع الكثير من الأفراد والجماعات الذين أعطوا وقتاً كافياً واهتماماً أكثر من المألوف للتعليقات والانتقادات . علاوة على ذلك أن كلاً من بيرك، وروي بينيه، آن بيرنز، باربارا دوبيس، جون زيلباخ قد قرأوا وانتقدوا عن كثب وباختصار، في الغالب، جميع أو جل الأجزاء الأولى من المخطوط .

كما أود أن أعبر عن التقدير لمجلة (أميركان جورنال للطب العقلي) (American Journal of Orthopsychiatry) لسماحها باستخدام مواد نشرت فيها للمرّة الأولى وفي طبعة مختلفة . والواقع أن الفضل في وجود هذا الكتاب ككتاب، يعود إلى ماري آن لاش Mary Ann Lash التي كانت مساعدة مدير ثم مديرة لمطبعة بيكون عند تنفيذ الطبعة الأولى لهذا الكتاب . لقد علمتني أن الكتاب يمكن أن يكون جزءاً من عملية . (كنت أعتقد أن لدي فكرة عن أشياء أخرى، لكن لم أستطع أن أصل إلى كتاب) .

والكتاب لا يمكن أن يكون جزءاً من عملية فحسب، بل كان صنع هذا الكتاب عملية جديدة في صناعة الكتب بالنسبة لنا . ففي كل مرحلة كانت المادة تنتقل جيئة وذهوباً بيننا . وتتابع ماري آن إضافة إسهام رئيس لها . لكن لم يكن في مقدورها أن تنفذ إلى جزء صغير من ذلك الإسهام كي تصنع من نثر

مستغلق شيئاً متماسكاً. كان هذا، بلا ريب، سيهز عقلاً أقل، ويعود شخصاً "أقل اهتماماً". لكن كانت لديها هذه الموهبة العظيمة والنادرة وهي القدرة على الإثارة والتصعيد في الوقت الذي لا تتطفل فيه أو تعتدي. حبذا لو كان بوسعنا جميعاً أن نفعل ذلك لبعضنا بعضاً. وهذه المقدمة كانت برهاناً على الأمور التي كنت أحاول الكتابة عنها.

في الطبعة الثانية أخذت بهذا التقليد جوان وايكوف J.Wyckoff المحرّرة الأولى في مطبعة بيكن. وهنا أعبّر عن بالغ الامتنان لها.

أما القرارات الأخيرة فقد كانت قراراتي بالذات وبالنتيجة مسؤوليتي الأخيرة أيضاً. وقبل كل شيء أود أن أتوجه بالشكر إلى زوجي مايك وأبنائي جون ونيد لمساعدتهم وحبهم ومزاحهم. لقد تعلمت الكثير من كل منهم، وكل بطريقته المختلفة هو رجل من نوع جديد. لقد كان لي حظ سعيد ونادر.

ج. ب. م.

يوليو/ حزيران ١٩٩٦

بوسطن، ماساشو سيتس

الجزء الأول

صناعة العقل حتى الآن

الفصل الأول
السيطرة ـ التبعيّة

إن القضية التي سوف نكافح فيها من أول هذا الكتاب إلى آخره هي قضية الاختلاف. ماذا يفعل الناس مع من يختلفون عنهم ولماذا؟ على الصعيد الفردي ينمو الطفل فقط عبر انشغاله بمن يختلفون عنه بدرجة كبيرة. لذا فإن الاختلاف الأهم هو ذلك الاختلاف بين الطفل والبالغ. أما على الصعيد الإنساني، بشكل عام، فإن لدينا مشكلة كبيرة تدور حول تنوع واسع من الاختلافات. لكن الاختلاف الجوهري هنا هو ذلك الاختلاف القائم بين النساء والرجال.

ومن الملائم على كلا الصعيدين أن نطرح سؤالين هما: متى يحفز الانشغال بالاختلاف على تطوير وتصعيد الارتباط لدى الطرفين؟ وعلى نحو مغاير: متى يكون لمثل هذه المواجهة مع الاختلاف آثار سلبية؟ أي متى تؤدي على الصعيد الفردي والصعيد الجماعي إلى صعوبات كبيرة وتدهور وتشويه، وإلى شكل من أسوأ أشكال الانحطاط والهلع والعنف التي يمكن أن يختبرها الإنسان؟ من الواضح أن الجنس البشري، بشكل عام، لاسيما في تقاليدنا الغربية، كما في غيرها، لا يملك سجّلاً مجيداً جدّاً في هذا المجال.

من غير الواضح ما إذا كانت اللامساواة هي دائماً عاملاً في معظم حالات الاختلاف. أقصد اللامساواة الناشئة من أنواع متعددة من المصادر وبشكل أساسي من المكانة والسلطة. ومن الطرق المجدية لفحص النتائج المربكة والمشوشة لهذه المواجهات مع الاختلاف أن نسأل: ماذا يحدث في حالات اللامساواة؟

ما هي القوى المحركة؟ وحين نستخدم كلمة "مسيطر" و"تابع" في النقاش يكون من المفيد أن نتذكر اللحم والدم اللذين يشترك بهما كل من الرجال والنساء. إن الحديث في المجردات يتيح لنا أحياناً قبول ما لا نقبل على المستوى الشخصي.

اللامساواة المؤقتة:

ثمة نوعان من اللامساواة ذات الصلة بالموضوع للأغراض الحالية. وقد يدعى النوع الأول اللامساواة المؤقتة. والفريق الأقل هنا يعرّف اجتماعياً بأنه غير مساوٍ. والأمثلة الرئيسة على ذلك هي العلاقات بين الآباء والأبناء، المدرسين والطلاب، وربما الأطباء النفسيين والمرضى. وهناك بعض الافتراضات في هذه العلاقة التي لا تبدو ظاهرة في معظم الأحيان. ولا تتحقق في الواقع. بيد أنها هي التي تشكل البنية الاجتماعية في العلاقة.

من المفترض أن "الفريق المسيطر" يملك الأكثر من قدرة ما أو ميزة ذات قيمة يفترض أن ينقلها إلى الشخص "الأقل"، أي من يملك الأقل. وفي حين تتباين هذه الإمكانات تبعاً للعلاقات الخاصة؛ فإنها تنطوي على النضج العاطفي والخبرة في الحياة والمهارات البدنية والقوام المعرفي أو تقنيّات اكتساب بعض أنواع المعرفة.

ويفترض أن ينشغل الأعلى بالأدنى بطريقة يرفع فيها الأول الثاني إلى حالة التكافؤ. وهذا يعني أن نقدم المساعدة للطفل إلى أن يصبح بالغاً. وتلك هي مهمة ووظيفة هذه العلاقة بكاملها. فالطفل الأقل يتلقى من لدن من يفترض أن لديه أكثر ليعطيه. وبالرغم من أن الطرف الأقل غالباً ما يعطي الأكثر لمن هو أعلى فإن هذه العلاقة مبنية على خدمة الطرف الأقل.. وهذه علة وجودها.

من الواضح إذاً أن الهدف الأسمى هو إنهاء العلاقة؛ أي إنهاء علاقة اللامساواة لأن فترة عدم التكافؤ تعتبر مؤقتة. ويمكن للأفراد أن يستمروا في ارتباطهم كأصدقائهم أو زملاء أو حتى متنافسين، لكن ليس كأعلى أو أدنى. هذا هو الهدف على الأقل.

والواقع أن لدينا مشكلة كافية في هذا النوع من العلاقة. وتتمثل بأن الآباء أو المؤسسات المهنيّة تميل إلى تلبية حاجات من يعطون بدلاً من أعضاء الفريق الأدنى. وكمثال على ذلك هو أن المدارس يمكن أن تتوجه إلى خدمة المدرسين أو الإداريين أكثر من الطلاب، أو أن الشخص الأقل يتعلّم كيف يصبح "أقل" بشكل جيد أكثر من تعلمه كيفية القيام بالرحلة من الأدنى إلى حالة الكمال. والأهم من ذلك هو أننا لم نكتشف طرقاً ملائمة تماماً لتنفيذ المهمة الأساسية، أي لتعزيز الحركة من الناقص إلى الكامل. ففي تنشئة الأطفال وتعليمهم لا نملك نظرية وممارسة دقيقتين. كما أننا لا نملك المفاهيم التي تعمل بشكل جيد في العلاقات الأخرى التي تدعى "علاقات مساعدة" مثل معالجة المرضى، ومعاملة المساجين، وإعادة التأهيل. من الناحية الرسمية نقول بأننا نريد القيام بهذه الأشياء، إلا أننا نخفق في غالب الأحيان.

إن لدينا العديد من المشاكل التي تؤثر على عدد الحقوق "المسموح بها" للفريق الأقل. ونواجه مشكلة شاقة حين يتعلق الأمر بالقوّة التي يجب أن يتمتع بها الفريق الأدنى أو الأقل. فإلى أي حد يمكن للشخص الأدنى أن يعبّر أو يتصرف وفق مدركاته حين تختلف هذه المدركات بشكل محدد عن مدركات الأعلى؟ وقبل كل شيء ثمة صعوبة كبيرة في الإبقاء على مفهوم الشخص الأدنى بوصفه شخصاً ذا جوهر مساوٍ للأعلى.

إن النقطة الحاسمة هي أن القوّة هي العامل الرئيس في هذه العلاقات. بيد أن القوة لا تكفي وحدها. صحيح أن القوّة موجودة ولابد من أن تؤخذ في الحسبان. لكن القوة لن تنجز المهمة لأنها لن ترفع الشخص الناقص إلى حالة مساواة.

قد تنبع متاعبنا مع هذه العلاقات من حقيقة أنها موجودة ضمن مجال النمط الثاني من اللامساواة. هذا النمط يميل إلى إغراق الطرق التي تعلمنا أن نعالجها في النمط الأول.

فالنمط الثاني يشكل الحالات التي أدركناها بذاتها، والتي شكلت مفاهيم لما نقوم به في النمط الأول حيث تكون العلاقة أساسية تماماً.

يعلمنا النمط الثاني من اللامساواة كيف نقوي هذه الحالات. ولا يعلمنا كيف نقوم بالرحلة من الناقص إلى الكامل. والأهم في هذا النمط هو أن تأثيراته تبقى غامضة بشكل مدهش، بل يجري نكرانها في الواقع. وسوف نركز على هذا النوع من اللامساواة في هذا الكتاب. وعلى أي حال فإن الفكرة المهمة هو أن النمط الثاني ما يزال يحدّد فقط الحالات التي نستطيع أن نفكر ونشعر بها في النمط الأول.

اللامساواة الدائمة

في هذه العلاقات يُعرّف بعض الناس أو الجماعات على أنهم غير مساوين. ويجري هذا التعريف وفقاً لما يسميه علماء الاجتماع بالعزو أو النسبة، بمعنى أن ميلادك يحدّدك. وقد يكون المعيار العرق أو الجنس أو الطبقة أو الجنسيّة أو الدين أو السمات الأخرى التي ينسب إليها الشخص عند الولادة. وهنا تكون مصطلحات العلاقة مختلفة جدّاً عن المصطلحات المستخدمة في حالة اللامساواة المؤقتة. فعلى سبيل المثال ليس ثمة إشارة إلى أن الأعلى قد وجد أساساً لمساعدة الأدنى كي ينقل الأول سجاياه وسماته "المحمودة" إلى الثاني. وليس ثمة افتراض بأن الهدف من علاقة اللامساواة هو وضع حد لهذه العلاقة بعد انقضاء فترة محددة من الزمن، بل إن العكس تماماً هو الصحيح في الواقع. وتحكم هذه العلاقة سلسلة من النزعات على المستوى السطحي أولاً، وسأعود إليها في حينه لنرى كيف تعمل بعمق ودقة على المستوى الشخصي العميق. وفي الوقت الذي يبدو فيه بعض العناصر واضحاً؛ فإن العديد من الخلافات والغموض بالنسبة للسمات النفسية قد تنشأ من ظروف واضحة وضوح تلك العناصر.

المسيطرون: حين تعرّف جماعة بأنها تابعة يميل المسيطرون إلى وصمها بأنها متخلفة أو دونية بأشكال مختلفة. ولا يلبث هذا الوصم أن يتزايد بسرعة. وهكذا يوصف السود بأنهم أقل ذكاء من البيض. كما يقتضي ذلك أن تكون المرأة محكومة بالعاطفة وهكذا. وفضلاً عن ذلك تميل أفعال وأقوال الجماعة المسيطرة لأن تكون تدميريّة أو مدمرة للتابعين. هذه النزعة تؤكدها

البراهين التاريخية. وبالرغم من أن هناك تأثيرات مدمرة للتابعين أيضاً ؛ فإنها أقل وضوحاً مما هي لدى المسيطرين. كذلك فإن الأخيرة ذات شكل مختلف، ويكون إدراكها أصعب بكثير. وهذا ما سوف نناقشه في هذا الفصل والفصول المتعاقبة من هذا الكتاب.

تقوم الجماعة المسيطرة عادة بتحديد دور مقبول أو أكثر للتابعين. وتشمل الأدوار المقبولة، بشكل نموذجي، على خدمة مشروطة بأن لا تؤديها أي من الجماعات المسيطرة مثل تنظيف نفايات المسيطرين مثلاً. أما الأعمال التي يفضل المسيطرون أداءها فإنها تحرس بعناية وتحجب عن التابعين. وخارج المدى الكلي للإمكانات الإنسانية تميل النشاطات ذات القيمة الأسمى في أي ثقافة خاصة لأن تكون محصورة ضمن عالم الجماعة المسيطرة، وتحال الأعمال الأدنى إلى التابعين.

عادة ما يقال بان التابعين عاجزون عن أداء الأدوار المفضلة. ويعزى عجزهم إلى قصور فطري أو نواقص في العقل أو الجسم. وبناء على ذلك فإنها ثابتة وعصية على التغيير والتطوير. ويصبح من المتعذر على المسيطرين حتى التخيل بأن لدى التابعين القدرات على أداء الفعاليات المفضلة. والأهم من ذلك أن التابعين أنفسهم قد يصلون إلى حالة يجدون فيها أن من الصعب الإيمان بقدراتهم الخاصة. إن أسطورة عجزهم عن تحقيق أدوار على نطاق واسع أو ذات قيمة يتم تحديدها فقط حين تحصل حادثة عنيفة تحطم الترتيبات المألوفة. فعلى سبيل المثال في حالة الطوارئ في الحرب العالمية الثانية قامت النساء "غير الكفوءات" فجأة "بإشغال مكان الرجال" في المعامل بمهارة عالية.

ينجم عن ذلك أن التابعين يوصفون بناء على سماتٍ نفسية شخصية ويشجعون على تطويرها. وهذه السمات هي التي ترضي الجماعات المسيطرة. وتشكل هذه السمات مجموعة معينة مألوفة مثل: الخضوع، السلبية، سهولة القياد، الاتكالية، الافتقار إلى المبادرة، العجز عن التصرف واتخاذ القرار والتفكير وما شابه. وعلى وجه العموم تنطوي هذه السمات على سمات للأطفال أكثر منها للبالغين مثل عدم النضج والضعف والعجز، ويوصف التابعون بأنهم قادرون على التكيف الجيد حين يتمثلون هذه الصفات.

لكن حين يظهر التابعون طاقة كامنة من الذكاء أو المبادرة أو تأكيد الذات، والأخطر من ذلك حين يطورون صفات أخرى؛ فإن المألوف ألا يكون ثمة مجال داخل إطار المسيطرين للاعتراف بهذه الصفات. وسيعرّف هؤلاء الأشخاص بأنهم غير عاديين على الأقل إن لم يعرفوا بأنهم شواذ. ولن تكون ثمة فرص للتوظيف المباشر لإمكاناتهم ضمن الترتيبات الاجتماعية القائمة. (كم هناك من امرأة تظاهرت أنها مغفلة).

ومن المألوف أن تقوم الجماعة المسيطرة بإعاقة تطور التابعين واعتراض سبيل حريتهم في التعبير والعمل. كذلك يميل أفراد هذه الجماعة إلى العمل ضد النشاطات ذات الطابع الأكثر عقلانية وإنسانية لدى أعضاء جماعتهم ذاتها. فمنذ وقت غير بعيد كانت عبارة "الزنجي العاشق" عبارة مبتذلة. وحتى الآن ما يزال الرجال الذين (يسمحون لزوجاتهم) أكثر مما هو معتاد عرضة "للسخرية" في دوائر كثيرة.

من المحتمّ أن الجماعة المسيطرة تتمتع بالنفوذ الأكبر في تحديد كامل النظرة الثقافية وفلسفتها وأخلاقياتها ونظريتها الاجتماعية وحتى علومها. لهذا فإن الجماعة المسيطرة تجيز العلاقة غير المتساوية وتجدها في مفاهيم المجتمع الإرشادية. وبهذا تحجب النظرة الاجتماعية الطبيعية الحقيقية لهذه العلاقة. وهذا يعني وجود اللامساواة من تلقاء ذاته. فالثقافة تفسر الأحداث التي تحصل في ضوء مقدمات أخرى. هذه المقدمات هي بالتأكيد زائفة مثل الدونية الجنسية أو العرقية. وفي حين عرفنا في السنوات الأخيرة الكثير عن مثل هذه المزاعم على المستوى الاجتماعي الأوسع فإن تحليلاً كاملاً للمضامين النفسيّة يظل بحاجة إلى تطوير ففي حالة المرأة مثلاً تسود الفكرة القائلة بأن المرأة خلقت سلبية خانعة سهلة القياد وتابعة. هذا بالرغم من الأدلة الساحقة على عكس ذلك. ومن هذه المقدمة غالباً ما تتحدد حصيلة العلاج النفسي والمجابهة مع علم النفس والعلوم الأخرى.

من المؤكد أن الجماعة المسيطرة هي النموذج (للعلاقات الإنسانية العادية)، وهي بذلك تصبح (عادية) لتعامل الآخرين بشكل مدمر وتحط من قدرهم وتحجب الحقيقة عما تفعل باختلاقها تفسيرات مزيفة. كما تعارض العمال المتجهة نحو المساواة. وباختصار إذا تحدّدت هوية الشخص بالجماعة المسيطرة فإن من المألوف أن يستمر في هذا النمط. وبالرغم من أن أكثرنا لا يحب بان يفكر بأنه يؤمن بالسيطرة أو يهتم بها فإنه من الصعب في الواقع، على عضو في الجماعة المسيطرة أن يفعل خلاف ذلك. وللاستمرار في هذه الأشياء يكفي المرء أن يتصرف (بشكل عادي).

يتبع هذا أن الجماعة المسيطرة لا ترغب، بشكل عام، أن تبلّغ أو تذكّر بهدوء بوجود اللامساواة. كما أن من المألوف أن بوسع المسيطرين أن يتحاشوا الوعي لأن تفسيرهم للعلاقة يغدو مندمجاً بتعابير أخرى لدرجة أنهم يستطيعون التصديق بأنهم يشتركون مع التابعين في المصالح ذاتها. كما أنهم يمتلكون خبرات مشتركة إلى حد ما. وعند الضغط قليلاً يقدمون المسوغات المألوفة: المنزل هو (مكان المرأة الطبيعي)، ونحن نعلم (ما هو أفضل لهن).

يفضل المسيطرون ألا يتحدثوا عن الصراع وان يتحاشوه. والصراع هنا هو الصراع المفتوح الذي قد يثير الشك في الوضع السائد برمته. ويكون في هذه الحالة خاصاً ومأساوياً على نحو يعاني منه الكثير من أعضاء الفريق المسيطر. فأعضاء الفريق المسيطر، أو على الأقل، شرائح منه، كالرجال من الطبقة العاملة الذين هم أنفسهم تابعون، غالباً ما يشعرون بانعدام الثقة بموطئ قدمهم الضيق المؤسس على الهبات المادية والمعنويّة التي يعتقدن أنهم بأمس الحاجة إليها.

إن الشيء الذي لا يستطيع المسيطرون الامتثال له أو حتى رؤيته هو أن وضع اللامساواة يسبب لهم الحرمان في الواقع، لاسيما على الصعيد النفسي. فمن الواضح أن اللامساواة قد خلقت حالة من الصراع. ومع ذلك تميل الجماعات المسيطرة إلى إخماد الصراع، وترى أن أي تساؤل عن الحالة (العادية) هو بمثابة تهديد. كما أن النشاطات التي يقوم بها التابعون في هذا الاتجاه يتم تداركها مع الحذر.

من المألوف أن يقتنع المسيطرون أن الطريقة التي تسير بها الأشياء هي صحيحة وصالحة ليس لهم وحدهم وحسب بل، وبشكل خاص، للتابعين. فكل المثل والفضائل تؤكد ذلك وتدعمه جميع البنى الاجتماعية. ومن نافل القول أن نضيف بأن الفئة المسيطرة تمسك بالقوّة العامة والسلطة، وهي التي تحدّد الطرق التي تستخدم فيها القوّة بشكل مقبول.

التابعون: ماذا عن دور التابعين في هذا؟.. ما دام المسيطرون يحددون ما هو عادي للثقافة فإن من الأصعب بكثير فهم التابعين. فالتعبيرات الأولية عن الاستياء والتصرفات المبكرة التي يقوم بها التابعون تأتي دائماً على حين غرّة. فهم عادة مرفوضون كنموذج. وفوق كل شيء يعلم المسيطرون أن ما تريده وتحتاجه كل امرأة ليس سوى رجل تنظم حياتها حوله. ولا يفهم أعضاء الجماعات المسيطرة لماذا (هم) أول من يتكلم بحرية - منزعجون وغاضبون على هذا النحو.

إن الصفات التي تجسد التابعين تبدو أكثر تعقيداً. فليس عليهم سوى التركيز على البقاء الجوهري، وبالنتيجة يتحاشون رد الفعل المباشر والصادق على المعاملة المدمرة. كما لابد لهم أيضاً من تحاشي العمل المكشوف الصادر عن الذات ولمصلحة الذات. وقد تنتهي مثل هذه الأعمال بالجماعات التابعة إلى الموت موضوعيّاً. وهذا ما يحصل فعلاً في مجتمعنا. فقد ينشأ عن تصرف المرأة المباشر مجموعة من الصعوبات الاقتصادية والنبذ الاجتماعي والعزلة النفسيّة، بل حتى تحلل نظام الشخصية.

إن أياً من هذه العواقب سيئ بما يكفي. وسوف نناقش في الفصول القادمة بعضاً من أمثلة ذلك، وكيف تستخدم ثقافة الجماعات المسيطرة للتحكم بسلوك المرأة.

من غير المفاجئ إذاً أن تلجأ الجماعة التابعة إلى طرق مُقنّعة وغير مباشرة في الفعل ورد الفعل. وفي حين أن هذه الطرق كانت قد صممت لتخدم وترضي الجماعة المسيطرة فإنها تنطوي، في الواقع، على دفاع خفي و(رياء).

غالباً ما تقوم الحكايات الشعبية والنكات السوداء وحكايات النساء على فكرة الفلاح الماكر أو المزارع بالحصة الذي يخدع الإقطاعي الغني (رب العمل أو الزوج). ويتأسس جوهر القصة على حقيقة أن السيد الأعلى لا يعلم أنه كان موضع سخرية.

من النتائج المهمة لهذا الشكل غير المباشر في التعامل أن يحرم أعضاء الجماعة المسيطرة من جانب أساسي من الحياة وهو الفرصة لاكتساب فهم عبر معرفة تأثير الآخرين فيها. ونتيجة لذلك يحرمون من (صدق الرضا عن الذات) والتغذية الراجعة والفرصة لتصحيح أقوالهم وأفعالهم. أما التابعون فإنهم ببساطة لن يفصحوا عن ذلك. وللأسباب ذاتها تحرم الجماعة المسيطرة كذلك من المعرفة الصادقة عما يتعلق بالتابعين. إن من المثير للسخرية، بشكل خاص، أن "الخبراء" الاجتماعيين في المعرفة عن التابعين هم عادة أعضاء في الجماعة المسيطرة.

وهكذا يعرف التابعون عن المسيطرين أكثر من العكس. إن عليهم أن يكونوا كذلك. كما أنهم يصبحون متناغمين معهم إلى حد كبير وقادرين على التنبؤ بردود أفعالهم من رضا واستياء. وهنا كما أرى أن تبدأ القصة الطويلة "للحدس الأنثوي"، و"المكر الأنثوي". ويبدو بوضوح أن هذه المواهب "الغامضة" هي في الحقيقة مهارات تطورت عبر ممارسة طويلة بقراءة العديد من الإشارات الصغيرة سواءً ما يصح منها على الواقع أو ما لا يصح.

أما النتيجة المهمة الأخرى فهي أن التابعين غالباً ما يعرفون عن المسيطرين أكثر مما يعرف هؤلاء عن أنفسهم. فإذا كان جانب كبير من قيمتك تتوقف على مجاملة وإرضاء المسيطرين فإنك سوف تركز عليهم كي تفهمهم. والواقع أن ثمة غرضاً بسيطاً لمعرفة نفسك لأنك لست بحاجة إلى هذه المعرفة مادامت معرفة المسيطرين تحدّد حياتك! إن هذه النزعة تخضع لقيود عديدة فالإنسان يُعرف عبر الفعل والتفاعل. ويحتاج التابعون إلى تقويم واقعي لقدراتهم ومشاكلهم كي يصلوا إلى الدرجة التي تحدّد مجال أعمالهم وتفاعلهم. ولسوء الحظ فإن ثمة صعوبة معقدة في معرفة الذات أيضاً.

إن منشأ التشويش هو أن التابعين يتمثلون جانباً كبيراً من المزاعم التي يختلقها المسيطرون. فهناك الكثيرين من السود الذين يشعرون بالدونية تجاه البيض، والنساء اللائي مازلن يعتقدن أنهن أقل أهمية من الرجال. هذا التقمص لمعتقدات المسيطرين يحصل بصورة متزايدة حين يكون هناك عدد ضئيل من المفاهيم البديلة في متناول اليد. ومن ناحية أخرى يمتلك أعضاء الجماعة التابعة بعض التجارب والمفاهيم التي تعكس بدقة الحقيقة عنهم وعن الخطر الذي يحيق بهم. وتميل مفاهيمهم الأصح لأن تصبح في تعارض مع الأساطير التي تشربوها من الجماعة المسيطرة، ويصبح من المحتم تقريباً ظهور توتر داخلي بين مجموعة المفاهيم وما يتبع كلاً منها.

من المنظور التاريخي، وبالرغم من العقبات، تميل الجماعة التابعة إلى الحركة نحو حرية أكبر في التعبير والسلوك مع أن هذا التقدم يختلف كثيراً من ظرف إلى آخر. لقد كان هناك، على الدوام، عبيد يثورون. وكانت هناك نسوة يبحثن عن المزيد من التطور أو تقرير المصير. إن الثقافة المسيطرة لم تحفظ

معظم السجلات عن هذه الأعمال. وهذا ما جعل من الصعب على الجماعة التابعة أن تجد تاريخاً وتقليداً يساندها.

إن في داخل كل جماعة تابعة نزعات لدى بعض أعضائها لتقليد المسيطرين. ويأخذ هذا التقليد أشكالاً متنوعة. فقد يميل بعضهم إلى معاملة زملائه بالشكل المدمر الذي يعامله به المسيطرون. وقد تميل قلة قليلة إلى تطوير عدد كاف من الصفات التي يرغب بها المسيطرون لتصبح مقبولة جزئياً لدى جماعتهم. ومن المألوف ألا تكون مقبولة كلياً حتى بعد ذلك ما لم تكن لديهم الرغبة في التخلي عن انتمائهم للتابعين. لقد كان العم توم وبعض النساء المهنيات في هذا الوضع. (كان هناك دائماً نساء قليلات حُزن على الإطراء المتجسد افتراضاً في العبارة القائلة: "إنها تفكر كرجل".

لا بد أن يكشف التابعون عن عدم مساواتهم، ويثيروا السؤال حول أساس وجوده وذلك بالقدر الذي يتحركون به نحو حرية القول والفعل، وبتحويلهم الصراع الموروث إلى صراع مفتوح. وسيكون عليهم، عندئذ، تحمل العبء وركوب المخاطر التي تظهر مع نعتهم بأنهم (مشاغبون)، ولأن هذا الدور يتحدّى ظروفهم فإن التابعين، لاسيما النساء، لن يبلغوه بسهولة.

من الواضح سريعاً من دراسة صفات الجماعتين أن التفاعل المتبادل والمتزايد غير ممكن لأن الطرفين غير متكافئين. والواقع أن الصراع أمر لا مفر منه، وتصبح الأسئلة المهمة عندئذ: من يحدّد الصراع؟ من يضع مصطلحاته؟ متى يكون الصراع صريحاً أو خفياً؟ ما هي القضايا التي يدور حولها الصراع؟ هل يمكن لأي طرف أن يربح؟ هل الصراع (سيئ) بالتعريف؟ إن لم يكن كذلك فما الذي يساعد على صراع مثمر أو مدمر؟

الفصل الثاني
الصراع ـ الأسلوب القديم

الصراع الخفي ـ الصراع المطلق

لدى النظر إلى الصراع بمعناه الكامل فإنه لا يظل مدمّراً أو مصدر تهديد بالضرورة بل على النقيض من ذلك تماماً. وسوف نحاول أن نبسط رؤية موسعة لأبعاد الصراع بينما تمضي قدماً في هذا الكتاب. أما الآن فيمكننا القول أننا جميعاً ننمو عبر الصراع. فعلى الصعيد الفردي لن ينمو الطفل أبداً لو أنه تفاعل مع صورة لنفسه في المرآة. فالنمو يتطلب ارتباطاً بالاختلاف وبالناس الذين يجسدون هذا الاختلاف. ولو كان الاختلاف يلقى المزيد من الاعتراف الصريح لكان بوسعنا أن نسمح بل ونشجع كل فريق ذكراً كان أم أنثى على التعبير عن تجربته بشكل متزايد. فهذا ما يؤدي إلى وضوح أكبر للذات وقدرة المرء على تحقيق حاجاته والمزيد من البراعة في الاستجابة للآخرين. كما يكون ثمة فرصة لرضا فردي متبادل ونمو وبهجة.

يتم نكران وجود الصراع ضمن إطار اللامساواة. وبذا تكون وسائل خوض الصراع محدودة. فضلاً عن ذلك ينشأ عن اللامساواة نفسها عوامل إضافية تحرف أي تفاعل وتحول دون الانشغال في اختلافات حقيقية. وبدلاً من ذلك تولد

اللامساواة صراعاً مستتراً حول عناصر كانت قد نشأت عن اللامساواة ذاتها. وعلى وجه الإجمال، يتحول كلا الطرفين عن الصراع العلني حول اختلافات حقيقية هي التي تمكنها من النمو لينحشرا في صراع خفي حول أشياء زائفة. وليس ثمة أشكال أو إرشادات اجتماعية مقبولة تخص هذا الصراع لأن من المفترض أنه صراع لا وجود له. أخيراً إن لدى طرفي الصراع سوء فهم فيما يتعلق بصفات الآخر وميزاته. ويمكن للمرء أن يحاول اجتياز هذه الحالة المعقدة بطرحه السؤال التالي: ماذا يحصل فعلاً في حالة الصراع الذكري ـ الأنثوي اليوم؟

في حالة اللامساواة الذكرية ـ الأنثوية ثمة احتمالان لنوعين من السيناريو. فطبيعة الصراع تبدو أنها تتوقف على درجة قبول المرأة للصورة التي يحملها الرجل عنها نفسها. فإذا كانت تقبل نظرته فلن تعترف بأن هناك صراعاً حول مصالح أو حاجات. وبدلاً من ذلك سوف تفترض ضمناً أن حاجاتها تتحقق إذا قبلت وضعاً موجهاً حول أولية الرجال في الأهمية وخدمة حاجاتهم بشكل عام. "ويعمل" هذا الافتراض أحياناً بالاعتماد على مجموعة متنوعة من الظروف وقدر لا بأس به من الحظ.

وعلى نحو متناقض ظاهريّاً، يبدو أن هذا الافتراض يعمل بشكل أفضل حين تكون النساء واعيات بدرجة معينة لما يقمن به؛ أي إذا كنّ يخرجن فعلاً من هذا النمط لكنهن يواصلن التظاهر بأنهن لا يفعلن ذلك. إنهن يوفرن الغذاء لمزاعم الرجال وصورتهم ذات المنزلة الأسمى. وفي الوقت ذاته يظهرن شعوراً كافياً بحقوقهن وإمكانياتهن الخاصة، وإدراكاً للعمل وفق حاجاتهن، وتدبر الأمور لتحقيقها بدرجة ما. هذا النمط هو ما يدعى "المرأة البارعة" التي

هيمنت على هذا العدد الكبير من مسرحيات الفكاهة العائلية التلفزيونية في العقد الأخير بسبب وصولها إلى هذا المستوى من السخف. فالمرأة الذكية تخطط للحصول على ما تشاء بجعله يبدو، على نحو عام، هو الشيء الذي يريده زوجها. وفي غضون كل ذلك لا يعرف الزوج المسكين ماذا يحصل حقاً. أو أنه كان يعلم بما يحصل ولكنه لا "يفشي السر". وبإضافة هذا إلى الإعجاب بذكائها يتولد انتقاد ضمني مفاده أن المرأة "ماكرة" بالطبع. هذه العلاقات لا تقوم على تفاهم صريح ومتبادل بل تنطوي على الكثير من الخداع والمناورة. وغالباً ما تكون هناك مجاملات واضحة ومتبادلة. ومع أن هذه العلاقات ليست هي المثلى لنمو متبادل فإنها غالباً ما "تعمل" لفترة قصيرة على الأقل، بل قد يتيح بعضها فترة من الوقت لتحقيق بعض الحاجات لكل شريك.

ومن المألوف أن تكون المرأة بارعة جدّاً. أما أكثر النساء تأثيراً فهن أولئك النساء الحذرات من الكشف عن سر براعتهن الحقيقية. وتحصل المشكلة الأعمق بكثير حين تجسد التابعات مفهوم الفئة المسيطرة عبر النظر إلى أنفسهن أنهن أدنى من الرجال أو أنهن ثانويات. ومثل هؤلاء النسوة يكن أقل قدرة على إدراك وتوضيح حاجاتهن الخاصة سواء لأنفسهن أو للآخرين. وبدلاً عن ذلك يعتقدن أن الرجل سوف يحقق هذه الرغبات بشكل من الأشكال. وعندئذ يصبن باليأس الذي يتخذ شكلاً مزرياً جدّاً في غالب الأحيان. وقد تؤدي هذه الحالة إلى سلسلة من المطالب المتصاعدة تصل بالرجل إلى أن يلبي حاجات تغدو غير ملائمة وغير واضحة على نحو متزايد كما قد تصبح مفرطة أيضاً.

إن مثالاً لإحدى الأسر قد يوضح هذه النقطة، سوف أسرد الخطوط العامة لقصة طويلة كما أدركها كل من الزوج والزوجة بعد الكثير من الآلام والمعاناة. إنها حالة من ذلك النوع الذي يرجع إليه الأطباء النفسانيون والروائيون وكتاب المسرح من حين إلى آخر لأن هذه الحالة تبدو، بشكل ينطوي على كثير من الفضول، أنها صورة للمرأة القوية. (تقدّم المادة أولاً بشيء من السرعة ويتبع ذلك تحليل أوسع).

منذ البداية قبلت الزوجة سالي منزلتها كتابع. وفي حين لم تتذمر علناً بدأت تتذكر بين الفينة والأخرى الأشياء الكثيرة التي كانت تشعر أنها تفتقدها، كالحاجة إلى قضاء الوقت معاً كأسرة، وقيود الميزانية، والإجازات التي لم يحصلوا عليها. وقد أوضحت بكل جلاء، ودون أن تنطق بذلك قطعاً، شعورها بأن زوجها دون Donn هو أقل براعة مما كانت تعتقد، وأقل نجاحاً وكفاءة من بقية الرجال. وبدأت تؤكد على عدم أهميته داخل المنزل، وتشير إلى إخفاقه في توفير وقتٍ كافٍ لأسرته لا لسبب إلاّ لضعف كفاءته. وفي غضون ذلك كانت تبرز صفاتها كعاملة بإبراز سرعتها وقدرتها اللتين بهما كانت تعنى بمنزلها. كانت تمضي الكثير من الوقت مع طفليها اعتقاداً منها أن هذا يعبر عن تفانيها العظيم و"حبها" لهما. حين تعمقت المشاكل راحت تؤكد على نقاط ضعف زوجها على نحو متزايد. فمثلاً يميل دون إلى اتخاذ قرارات متهورة لا يلبث أن يندم عليها هو نفسه. ولم يعد بوسعه أن يناقش هذه المشكلة ضمن علاقتهما لأن سالي تضخم أخطاءه وتعتقد أن هذه الأخطاء كانت السبب الرئيس لمشاكل الأسرة. وبالمقارنة مع أفكارها الخاصة الأكثر

اتزاناً اتخذت لنفسها المنزلة الأعلى. وبات دون أقل فأقل قدرة على الدفاع عن نفسه إزاء هذا التدمير النفسي مادامت كل تهمة تنطوي ولو على قدر ضئيل من الحقيقة، فاستخدمت سالي نقاط ضعفه لتنزل مرتبته ولتعامله بازدراء. وبمرور الوقت أخذ يشعر بأنه ليس كفؤاً ولا ناجحاً، بل أقل "رجولة"، كما أنه ذليل ومنحط. وبدأ طفلاه ينظران إليه على أنه ضعيف وأقل معرفة وبراعة، كما أنه أقل اهتماماً بهما من أمهما. كانا يعتمدان عليها لتحقيق حاجاتهما. وفي الوقت ذاته كانا يكرهانها ولا يثقان بها ويلومانها على تدمير والدهما.

كانت سالي ودون قد خاضا حملة خداع خفية ومدمرة. إلا أن أيّاً منهما لم يحرز أية انتصارات. ومما لاشك فيه أن سالي لم تحظ بذلك الزوج المقتدر الذي كانت تحلم به. وفي الوقت ذاته كانت تخشى الخروج إلى العالم كي تنجز أي شيء بنفسها. لقد تنازلت في البداية عن فرصها في الدراسة أو تجربة العمل كي يتقدم زوجها في المجالات نفسها. وهذا في الواقع دليل على أنها كانت سيئة التأهيل، تأهيل يساعدها على أن تفعل أي شيء لوحدها. كما أنها فقدت الكثير من طاقاتها في أثناء الحملة التي ذكرناها أعلاه. لقد تعرضت لإهمال كبير وخارت قواها. لم تكن سالي تطالب علناً بالمساواة. لم تفكر بهذه اللغة البتّة. كذلك لم تكافح لتطوير قدراتها أو تحقيق مصالحها. ولو كانت ترغب في ذلك لدخلت في صراع مع زوجها ومع المؤسسات التربوية والاقتصادية منذ وقت مبكر جداً. كان صراعها ذا طبيعة مختلفة تماماً. فلو سعت إلى حاجاتها ومصالحها لاتهمت بأنها مشاكسة. ومن المؤكد أنها لو طالبت بما لا يقل عن فرصة مساوية لاستكشاف حاجاتها ومصالحها لكانت على أرضٍ مختلفة. وبدلاً

عن ذلك كانت تصوراتها لحاجاتها مشوهة. كما اتخذت مطالبها شكل الانتقاد لكفاءة زوجها. وكانت الرسالة الضمنيّة لسلوكها تفيد بأن دون "لم يكن رجلاً كما ينبغي". ونظراً لأن كلاً من الزوج والزوجة كانا أسيرين لهذه القدرة على الانتقادات المزعجة فقد كان ثمة تصعيد في التهجم على "رجولة" الرجل وانتقاص منها. وبإضافة هذا إلى الغضب والعقاب وعدم تلبية الحاجات انقلبت الحالة تماماً إلى ما يعتقد الرجال أنه أكثر ما يخشونه وهو: أن يشعر الرجل بأنه صار تابعاً للمرأة. إن ما تغيّر هنا ليس حال اللامساواة؛ بل إن المراكز داخل النمط كانت تبدو كما لو أنها قلبت رأساً على عقب.

في الواقع بات النمط الذي تتشجع النساء على تبنيه يدعى "اللامساواة المؤقتة" التي وصفناها سابقاً إذا يقال أن الرجال ـ الرؤساء ـ هم "أكثر" أو "لديهم أكثر". وهذا النمط غير ملائم بين اثنين ناضجين لأنه يفضي إلى آمال ومطالب مستترة قد تقود إلى تقويض طاقات الرجل النفسيّة. وهنا لا مفر من الهجوم على مكانته المهيمنة وامتيازاته الكثيرة.

علاوة على ذلك فإن الهيمنة الأخلاقية غالباً ما تحث النساء على التفكير بأنفسهن ومحاولة إدراك حاجاتهن والعمل وفقاً لذلك. أو أن يتجاوزن القيود المفروضة في حياتهن وذلك إما بمهاجمة الرجل أو محاولة تقليده. وتعتقد النساء أساساً أن دمارهن مؤكد حتى لو حاولن ذلك. فالواقع أن جهود النساء لإغناء حياتهن ولو في مناحي اهتماماتهن الأنثوية التقليدية كانت وما تزال موضع تأويل سيئ بوصفها محاولات للانتقاص من الرجال أو تقليدهم. وقد ظل من الصعب جدّاً على النساء أنفسهن أن يحققن تطوير الذات بأية أشكال أخرى.

الصراع الظاهر- الصراع المفتوح

حين لا يقبل التابعون مكانتهم بوصفهم تابعين أو ثانويين؛ فإنهم بذلك يبدؤون صراعاً علنياً. هذا يعني أنه لو اعتبرت النساء أن لحاجاتهن من الشرعية مالحاجات الرجال وشرعن باستكشاف هذه الحاجات والتصريح بها بصوتٍ عالٍ فسوف ينظر إليهن على أنهن يخلقن الصراع، ويجب أن يتحملن العبء النفسي لرفضهن الصورة التي يحملها الرجال في أذهانهم عن "الأنوثة الحقة" وهذا ما سيؤدي إلى الاستياء والقلق، بل إلى المزيد من ردود الفعل لدى كل من الطرفين. بيد أن الأمل هو أن التفاعل بين شخصين بالغين كفؤين وبارعين يمكنه أن يقرب بين حاجات الطرفين كي تتحقق. وسوف يتوقف الرجال والنساء عن الفعل في ظل مطالب غير مفهومة تماماً أو غير معترف بها ولا مصير لها سوى الإخفاق. (وسوف تعالج المطالب الظاهرة والمستترة التي تسعى المرأة من أجلها بتوسع أكبر فيما بقي من الكتاب).

لفهم الحالة المدمرة وغير الضرورية في أسرة سالي، أرى من الضروري أن نصف كلاً منهما. لقد بلغ كلٌّ منهما سن الرشد ولديه طاقات وإمكانات كثيرة لتحقيق مزيد من التطور. لكل منهما عدد من المشاكل من نوع متشابه تقريباً. بيد أنهما عالجا مشاكلهما الكثيرة بطرق مختلفة. كان لدى كل منهما شكوك قويّة فيما يتعلق بقدرته على الوجود والعمل بأمان كفرد منفصل. كان كل منهما يتوق بدرجة ما لأن يكون الشخص القوي والمستحوذ على الاهتمام بالعثور على حلول لمشاكلهما. كما كان كل منهما مهيئاً ليثور ضد ذلك الشخص. ومع ذلك فقد كان لدى كل منهما قدرات يستطيع أن يبني عليها إحساساً فردياً أكبر بالقوة والأمن.

في البداية رأت سالي في انبساط زوجها ودعابته وجرأته المتواضعة وانتقاده الظاهري للهموم توقاً كبيراً للخروج من مشاعرها المقيتة الخاصة بها عن انعدام الكفاءة والقدرة على العمل بحرية واطمئنان. لقد أعجب بالأشياء ذاتها فيما بعد بتلك الطريقة القاسية. أما دون فقد رأى في ثبات زوجته وكفايتها شيئاً من القوّة والضمانات لما كان يصبو إليه. كان بوسع كل منهما أن يتعلم الكثير من طريقة شريكه في معالجة هذه القضايا الأساسية. لكن هذا لا يحصل عادة حين تخفق العلاقة في أن تفسح المجال للحاجات الهامة أو تستجيب لها.

في حالة اللامساواة لا تشجع المرأة على استكشاف حاجاتها أو اتخاذها على محمل الجد، أو أن تحاول العمل وفق ما تتطلبه بوصفها شخصاً ناضجاً. ومن المحظور عليها أن تستخدم كل طاقاتها الخاصة. وهي بذلك تمنع من إظهار كفاءتها بمعنى موثوق وفعال. وبدلاً من ذلك تشجع المرأة على التركيز على حاجات الرجل وتطوره.

إن تركيز المرء على تطوره الخاص، وأخذ ذلك على محمل الجد لهو أمر صعب على جميع البشر. إلا أنه أصعب من ذلك بكثير بالنسبة للمرأة كما ظهر مؤخراً في ميادين كثيرة. فالنساء لا يشجعن على التطور إلى الحد الذي لا يمكن لهن بلوغه ولا على اختبار الحافز والألم النفسي والقلق التي تنشأ جميعاً عن العملية. وبدلاً عن ذلك يشجعن على التركيز لتأسيس علاقة مع شخص واحد ورعايتها.

والواقع أنهن يشجعن على الاعتقاد بأنهن إذا مضين في صراع عقلي وعاطفي لتطوير الذات فإن النتيجة سوف تكون كارثية. هذا يعني أنهن سوف

يفقدن أي علاقة حميمية. هذا الجزاء، هذا التهديد بالعزلة لا يمكن لأي شخص أن يفكر فيه بسهولة. هذا التهديد هو من صنع الواقع بالنسبة للنساء وليس خيالياً بأي شكل من الأشكال.

لتجنب هذه النتيجة تشجع النساء على القيام بشيئين اثنين: الأول أن يتحولن عن استكشاف حاجاتهن والتعبير عنها (الحاجات التي تهدد بعزلة مريعة) أو صراع حاد ليس مع الرجال فقط بل مع كل مؤسساتنا بما هي عليه، وبنفس القدر من الأهمية مع الصورة الداخلية التي يحملنها والتي تفيد ما معنى أن يكون الإنسان امرأة. والثاني أن النساء يشجعن على "تحويل" حاجاتهن الخاصة، وهذا يعني آليّاً، دون إدراكٍ، في التعرف على حاجاتهن كما لو أنها مطابقة لحاجات الآخرين، وهم عادة الرجال والأطفال. وحين تنجح النساء في تحقيق هذا التحويل وتحقيق ما يدركه الآخرون من رغبات يعتقدن أنهن يشعرن بالراحة والرضا. ويبدو على النساء القادرات على القيام بذلك ارتياح ظاهري مع الترتيبات الاجتماعية كما هي عليه الآن. والمشكلة أن هذه التحولات أكثر عرضة للخطر. إنها معلقة بخيط واهٍ. لقد رأيت الكثير من الناس الذين قطعوا هذا الخيط.

يمكن رؤية أمثلة على هذا التحوّل لدى وصوله إلى أقصى درجة في دراسة لأسر يعاني الناس فيها من مشاكل نفسية حادة. أي من يعرفون بالفصاميين. ففي هذه الأسر يبدو الوالدان، لاسيما الأم، أنهما يدركان حاجاتهما المتصارعة التي لا حل لها، والتي تشبه مشاكل الأطفال إلى حد ما. وتقود هذه الدراسات المرء إلى الشك بأن هذه الأسر لا تمثل حالته، بل إنها أمثلة حادة لحالة موجودة عند الجميع.

لهذا ليس من قبيل الصدفة أنه في السنوات التي سبقت إعادة الفحص الراهنة لوضع المرأة أفاد أدب الطب العقلي أن الحالات النفسيّة الرئيسة "تتسبب" عن سيطرة "الأم المتسلطة" و"الأب الضعيف الفاشل". وقد قيل أن هذا يصح على حالات الفصام والشذوذ الجنسي واغتراب الشباب، وعملياً على جميع الحالات النفسيّة والاجتماعية الأخرى. لقد كانت ملاحظات كهذه موثوقة إلى درجة يمكن أن تعكس ضغط الحاجات المتصارعة لكل من الرجل والمرأة. ولعلها كانت، على وجه الخصوص، مؤشراً على حقيقة أن النساء يشجعن على السعي لإرضاء حاجاتهن داخل الأسرة، وكذلك لتحويل هذه الحاجات، أي أنهن يحاولن التصديق بأن حاجاتهن لا تخصهن بل تخص شخصاً آخر.

كل هذا سوف يُحلل ويستكشف أكثر في الفصول التالية، وأود أولاً أن أتناول وضعنا المأساوي من نقطة مواتية.

الفصل الثالث
أهمّيّة الناس غير المهمّين

رأينا أن المجتمع حين يؤكد على العناصر العليا للقدرات الإنسانية أكثر من غيرها، فإن العناصر القيمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعالم الجماعة المسيطرة، وتصبح مقصورة عليها. أما العناصر الأدنى للقيم الإنسانية فإنها تهبط إلى التابعين. وبالرغم من أن العناصر الأخيرة تشكل جوانب أساسيّة من التجربة الإنسانية فإنها لا تلقى ذلك التقدير عند مجتمع الجماعة المسيطرة. علاوة على ذلك لا يستطيع التابعون أن يثيروا قضية هذا التقسيم أو حتى يلفتوا الانتباه إليه بسهولة.

وصف هذه التجربة عدد من الكتاب السود. وجاء في وصفهم أنه حين قام المجتمع الأمريكي ضمن تقاليد المجتمع الغربي الأوسع بتثمين الأعمال الفكرية والتنفيذية والإداريّة هبطت الأعمال البدنية إلى عالم السود والطبقة الأدنى من البيض. وفي الوقت ذاته غالباً ما ينظر إلى من يقومون بالعمل اليدوي على أنهم أعضاء أقل نجاحاً في المجتمع. من هنا جاءت إلينا أسطورة البراعة الفائقة في الجنس عند السود جنباً إلى جنب مع فكرة أن الفلاّح أو العامل هو شخص خشن. وبوسع المرء أن يرى نفس العملية تجري بشكل آخر لدى المرأة لأن

دنيا البيولوجيا (الجنس، الجسد، حمل الأطفال) هي من اختصاصها. فالتفاعل مع الأطفال والأشياء الطفولية قد أنزلت إلى المرأة بشكل أساسي.

كنت قد ذكرت في وقت مبكر أن مهامّاً أقل قيمة قد خصصت للتابعين بشكل عام. ومن المفيد أن نلاحظ أن هذه المهام تشتمل عادة على توفير حاجات جسدية ووسائل للراحة. وبناء على ذلك يتوقع من التابعين أن يقوموا بتنظيم وتنظيف وتلطيف أجزاء الجسم التي تعتبر كريهة ولا يمكن السيطرة عليها. (توفير غسيل نظيف هو مثال واضح. كما أن توفير متنفس جنسي ضروري هو مثال آخر غير واضح بنفس القدر).

يبدو من المرجح أنه كان على فرويد أن يكتشف تقنيّة خاصة جداً للتحليل النفسي لأن ثمة جوانب حاسمة في التجربة الإنسانية لم يتوفر لها ما توفر لغيرها من الوصف والشرح بطرق علنية اجتماعياً ومقبولة تماماً ضمن ثقافة الجماعة المسيطرة. وهذا يعني أنها لم تلق عناية المسيطرين أنفسهم. هذه الحقول من التجربة الإنسانية ما فتئت تنحدر إلى النساء دون توقف.

ما الذي يتعامل معه علماء التحليل النفسي حقاً؟ أولاً: ركز فرويد على الخبرات الجسديّة والجنسيّة والطفولية. وقال إن هذه الخبرات ذات أهمية حاسمة ولكنها خفيّة. أما نظرية التحليل النفسي الأحدث فإنها تميل إلى التأكيد على قضايا أعمق تتعلق بالشعور بالخطر والضعف والعجز والتبعية والروابط العاطفية الأساسية بين الفرد والآخرين. وهذا يعني أن التحليل النفسي قد انشغل على نطاق واسع جدّاً بإبراز هذه الحقول من الخبرة الإنسانية. وأعتقد أن التحليل النفسي فعل ذلك دون المعرفة بأن مجالات

الخبرة هذه ربما جرى إبعادها عن إدراك الناس الواعي لأنها منفصلة بقوة عن الرجال ومرتبطة بقوة مماثلة بالنساء . وليس ذلك لأن الرجال، مثل كل الناس، لا يملكون خبرة في هذه المجالات. إن هذه الخبرات هي أهم الخبرات الإنسانية. ولهذا انشغل علماء النفس بإبرازها . والواقع أنها تنطوي على العناصر الأساسية لمتطلبات الخبرة الإنسانية لدرجة أن عدداً كبيراً من الناس راح يقول إننا صرنا "بحاجة" إلى التحليل النفسي. والسبب في ذلك على وجه الدقة هو أن بعض الجوانب الأساسية في هذه الخبرة كانت إشكالية. ولهذا السبب لم يعترف بها ولم تستكشف وجرى إنكارها .

نستنتج من هذا أن المرأة أصبحت "تحمل" للمجتمع بعض عناصر الخبرة الإنسانية الكلية. لكن مشكلة هذه العناصر وشرحها بقيت دون تمحيص ودرس بهدف حلها . (وهذا سبب من أسباب الإساءة إلى المرأة والحط من قدرها) . إن نتيجة هذه العملية هي صرف الرجال عن دمج هذه المجالات في حياتهم دمجاً تاماً . لقد أزيحت هذه العناصر في التجربة الإنسانية من ميدان التبادل العلني والتام، وأنزلت بشكل مضطرد إلى عالم خارج الوعي التام حيث اتخذت كل أشكال الخصائص المخيفة. ولم يكن بوسع النساء إعادة هذه العناصر إلى الصورة ضمن التبادل الاجتماعي الطبيعي لأنهن أقل قدرة من الرجال على التعبير عن خبراتهن واهتماماتهن الخاصة.

قلنا إن تقاليدنا الثقافية تؤكد على بعض القدرات الإنسانية. ووفق هذه التقاليد تحظى هذه القدرات بأهمية كبيرة. وقد باتت هذه القدرات ذات قيمة عالية مهما كان منشؤها . كذلك قامت جماعة الثقافة المسيطرة بدراستها بشكل

مفصل ومحكم. فقد كان ينبغي أن تصقل بشكل دؤوب. أما النزعات التي حاولت أن تناقش طبيعة هذه القدرات ومنزلتها فقد وضعتها الثقافة المسيطرة جانباً وحاولت أن تدجنها وتعمل بهدف "السيطرة عليها". أما ما يتعلق بالمظاهر التي بدا أن من الضروري السيطرة عليها أكثر فقد تكون تلك التي عرفت بأنها عصية على الضبط، أو تلك التي تعرف بأنها دليل على الضعف والعجز. وكمثال على ذلك هو أن تعلّم السيطرة على العاطفة والضعف بات مهمة رئيسية كي يصبح الإنسان رجلاً. كذلك أمسى الجنس مصدراً للتهديد، شيئاً يدمر الضوابط المطورة بعناية. والسبب في ذلك يعود، على وجه الدقة، إلى قوته ومنعته العميقة. كما أن التهديد يأتي من "عالم الأشياء" ذات الشكل المتماثل. وهذا يعني الانخراط العميق في علاقات مع الآخرين من كلا الجنسين. والواقع أن الرجال ينجذبون جنسيّاً من ناحية، وينجذبون عاطفياً بإحساس كلي من ناحية ثانية. إلا أنهم أقاموا حواجز قويّة ضد الانجذاب. وأعتقد أن مصدر خوفهم الأكبر يكمن هنا. إنه الاعتقاد المزيف تماماً والقائل بأن الانجذاب سوف يحولهم إلى كتلة أو حالة ما غير مميزة يحكمها الضعف والالتصاق العاطفي و/أو العاطفة، وأنهم بذلك سوف يكفون عن السعي إلى منزلة الرجولة. وأعتقد أن هذا هو أعمق تهديد للمساواة لأنه في جوهره لا علاقة له بالمساواة أو عدمها، بل إنه يجرد الشخص كلياً من عناصر أساسية تشكل إنسانيته قبل رجولته.

إن الكثير من الأدب والفلسفة والتعليقات الاجتماعية الراهنة ينصب على الحاجة إلى علاقة إنسانية في جميع مؤسساتنا. فهناك قلق واسع الانتشار حول عجزنا عن تنظيم ثمار التكنولوجيا نحو غايات إنسانية. ولعل هذه هي المشكلة

المركزية للثقافة المسيطرة. إلا أن الغايات الإنسانية غالباً ما تعزى إلى النساء. والواقع أن هذه الغايات شغلت حياة النساء. وحين طرحت النساء أسئلة تعكس اهتماماتهن وُضعت القضايا التي طرحنها جانباً، وصنفت تحت عنوان مسائل تافهة. والحقيقة الآن كما في الماضي أن هذه القضايا هي أي شيء سوى أنها تافهة. بل إنها مشاكل الثقافة السائدة المتهمة، والتي لم تحل أي مشكلة لأنها مثقلة بالأفكار المرعبة. أما تهمة التفاهة فهي على الأرجح دفاعية نسبياً لأن هذه القضايا تهدّد بعودة ما جرى تحاشيه ونكرانه تحت عنوان "أنثى".

حين نضع هذا السؤال بصيغة أخرى فقد نسأل: "ما هي القضايا التي برزت في الانبعاث الراهن لحركة المرأة؟" أليست في حالات كثيرة تعبيرات عن حقيقة أن النساء هن من يحملن الحاجات الإنسانية للفئة الاجتماعية برمتها؟ وفي نهاية الأمر مما "تشتكي" النساء علناً ويتعرضن لأعنف النقد بسبب شكواهن؟ هنا أكدت الناطقة باسم أكثر النساء تطرفاً الأهداف بأوضح ما يكون عليه الوضوح:

١ - الصراحة الجسدية: حديث المرء العلني عن جسده، كيف يتعرف عليه، وكيف يعمل. هل لديه هدف بأن يكون على اتصال بجسده أكثر من السيطرة عليه، أو الإدعاء بأنه يسيطر عليه. وهناك أيضاً رفض حاسم لكل أشكال السيطرة الخارجية على الجسد. ويمتد هذا الرفض من السيطرة الجنسيّة المباشرة إلى البنود القانونية.

٢ - الصراحة الجنسيّة: تشكل المعرفة الصريحة عن المسائل الجنسيّة حاجة ضاغطة. وبوصف هذه المعرفة إعادة تعريف للجنس الأنثوي بلغة النساء فإنها أكثر من الشكل الذي يدركه بها الرجل. ومن أهم عناصر هذا الهدف هو إلغاء

دور الوطر الجنسي، والتركيز بشكل أكبر على الربط بين المضامين الجنسيّة والشخصية والعاطفة.

٣ ـ الصراحة العاطفية: التعبير الصريح عن العواطف التي تنطوي على كل الخبرات لاسيما تلك التي لا تلقى تشجيعاً في الثقافة السائدة هو أمر أساسي للصحة النفسية. وترغب النساء في الوقت نفسه في التعبير الصريح عن إحساسهن بالقوة، وهذا شيء لم يشجعن عليه بكل تأكيد.

٤ ـ التطور الإنساني: إن مسؤولية العناية بالتطور الإنساني وتعزيزه قد نوقشت بشكل تقليدي على ضوء حاجات الأطفال ومن يجب أن يعنى بهم. أما السؤال الكبير الآن فهو: كيف سنوفر نحن كبشر وسائل الرعاية المناسبة، والنمو المناسب لجميع أفراد الشعب صغاراً وكباراً. إن هذا يشمل إعادة توزيع المسؤولية لما يسمّى "خدمات الآخرين"، وغالباً ما يكون لهذه الخدمات صلة بالجسد. إلا أنها تمتد إلى مسائل تتعلق بتوفير الوسائل النفسيّة الأساسية والجوهريّة للآخرين.

٥ ـ التشييء: تعترض النساء بقوّة ضد التشييء ليس في الحياة الجنسية وحسب بل بجميع الأشكال. فهن لم يعدن راغبات في أن يعاملن كما لو كنّ "أشياء" على صعيد الحياة.

٦ ـ المساواة الخاصة والعامة: تتزايد مطالبة النساء بالمساواة والعيش القائم على التبادل والتعاون كي تحل محل أساليب السيطرة الموجهة والتنافسية السائدة في المجالات العامة والخاصة. إن ثمة تحدٍّ لطبقة الكهنوت المسيطرة و"الابتعاد" عن الناس.

٧ ـ الإبداع الشخصي: من المهم بوجه خاص الحق في المشاركة بإبداع المرء لشخصيته بوصف ذلك يتعارض مع قبول الشكل والمضمون الذي تمليه عليك الجماعة المسيطرة.

تطرح هذه القائمة من القضايا مسألة ممتعة ومثيرة لأن الإسقاط لبعض ضرورات المجتمع الصعبة والمثيرة للجدل في عالم المرأة قد يكون ناتجاً عن أن هذا المجتمع الذي يتزعمه الرجال قد ندب المرأة عن غير دراية "للحاجات الإنسانية الدنيا"، وكذلك "للضرورات العليا" أي للتعاون القوي المترابط عاطفياً والإبداع اللازمين للنمو والحياة الإنسانية. فضلاً عن ذلك تدرك النساء وحدهن اليوم أن عليهن أن يطالبن بهذه الحاجات علناً وعن وعي إذا كان لهن أن يحققن البدايات لتكامل الشخصية.

لقد "شغلت" النساء دائماً هذه الميادين الأساسية بأشكال شتى. ولأنهن فعلن ذلك فقد طورن أسساً لسمات نفسيّة قيّمة جدّاً. ونحن ما زلنا في بداية فهمنا لهذه السمات. إنني مفعمة بالأمل أن المعرفة المباشرة المكتسبة من عدة حقول للدراسة سوف تساعدنا على وصف هذه القوى وعملها بلغة أغنى وأدق. وفي الجزء التالي أفضّل أن أصف باختصار بعضاً من هذه الصفات النفسية كما نشاهدها داخل العيادة النفسيّة.

كما أنني سأطرح في ذلك الفصل أنه ي حين مرَّ التحليل النفسي بمرحلتين تاريخيتين على ضوء المضمون الرئيس فإن القضايا التي لم تبرز في قائمة الاهتمامات الراهنة للمرأة قد تشير إلى "مرحلة ثالثة". وهذه مرحلة لم يحدّدها التحليل النفسي ذاته حتى الآن. وقد تكون الطريقة المختصرة لوصفها هي في القول بأن التحليل النفسي يقوم الآن "بمهمة المرأة" في المقام الأول لأن الثقافة السائدة لم تقم بهذا العمل ولم تأخذه بعين الاعتبار. وهنا تكمن مشاكله.

الجزء الثاني

النظر في كلا الاتجاهين

للنساء، وراء المساواة، علاقة أبعد وأكثر تعقيداً مع المجتمع الذكوري المركزي. فالمرأة لا تعامل فقط بوصفها غير مساوية مثلها مثل بقية الفئات التابعة وفق الأعراف الاجتماعية، بل تمثل ديناميكية أخص وأكمل.

من المهم أن نؤكد على أن السمات النفسية التي ستناقش في هذا القسم هي في جميع الحالات ذات وجهين. إنها الصفات التي تطورت حالياً بشكل كبير لدى النساء بوصفهن جماعة. ففي حالة اللامساواة والعجز قد تؤدي هذه السمات إلى الخنوع، وإلى مشاكل نفسية معقدة، كما سنحاول الإشارة إليه. ومن ناحية أخرى سيكون الحوار دائماً مع المستقبل. هذه السمات نفسها تمثل القوى التي يمكن أن توفر إطاراً جديداً، إطاراً لابد أن يكون مختلفاً عن ذاك الذي خلقته ثقافة المجتمع الذكوري. وكان بيرنارد س. روبنز Bernard. S. Robbins أول من طرح الفكرة القائلة بأن سمات المرأة النفسيّة هي أقرب إلى بعض العناصر النفسيّة، وهي بذلك تشكل مصادر للقوة وقواعد لشكل من الحياة الأكثر تقدّماً.

لقد وضعت عنواناً لهذه الخصائص النفسيّة وهو "قوى" لأن هذه نقطة أحب التوكيد عليها لأنها سميت حتى الآن "نقاط ضعف"، وحتى النساء أنفسهن كن قد فسّرنها بهذه الطريقة. إن هذه التسمية بحد ذاتها باتت جزءاً من التعتيم على النساء والحط من قدرهن.

تحمل الموضوعات التي يغطيها هذا الجزء بعض التشابه المثير للقضايا ذات الاهتمام المركزي من فكر التحليل النفسي في المرحلة الراهنة. فعلماء التحليل النفسي اليوم يجدون أنفسهم مشغولين بأصول وطبيعة الإحساس الجوهري للفرد المرتبط مباشرة مع غيره من البشر. وتتركز الاهتمامات الرئيسة على ما يدعى "حاجات الإعالة"، (عبارة موضع نقاش)، وتطور حكم الذات، و/أو الاستقلال، وقضايا الشعور الجوهرية، الشعور بالضعف والهشاشة. (أوتو كيرنبيرغ وهينزكورت (Aotto Kernberg and Heinz Kohurt) مثلاً، هما اثنان من كتاب التحليل النفسي في هذا المجال. ومن الكتّاب في هذا المَجال أيضاً (كارين هورني، وهاري. س. سوليفان، وفرايد فروم ريتشمان، و و.د/فير بيرن) Karen Horney, Harry. S. Sullivan, Frieda Fromm- Reichmann and W. D. R. Fair Bairn

ولن أحاول توضيح هذا التشبيه بالتفصيل. كما لن أناقش هذه الموضوعات بلغة التحليل النفسي المألوفة، بل سوف أحاول فقط أن أطرح بأن جميع هذه الموضوعات تتصل بشكل وثيق بالمركز الذي أُسند للمرأة في بنية حياتنا النفسيّة والاجتماعية وترتبط به.

والحق أنني أعتقد أن اللغة ذاتها التي نصوغ فيها مفاهيم هذه القضية تعكس أصولها في الوضع الذي لعبت فيه النساء دوراً رئيساً لكن مغموراً. وسوف نحاول أن نبيّن أن محاولات النساء لمعالجة تفضي إلى صميم ما يمكن أن يكون المرحلة التالية من التحليل النفسي، أو نظرية التحليل النفسي مع أن هذه المرحلة لم تتحدد حتى الآن.

يتركز الجهد هنا على النظر إلى تعقيدات نظرية التحليل النفسي، وذلك من نقطة أفضل ومختلفة كلياً، وتبدأ بتأمل بعض صفات المرأة. وسوف نبدأ هذا الفحص على مستوى وصفي بسيط ثم نعود لتلخيص بعض هذه التعقيدات التي تنشأ عن الفحص المذكور. وحين ننجز ذلك سنكون في وضع أفضل لفهم القوى التي تعمل على خلق الوضع الراهن وصيانته أو تغييره بدلاً عن ذلك.

الفصل الرابع
القوى

التعرض، الضعف، العجز

يعطي العلاج النفسي حالياً مكاناً مركزيّاً لمشاعر الضعف والتعرض والعجز جنباً إلى جنب مع ما يصاحبها من مشاعر العوز المألوفة. هذه مشاعر عرفناها جميعاً إذا أخذنا بعين الاعتبار الفترة الطويلة الضرورية للتطور نحو النضج عند الجنس البشري في مجتمعنا، وكذلك الصعوبات والحاجة إلى العون التي عاناها معظمنا في أثناء الطفولة وفي حياتنا ونحن كبار حقاً. ومما لاشك فيه أن هذه المشاعر غير مستحبة في معظمها، وتكون مخيفة عند حدها الأقصى. ويعتقد عدد من مدارس علم النفس الديناميكي بأن هذه المشاعر هي الأسباب الجذرية (للأمراض) الرئيسية المختلفة. إن الرجال في المجتمعات الغربية يشجعون أن يرهبوا ويمقتوا أو ينكروا الشعور بالضعف أو العجز. ويحصل هذا في الوقت الذي تشجع فيه النساء على تكريس هذه الحالة. لكن النقطة الأولى والأهم هي أن هذه المشاعر حتمية وتشمل الجميع. ومع ذلك تتوقع تقاليدنا الثقافية، بشكل غير واقعي، أن ينبذها الرجال أكثر من أن يعترفوا بها.

توضح هذه المقارنة مثالين مختلفين ومختصرين . ماري شابة موهوبة وواسعة الحيلة . لها طفلان ، وتعمل في مستشفى . عرض عليها عمل جديد يتطلب المزيد من المؤهلات . كان عليها أن تقود فريقاً يعمل بطريقة مبتكرة في رعاية المرضى . كان هذا العمل ينطوي على مدى أوسع بالنسبة لأعضاء الفريق ، وعمل أصعب بالنسبة إلى ماري ، ويحتاج إلى التنسيق والتفاوض حول الصعوبات ومصادر القلق عند العمال .كان رد فعل ماري المباشر هو قلقها إزاء قدرتها على تنفيذ المشروع . شعرت بأنها ضعيفة وعاجزة في مواجهة المهمة المرعبة . كانت في بعض الأحيان مقتنعة بأنها عاجزة عن القيام بالعمل . وكانت تود أن ترفض العرض .

كان قلقها وفقاً لبعض المقاييس منطقياً لأن وظيفة منسّقة فريق صعبة وتتطلب براعة خاصة بحيث لا يجب أن تقبل الوظيفة إلا بعد أن تجري تقييماً دقيقاً لنفسها . وعلى أي حال فقد كانت جديرة بالوظيفة إلى حد بعيد . وقامت بتحديد القدرات اللازمة للعمل . ولم يبق لديها سوى بعض المشاكل الأنثوية الشائعة . كانت لديها مشكلة في التسليم بقواها وسهولة في فقدان اعترافها لها . فالإدراك الواضح لكفايتها كان يعني فقدانها لصورة الفتاة الصغيرة الضعيفة التي مازالت تلازمها بالرغم من أن هذه الصورة لم تكن واضحة بشكل دقيق . وبينما بدا أن الخوف من الوظيفة له ما يبرره فإن ترددها في التخلي عن الصورة القديمة قد زاد في مخاوفها .

بمقارنتها مع رجل هو تشارلز فإن تشارلز هو رجل موهوب جداً أيضاً . وقد واتته الفرصة كي يحصل على وظيفة ذات مستوى أعلى . كان بالغ السرور .

كانـت هـذه الوظيفـة مـشابهة لوظيفـة مـاري مـن حيـث متطلباتهـا الإداريّـة ومسؤولياتها . كما كانـت تتطلـب براعـة مماثلـة . وقبيـل أن يبـدأ عملـه الجديـد ظهرت عليه بعض الأعراض البدنيّة . واللافت للانتباه أنه لم يتحدث عنها . بيد أن زوجته روث شكّت بأنها ناجمة عن قلقه من مواجهة المهام التي تنتظره . ولأنها تعرفه لم تـشر إلى المشكلة مباشرة ولكنها بـادرت الموضوع بالطريقة الـتي شـعرت أنهـا ممكنـة فقـط . رأت إن أجـراء بعـض التغـييرات في الغـذاء ، وساعات النوم ، ونمط الحياة العام قد تكون فكرة طيبة .

كان رد فعله الأولي نوعاً من الغضب والاستخفاف بها . وأبلغها بشيء من السخرية أن تكف عن إزعاجه . وفي وقت لاحق اعترف لنفسه ، ومـن ثـم لـروث أنه حين يزداد إحساسه بعدم الثقة بقدرته ، وحين يكون بحاجة أكثر للمساعدة لا يملك إلا أن يرد غاضباً خاصة إذا بدا أن شخصاً ما يدرك عوزه .

لحسن الحظ يحاول تشارلز ما استطاع أن يتغلب على العوائق التي منعته من الاعتراف بهذه المشاعر . وتحاول زوجته الكشف عن إمكانية معالجة هذه المشاعر إذا لم يتمكن من القيام بهذه العملية بنفسه . كما أنه لم يـستطع حتى الاستجابة لمبادرتها بسرعة . لكن هذه المرّة ، وبعد وقت قصير جداً من الحادثـة كان بوسعه أن يسيطر على نفسه وهو ينكرها . أما روث فقد ظلت مرفوضة ومستاءة ومجروحة . وتصاعد الوضع إلى سخط وتهم متبادلـة في الوقت نفسه الذي كان يشعر فيه بأنه معرض وعاجز ومحتاج أكثر .

من المهم أن نلاحظ أيضاً أن روث لم تكن قد كوفئت على قواها ؛ بـل إنهـا دفعت كي تعاني بسببها غضباً ورفضاً . هـذا مثال صغير يبيّن أن صفات المـرأة

القيّمة لا تنكر وحسب؛ بل تعاقب عليها بدلاً عن ذلك. وحتى في هذه الحالة لم تتمكن روث من التصريح بملاحظاتها علناً. كان عليها أن تستخدم "حيل النساء". لذا يمكن للصفات المهمة مثل تفهم التعرض الإنساني للأخطار وعروض المساعدة أن تكون سبّباً في الاختلاف الوظيفي في العلاقات لأنها بنيت حديثاً. كما يمكن أن تجعل المرأة تشعر بأنها مخطئة حتماً.

لا يمكن لإنسان ذكراً كان أم أنثى أن يصبح كامل النمو بلا مجتمع. إن جانباً ضرورياً لكل خبرة هو اعتراف المرء بضعفه وحدوده. إن أعلى القيم الإنسانية ـ القدرة على النمو نفسياً ـ هي بالضرورة عملية مستمرة تنطوي على مشاعر التعرض التي تتكرر طيلة الحياة. يوضح مثال تشارلز أن الرجال قد تكيفوا أن يخافوا الضعف ويكرهوه، وان يحاولوا التخلص منه سريعاً مع ما يرافق ذلك من هياج شديد أحياناً.

وأعتقد أن هذه المحاولة تمثل جهداً لتشويه التجربة الإنسانية. ومن الضروري أن "نتعلم"، بمعنى عاطفي، أن هذه المشاعر ليست مدعاة للعار أو الاشمئزاز لأن المرء يمكن أن ينتقل من مكان إلى آخر إذا تركت المشاعر كما هي عليه. وعندئذ فقط يمكن للمرء أن يأمل بإيجاد مسالك مناسبة نحو القوى الجديدة. ومع القوى الجديدة سوف تظهر ميادين جديدة للتعرض لأنه ليس ثمة مناعة مطلقة.

أما القول بأن النساء أقدر من الرجال على التسليم الواعي بمشاعر الضعف أو التعرض فقد يكون أمرا واضحاً، إلا أننا لم نعترف بأهمية هذه القدرة. كذلك فإن لدى النساء قدرة إيجابيّة في أنهن أقدر بكثير على تحمل هذه

المشاعر التي تولدها الحياة بشكل عام، ولدى كل شخص في مجتمعنا. ومن الظاهر أن الكثير من الفتيات والشباب المراهقين يعانون بحدّة من الحاجة إلى الهرب من هذه المشاعر قبل أن يختبروها. وبذلك تكون النساء أوثق صلة بخبرات الحياة الأساسية سواءً بشكل سطحي أو عميق، أي على صلة بالواقع. إن كونهن على هذا الاتصال الوثيق مع الشرط الإنساني المركزي، وكونهن يدافعن عن أنفسهن بشكل أقل فإنهن في وضع يفهمن فيه الضعف بيسر أكثر ويتعاملن معه بشكل مثمر.

وباختصار تتم تنشئة الرجال في مجتمعنا على الشعور بالضعف بأشكال مختلفة؛ بينما تنشأ النساء على الشعور بأنهن أضعف. لكن كونهن "يعرفن" الضعف فإن بوسعهن أن يتوقفن عن دورهن "كناقلات" للضعف، وعن تطوير أشكال مختلفة منه. كما يكتشفن الطرق المناسبة للانعتاق منه. وحين يبدأن رحلتهن الخاصة بذلك يستطعن إضاءة الطريق للآخرين.

ما تزال المرأة التي تتمتع بأشكالٍ عدّة من القوّة تعاني وقتاً عصيباً لقول ذلك، وتوضح ماري في المثال السابق هذه المشكلة حتى تقنع نفسها أن من الحق فعلاً الإفلات من الإيمان بصحة الضعف. إن من يفهم المرأة فقط يمكنه أن يفهم كيف يعمل هذا العنصر النفسي كيف يصبح الخوف من عدم كونك ضعيفاً واسع الانتشار ومؤثراً، وكيف يستمر بقوّة ودأب دون معرفة كنهه. وليس من الصعب على الرجال مع كل مخاوفهم من الضعف أن يروا لماذا تتعلق المرأة بالضعف، وأن يفهموا أنه لا يعني للمرأة ما يعنيه للرجل تماماً. وربما لا يمكنه أن يكون كذلك.

ثمة نقطة اجتماعية أخرى هنا. فحقيقة هذه المشاعر مرتبطة عامة بكونها "أنثوية" لا ذكوريّة بالنتيجة فإنها تساعد على تعزيز الاذلال الذي يعاني منه الرجل الذي عانى من هذه التجربة. وتوفر المرأة في غضون ذلك كل أنواع المؤازرة الشخصية والاجتماعية لشد أزر الرجل في التحمل. كما تساعده مع المجتمع برمته على قبول القول بأن ثمة حاجة لترتيبات جيدة. هذا يعني أن كل تفاعل المرأة ـ الرجل يخفف الدفع لمواجهة ومعالجة نواقصنا الاجتماعية. لقد خبرنا جميعاً بشكل كبير الخطر حين حاولنا أن ننمو ونشق طريقنا وسط المصاعب والظروف المحدقة في الحياة التي نحياها. إننا نخسر جميعاً لكن خسارتنا تبقى غامضة.

من الممكن فهم الكثير عن حالة تشارلز لو سألنا: "ماذا كان يريد حقّاً؟" كان مثل الكثير من الناس يريد شيئين على الأقل. لم يكن يريدهما وحسب بل يعتقد أنهما كانا ضروريين لإحساسه بذاته. كان يريد قبل كل شيء أن يبحر عبر كل حالة وهو يشعر "كرجل"، أي رجل قوي، مكتفٍ ذاتياً ومقتدر تماماً. كان يطالب نفسه بقدر ما يشعر به في هذا المجال. وأي شيء يختبره أقل من ذلك كان بمثابة تهديد لرجولته. ولم يكن هذا الطلب واقعيّاً في حده الأقصى لأننا نواجه تحدّيات متكررة في حياتنا. ومن المؤكد أننا نشعر دائماً بالشكوك.

كان تشارلز في الوقت نفسه يريد أن يحفظ هذه الصورة عن نفسه. كان يضمر رغبة تبدو ظاهرياً متناقضة. هذه الرغبة هي أن زوجته سوف تحل بشكل ما كل شيء بطريقة سحرية وسريعة بحيث لا يعي ضعفه نهائياً وأبداً. كان عليها أن تفعل كل ذلك دون سؤال. لقد كان من الجوهري ألا يفكر أو يتكلم عن ضعفه. وحقيقة أن روث لم تنجز هذه المعجزة بسرعة كانت سبباً في غضبه منها.

بدلاً عن ذلك واجهته بمحاولة لمعالجة المشكلة. وبعملها هذا ذكرته بمشاعره عن الضعف والتعرّض. لكن حتى لو لم تكن تفعل شيئاً فإن مجرد وجودها كان سوف يسبب له خيبة أمل بأن تعنى به وتحل له المشكلة. ويبرز هذا النوع من الرغبات لدى الكثير الكثير من الناس وموجود عند أكثرهم بدرجات متفاوتة. فما دامت المرأة تعيش في ظل القانون الأساسي القاضي بأن ترضي الرجل وتخدمه فإنه سيكون موضوعاً لهذه الرغبة. وسوف تصبح في هذا الوقت عاجزة عن المشاركة والتواصل والتعاون المتدفق بحريّة وهي عاجزة عن التبادل الذي يمكن أن يساعدها والآخرين في النمو بعد هذه المرحلة. والأمل هو أن هذه الرغبة يمكن أن تتحقق وتندمج على مستوى أعلى حين يظهر المرء إحساساً متزايداً بقواه الخاصة وثقة متزايدة بالآخرين طيلة الحياة في الطفولة والبلوغ على حد سواء.

منذ البداية قامت روث بخطوة في هذا الاتجاه وهي تحاول مخلصة أن تساعد تشارلز وتكافح معه. لكن هذا ما لم يقبله تشارلز ويوضح رفضه هذا، بطريقة بسيطة، عبر الجواب على سؤال مفاده هو كيف تصل المرأة إلى الاعتقاد بأنها فاشلة حتى في دورها التقليدي كزوجة؟ فما دام أن جانباً رئيساً من إحساس المرأة بقيمتها قد بني على دورها كزوجة، فقد كان يمكن بخبرات من هذا النوع أن تشوه ثقتها بنفسها. كانت مهيّأة لأن تؤمن بأن زوجها على صواب لمجرد أنه رجل وهي على خطأ لأنها امرأة. ولتوضيح ذلك نقول باختصار: "لو ادعى أفراد الجماعة المسيطرة، أي الرجال، بأنهم لا يتمتعون بالشعور بالأمن فإن التابعات، أي النساء، لا يستطعن تحدّي ادعائهم. زد على ذلك أن من مسؤولية المرأة أن توفر

حاجات الفريق المسيطر، وبذلك يمكن لأعضائه الاستمرار في نكران هذه المشاعر. إن حقيقة أنَّ هذه المشاعر موجودة عند الجميع، وتقويّها المشاكل التي يخلقها مجتمعنا لكل أفراده تخلق حالة لا تكاد تطاق.

يبدو أن الأسطورة "تفعل" فعلها مع بعض الأزواج. فكلٌّ من الشريكين يعرف ما يجري إلى حد ما. ويتحقق التوازن بحيث تكون التسوية مقنعة بشكل يكفي للمحافظة على الأمر الواقع. فالمرأة التي كانت تفكر بالبدائل التي واجهتها خارج الزواج كانت راغبة في قبول الوضع في معظم الأحيان. لكن مثل هذه الزيجات قد تخلق نوعاً من رد الفعل لدى المرأة.

في هذه الحالات تتجلى حكمة المرأة بأشياء معينة. لكن برغم مهارتها فإنها في الواقع لا تعلم سوى نصف القصة، أو ربما أقل من النصف. تعرف المرأة عادة نقاط ضعف زوجها بشكل جيّد، وتقدّم له المساندة اللازمة. لكن برغم ذلك قد يبدو أمثال هؤلاء النساء من ذوات الأداء الجيد مجرد ربّات بيوت. وبذا يطورن، بشكل مستمر ومتزايد، شعوراً عاماً يفيد أنه مع النظر إلى الذكاء الحاد الذي يدركن به نقاط ضعف الرجل فلابدّ أن لديه نقطة قوّة مجهولة تماماً، وقدرة تمكنه من تدبر "العالم الخارجي".

تصل المرأة أحياناً إلى درجة تنظر فيها إلى هذه الميزة كما لو أنها شرٌّ يجب أن تؤمن به. وهي توفر الشعور الرئيس بالمساندة. ويبدي العديد من النساء حاجة كبيرة للاعتقاد بأن لديهن رجلاً قوياً ترجع إليه طلباً للأمن والأمل في هذا العالم. وفي حين يبدو هذا الاعتقاد بعيد الاحتمال. فإن قوّة الرجل السحرية هذه موجودة جنباً إلى جنب مع المعرفة الوثيقة بضعف الرجل.

وهكذا لا يتوقف إقصاء المرأة عن اكتساب الخبرة في عالم العمل الجاد وحسب، بل إنها تصل في الواقع إلى الإيمان بأن لدى الرجل قدرة موروثة خاصة، عاملاً تفتقده، ولا بد أن تفتقده. إن لدى المرأة ظروف تستمر مدى الحياة تملي عليها الإيمان بهذه الأسطورة. هذا الاعتقاد بعينه هو واحد (مجرد واحد) من التعبيرات التي أدركها الأطباء النفسانيون والمنظرون بوصفها برهاناً على "قضيب الجسد". ولعل ما شجعهم في إدراكهم ذلك هو الطريقة التي تتحدث بها النساء عن هذه "الصفة الذكورية" كما لو أنها ضرب من قدرة سحرية لا يمكن بلوغها. وهناك بعض الرجال ممن يتملكون دراية بالنفس البشرية يعرفون بأنهم لا يملكون قدرة استثنائية لا تشترك بها النساء لكنهم ركنوا، مثلاً، إلى أبرز الفروق البدنية أي القضيب.

وقد تبدو الحقيقة أبسط بكثير وهو أن الشيء الوحيد الذي تفتقر إليه المرأة هو الممارسة في "عالم حقيقي"، إضافة إلى الفرصة في الممارسة والإيمان الثابت بأن للمرء الحق في ذلك. هذه المقولة البسيطة تغطي نتائج نفسيّة معقدة وكثيرة.

طرق جديدة بعيدة عن الضعف

ينقلب الأمر الواقع حين يسلّم المرء علناً بضعفه. إن حقيقة الاعتراف بالشعور بالضعف والتعرض هي حقيقة جديدة وأصيلة. أما الخطوة التالية وهي فكرة أن المرأة لا ينبغي أن تبقى ضعيفة فهي فكرة أخطر بكثير. ويتصل بذلك مشكلة لا مفر منها حين نسأل ماذا تستطيع المرأة أن تفعل حين تخرج من الضعف. هنا تقع المرأة في تناقضٍ قد يكون حادّاً جداً.

لدى اعتراف المرأة بضعفها فإنها تبادر بانكشاف هائل فبمجرد أن تقول المرأة: "أنا أشعر بالضعف لكنني أنوي الخروج من ذلك" فإنها بهاذ تعرض شكلاً لا يطيقه الرجل. إن ذلك من الصعوبة بما لا يتيح للرجال قبوله. أضف إلى ذلك أن هذا يجعل المرأة تهدد الرجل بنزع الدعائم المهمة. ومن الصعب على نحو خاص أن يتحمل أي إنسان انتزاع شخص لدعائمه. والأصعب من ذلك إذا كان هذا الإنسان قد تظاهر دائماً بأنه لم يكن بحاجتها أولاً.

بالرغم من أن الضعف الحقيقي هو مشكلة لأي كائن بشري؛ فإن الصعوبة الرئيسة بالنسبة للمرأة تكمن أكثر في الاعتراف بالقوى التي حققتها للتو والسماح لنفسها باستخدام إمكاناتها. وتمتلك المرأة أحياناً إمكاناتٍ ضرورية أو أنّ لديها قاعدة تبني عليها. وغالباً ما ينشأ القلق في هذه الحالات. والواقع أن كلاًّ من مؤسساتنا والناس القريبين يزيدون القلق عبر معارضتهم لنا. كما أن المرأة تواجه بعقبات أخرى على مستويات عدة ليس فقط تلك الكامنة من الماضي، بل عقبات تؤدي بها إلى الخوف من قواها وإلى عقبات ماثلة في الواقع أيضاً.

لكن حين تبدأ المرأة إدراك أشكال من القوة تقوم على خبرتها الحياتية الخاصة أكثر من اعتقادها بأن عليها امتلاك الصفات التي تنسبها للرجال فإنها تجد تعريفات جديدة للقوة. ومن الأمثلة الدقيقة على ترجمة القوة إلى شكل اجتماعي هو نظام الدفاع عن المرضى الذي طورته مراكز الصحة النسويّة.

يعترف المجتمع تقريباً أن مواجهة الطبيب تنطوي على شيء من الخوف. فإضافة إلى المخاوف من المرض وما ينطوي عليه فإن زيارة الطبيب تفجر أعمق المخاوف من الضعف والتشوه والموت. لقد أدركت المرأة أن من الصعب جدّاً

معالجة هذه المخاوف إذا كانت المريضة وحدها في عيادة الطبيب، أو حين تحاول التعامل مع المؤسسات الصحية على ما هي عليه اليوم. لذا ففي نظام الدفاع الصحي تقوم امرأة ذات خبرة وعاملة في هذا الميدان بمرافقة المرأة المريضة إلى العيادة أو المستشفى، وتبقى إلى جانبها لتتكلم وتسأل وتتحدى. ويوضح هذا المثال عدداً من العناصر التي أشير إليها. إن من الأسهل على المرأة أن تصرح بمخاوفها علناً وبالتالي تحديدها بدقة. كما أن من الأسهل عليها العودة إلى الآخرين وطلب العون منهم. ومن الواضح أن الرجال يحتاجون إلى هذه المساعدة مثل النساء. وحين تستكمل هذه العملية فقد يتبناها الرجال أيضاً، وذلك على أمل أن تكون لفترة مؤقتة إلى أن يبدأ حقل الطب بمعاملة الناس بحساسيّة أكثر.

الضعف في النظريّة والثقافة: قد تبدو مشاعر التعرض والضعف والعجز، كما ناقشنا حتى الآن، عادية، وربما أفادت معالجتنا لبعض مضامينها الأوضح في التعتيم على أهميتها العميقة لجماعة علم النفس اليوم. والواقع أن التفكير الراهن للطب النفسي يضعها في مركز معظم مشاكل اليوم. ففي اللغة الهجينة لهذا الحقل أسماء أكثر تأثيراً. لكن القضايا التي تتطرق للكيفية التي يشعر بها الإنسان بالتعرض والعجز، وما يفعله المرء هي، على الأرجح، القضية الأساسية التي تؤكدها معظم الاهتمامات الحديثة في الطب النفسي. ويمكن لهذا التعرّض، في حده الأقصى، أن يوصف بأنه التهديد بالإلغاء النفسي الذي قد يكون أخطر تهديد. ويعمل الناس ما بوسعهم لتجنب هذه التهديدات.

ثمة خلافات في نظرية الطب النفسي الراهنة حول كل من أصول هذه التهديدات، وشكل ردود الفعل الناشئة عنها. فمثلاً، هل تنشأ جميعها في القلق المنفصل عند الرضيع، كما يرى جون بولبي John Bowlby، أو هل تنشأ كما عند فرويد، وغير ذلك من النظريات لأن الدوافع الغريزية تصطدم "بالعالم الخارجي" ما يؤدي إلى شعور المرء بالضعف والتعرض (إضافة إلى أشياء أخرى؟). وحتى لو كانت نظريات راهنة أو ماضية توضح هذه المشاعر بدقة فإنها جميعاً نشأت من الثقافة التي جعلت جنساً يجسّد الضعف، والجنس الآخر يجسد القوّة. أما السمة الجديدة فهي أن النساء في موقع يكشف منظوراً جديداً وجذرياً في هذا الموضوع.

تدعم نظريات التحليل النفسي التي صيغت ببساطة ذلك الشخص الذي يحاول أن يطور طرقاً للتعامل مع هذه المشاعر بآلية ذهنية تمكن الشخص من التغلب على مشاعر التعرض أو الضعف والعجز وانطلاقاً من ذلك يبني الناس نظاماً داخلياً للأشياء يعتقدون أنهم بفضلها سوف يحققون الرضا والأمن، وقد يصبح هذا النظام معقداً وصارماً. وغالباً ما يعتقد الناس بأنهم يحتاجون إلى الاتصال بالعالم وبمن فيه بأسلوب ثابت محدّد، وقد يستجيبون بقوة إذا لم يتمكنوا من إقامة العلاقة المطلوبة أو الوضع المطلوب.

لعل من الطرق التي توصف بها جميع المشاكل النفسيّة القول بأن الناس يعتقدون أن بوسعهم أن يكونوا آمنين وراضين فقط إذا استكملوا وأقنعوا الآخرين بأن يستكملوا صورة معينة لما يحتاجون. وإذا لم يتمكنوا من إنجاز هذا يشعرون بالضعف والتعرّض. هذه المشاعر مرعبة لأن الناس عندئذ يدفعون بقوة أكبر ليجعلوا برامجهم الخاصة تتغيّر.

وقد ارتبطت هذه المشاعر المرعبة والمتأصلة في الكائن البشري، بكل من النساء والأطفال. فكل فرد من هؤلاء يختبرها. أما الذين يستجيبون لهم فإنهم يحاطون بالسخرية، هذه المشاعر "متاحة" للرجال فقط لفترة قصيرة حين يكونون أطفالاً فقط، ويتوقع أن يتخلصوا منها مدى الحياة. وتعكس نظرياتنا الفلسفية هذه الحالة. فالنمط الجوهري الأساسي للعقل الإنساني في واقعنا هو ذاك الذي يقول بأن نقاط الضعف العاطفية تعامل فيه بشكل حاسم وثابت وصارم في سنوات الطفولة الأولى. وقد يكون لهذا النمط علاقة بمحاولات الذكور الثقافية الهادفة إلى تخليص الرجال من هذه الخبرات.

أما الموضوع الآخر الكبير فإنه يدور حول علاقة الآخرين بهذه التهديدات. ففي الحياة العصريّة لا تأتي التهديدات الرئيسة من عالم الجسد وحسب بل من الآخرين أيضاً. إن الناس هم الذين يجعلوننا نشعر بالتعرض منذ الطفولة الأولى وطيلة الحياة. فإذا تمكن المرء من العودة بسرعة إلى الآخرين بحثاً عن التعامل مع هذه المشاعر، وإذا استطاع تحقيق ذلك بيسر وأمان فقد يكون ثمة الكثير من فرص أكبر للتعامل مع الحياة بشكل مثمر.

العواطف:

إن الحياة العاطفية التي تعد مظهراً وجزءاً من كل حالة من حالات الوجود هي جوهرية أكثر من مشاعر الضعف والتعرض. بيد أن تقاليدنا المهنية لم تنظر إليها بوصفها تساعد على الفهم والفعل بل أسوأ من ذلك لأنها تنظر إليها بوصفها عائقاً وشراً. كما أن لدينا تقليد طويل في محاولة الاستغناء، أو

على الأقل، ضبط أو تحييد العواطف أكثر من تثمين وقبول وصقل قدراتها على المشاركة. وتمتلك النساء في هذا الوقت شعوراً أعظم بالجوانب العاطفية في كل النشاط الإنساني أكثر مما يمتلك الرجال. ويعود السبب في هذا جزئياً إلى أن المرأة يتم تأهيلها كتابعة لأن أي شخص يعيش حالة التابع يجب عليه أن يتعلم كيف يكون متناغماً مع تقلبات الغضب والسرور والاستياء التي تنتاب أفراد الجماعة المسيطرة. لقد شرح الكتّاب السود هذه النقطة شرحاً وافياً. إن بوسع التابعين أن يستخدموا هذه القدرات المطورة بوصفها أحد الأسلحة القليلة المتيسرة لهم في صراعهم مع الجماعة المسيطرة. وغالباً ما تتصرف المرأة وفق هذا الأسلوب. ومن الأمثلة التي توضح ذلك ما يدعى "الحدس الأنثوي" و"المكر الأنثوي" لكن أيّاً كان الشكل الذي تتحقق فيه هذه المزايا فإنها تظل دليلاً على قدرة جوهرية قيمة جداً. فليس بوسع أحد قطعاً أن ينكر أن العواطف هي مظهر أساسي من مظاهر الحياة الإنسانية.

تشجع الثقافة السائدة الرجال منذ نعومة أظفارهم كي يكونوا فعالين وعقلانيين. وتوجه النساء على الانخراط في العواطف والمشاعر التي تحصل في كل أنواع النشاطات. وقد كسبت النساء خارج ذلك التبصر بأن الحوادث مهمة ومرضية فقط حين تحصل ضمن إطار من الاتصال العاطفي. وتميل المرأة إلى تصديق ذلك أكثر مما يفعل الرجل. فالحالة المثالية عندها هي أن يؤدي كل نشاط إلى ارتباط عاطفي متزايد مع الآخرين. من هنا تنشأ الصعوبة النفسية والاجتماعيّة من المفاهيم المشوهة التي اكتسبتها النساء من ثقافة الجماعة المهيمنة. فقد تعلمت المرأة أن تعتقد بأنها إذا تصرفت وفكرت بشكل مؤثر

وفعّال فإنها سوف تعرض للخطر فرصة جني تجربة عاطفية مرضية. وبذلك دفعت المرأة إلى الشعور بأن أقوى ما تملك هو عرضة للخطر حقاً.

ثمة مظهراً آخر هو أن المرأة قد شُجعت على أن تركز على عواطف الآخرين وردود أفعالهم أكثر مما تركز على تفحص عواطفها الخاصة والتعبير عنها. وفي حين يبدو هذا الأمر مفهوماً جدّاً فإن المرأة لم تطبقه تماماً، أي أنها لم تستخدم قدرتها المتطورة في استكشاف عواطفها ونفسها.

بيد أن العديد من النساء يقوم الآن بهذه العملية بطريقة جديدة تماماً. وسيتم البحث بشكل مفصل في الفصول القادمة في بعض المجالات التي بلغتها المرأة في استكشاف ذاتها. لكن من أجل الفهم التام للحالة التي ما تزال موجودة لدى معظم النساء نعود إلى روث لأن تجربتها تقدّم توضيحاً مختصراً للطريقة التي يمكن أن تجعل القوّة تبدو ضعفاً. لقد كانت روث أقدر على استيعاب حالة تشارلز برمتها بسبب قدرتها الكبيرة على الاهتمام بالعواطف. لكن آراء زوجها القاطعة كانت قد فوتت الفرصة كي تتيح لفهمها أن يتجلى وان تستخدمه للعثور على حلول. لقد كررت روث معالجة الإخفاق وهي تشعر أنها ليست على صواب تام بل متيقنة من أنها مخطئة حتماً فيما يتعلق بالموضوع برمته.

المشاركة في تطوير الآخرين

ليس ثمة من شك في أن المجتمع المهيمن يقول بأن الرجال يؤدون الأعمال المهمة، وأن النساء ينزعن إلى "المهمة الأدنى" في مساعدة الكائنات الإنسانية الأخرى كي تتطور. وبادئ ذي بدء يوحي هذا التوزيع في المهام بأن مؤسساتنا

الاجتماعية الرئيسة غير مبنية على عقيدة تساعد الآخرين على التطور. إن جميع الناس يحتاجون إلى المساعدة على التطور في جميع مراحل الحياة. لكن هذه الحقيقة تحولت إلى أن تبدو وكأن الأطفال وحدهم هم من يحتاجون هذه المساعدة. هذا التفكير يضع كلاً من النساء والأطفال وراء حجاب داكن سميك يؤدي بهم إلى عواقب نفسية عديدة. وينطبق الأمر على كلا الجنسين. فالشخص الذي ينخرط بشكل وثيق جداً في تطويرهم ينظر إليه بوصفه أقل ويؤدي مهمة أقل بالرغم من أنه (المرأة) يتمتع بأهمية جليلة عندهم. فضلاً عن ذلك ينبغي على المرأة أن تفعل هذا العمل الرئيس دون الدعم الذي يمكن أن تقدمه الثقافة لمهمة هي تقدرها. لكن الواقع أن النساء يؤدين المهمة بصرف النظر عن أي شيء آخر.

وبالرغم من كل المعوقات تمتلك المرأة إحساساً بالمتعة في الارتباط الوثيق بالنمو البدني والعاطفي والعقلي أكثر من الرجال. وقد يكون النمو واحداً في أكثر الميزات أهمية وإثارة في الكيان الإنساني. ومن المأساوي في مجتمعنا أن المرأة محرومة من الاستمتاع بهذه العواطف عبر جعلها تشعر أن انشغالها بالآخرين هو الدور الوحيد الصالح لها ولكل النساء، وعبر الوحدة والكدح والعزلة وانعدم التعاون في البيئة المنزلية حيث تعيش.

إن المشاركة في تنمية الآخرين هي أحد أهم مصادر المتعة في العلاج النفسي. حين يكون المرء جزءاً من تجربة شخص آخر يكافح ليضع قدميه على طريق جديدة ومرضية من حيث الرؤية والمشاعر والفعل فإن ذلك مصدر سعادة عارمة للشخص الأول. إن الأطباء النفسانيين يعلمون أن الأمر في

حالات زوارهم يتوقف أساساً على جهدهم لكنهم يعرفون في الوقت ذاته أن بوسعهم أن يلعبوا دوراً مساعداً. ومن هذه المساعدة التي تتسم بالمشاركة يمكن للمعالج أن يستمد سعادة ومتعة كبيرتين. بيد أن هذا هو في جوهره هو النشاط ذاته الذي تقوم به النساء كل يوم.

لقد برهنت النساء الآن أن المساعدة في نمو الآخرين، دون أن تتاح لهن فرصة وحق مساويين في تنمية أنفسهن، هو شكل من أشكال الظلم. والواقع أننا في وضعنا غير المتكافئ نرى أن المظهر القيّم من مشاركة النساء في تطوير الآخرين هو في خطر دائم من الانحلال والتحوّل إلى استعداد لدعم الأنا فقط. مرّة أخرى هنا تشوه اللامساواة وتنفي القدرات القيّمة. إن روث هي مثال للمرأة التي تحاول أن تساعد في النمو إلا أنها تدفع إلى حالة من الإحباط. سوف نناقش في الفصول اللاحقة المزيد من الأساليب الجدية التي تتعرض فيها هذه الصفة القوية للضعف والعجز.

التعاون

ثمة مظهر آخر في علم نفس المرأة هو إدراكها للطبيعة التعاونية للوجود الإنساني. فبالرغم من مظاهر التنافس في أي مجتمع فإنه لابد من وجود شيء من الأساس الصلب لروح تعاونية كي يستمر الوجود. (أنا أعرّف الروح التعاونية بوصفها الأساس الذي يساعد ويصعد تطور بقية البشر بينما يمضون قدماً إلى الأمام). من الواضح على نحو مؤكد أننا لم نصل حتى الآن إلى مستوى عالٍ من العيش التعاوني. وضمن المستوى الذي وصل إليه يفترض أن تقع على

عاتق النساء المسؤولية الأكبر في توفيره. فالمرأة في أسرتها تحاول بدأب أن تستنبط منظومة تعاونية تكون فعالة في رعاية حاجات كل فرد في الأسرة. وهي تقوم بهذا الجهد دون أن تضع له عنواناً بأحرف بارزة. لكن قاعدة اللامساواة التي بنيت عليها أسرنا تعوق إلى حد كبير المهمة المذكورة. ومع ذلك يظل صحيحاً أن المرأة هي من يمارس هذه المحاولة.

لنأخذ، على سبيل المثال، ماري التي كانت قلقة حول وظيفتها الجديدة ذات المتطلبات. لقد كانت بحاجة إلى مستوى جيد من التعاون الذي وفره زوجها جو Joe. وإذا كان قادراً أن يوفر هذا التعاون فإنه سيبدو رجلاً غير عادي. كانت ماري قد منحته هو والأطفال هذا النوع من الدعم التعاوني على امتداد سنوات.

قد يبدو جو Joe كما لو أنه خرج من مكان مجهول هذه المرّة. إن غيابه عن المناقشة حتى الآن يشكل نقطة مهمة. فالواقع أن جو "شاب جيد" فهو وماري يحبان بعضهما بعضاً. تقول ماري هو "لم يوقفني عن العمل"، و"هو يساعدني عند الضرورة ولطيف ومتفهم" لكنه لا يشعر أن الكشف عن طرق جديدة لتوفير أعلى ما يمكن من التطور لكل فرد في الأسرة هو مسؤوليته الرئيسة. تلك هي وظيفة ماري.

إن النزعة التعاونية عند المرأة، حتى في خضم المشاكل النفسية، كانت جليّة في حالة زوجين آخرين. كان جيم Jim شخصاً يعاني من مشاكل حادة. لقد بات مدمناً على المخدرات وكانت حالته تنتقل من سيء إلى أسوأ. كذلك كانت زوجته هيلين Helen تعاني من صعوباتٍ متأصلة عميقاً في نفسها. بعد

عدة سنوات من المشاجرات بينهما كان كلٌّ منهما قد شوه الآخر فشعر جيم أنه لم يعد قادراً على مواجهة أي شيء واختفى. وقد فعل ذلك لأنه كان خجلاً من نفسه إلى حد ما. كذلك كان خجلاً من إخفاقه المتكرر عملياً في كل مناحي الحياة. وبالرغم من أنه كان مؤهلاً كمحامٍ فقد شعر في ذلك الوقت أنه لم يبقَ له شيء. أما هيلين التي كانت خجلةً ومدمرة بنفس القدر فإنها لم تغادر منزلها بالرغم من أن رغبة مماثلة كانت تعتمل في صدرها. ومع أنها كانت تشعر بأنها عاجزة حقاً عن تقديم أي شيء لأي شخص فقد استمرت في عنايتها بأطفالها الثلاثة. وفي حين كانت تعاني من الفراغ والحرمان فإنها بذلت جهوداً مضنية لتفعل كل ما بوسعها من أجل أطفالها. ولمدة أولية طويلة كانت تشعر أن إحساسها بحاجات الأطفال هو فقط ما جعلها تعمل في النهار وتمكث في منزلها في الليل. وفي نهاية المطاف كانت قد أمنت العديد من الموارد. وتقول الآن: "لم يخطر لي قط أنني سأكون الشخص الذي هو أنا اليوم".

إذا صرفنا النظر عن الصراع العرضي الطويل الذي عانت منه فإن النقطة التي لابد من التوقف عندها هي أن هيلين كافحت لتحقق شيئاً بالرغم من أن هذا الشيء "يخدم حاجات الأطفال كي يبقوا على قيد الحياة ويتطوروا". وكانت ما تزال تشعر أن لديها حاجة إلى الانشغال بعمل ذي طابع تعاوني ورغبة في المشاركة به بالرغم من أن أداءه قد يكون صعباً. أما جيم (زوجها) فلم يكن لديه دافع مماثل ولم يخطر له أي شيء من هذا القبيل.

حين يدخل الرجال بعض أشكال الجهود التعاونية المتناغمة فإن القيم السائدة في البيئات التي يقضي فيها معظمهم حياته تجعل من الصعب دعم

هذه الجهود. علاوة على ذلك يكتسب الرجل في بيئة الأسرة وفي وقت مبكر من الحياة شعوراً بأنه عضو في جماعة متفوقة. كما يفترض الرجال أن أشخاصاً أدنى (النساء) ينجزون أعمالاً من أجلهم، ويبذلون جهوداً للوصول بهم إلى مرحلة الاكتمال. منذ ذلك الوقت فصاعداً تبدو الروح التعاونية للرجال كما لو أنها تحط من قدرهم. حين يتعاون المرء، حين يشارك فإنه سوف يخسر شيئاً ما بشكل أو بآخر. وتزيد أفكار الرجال هذا الإحساس تفاقماً ما يؤدي إلى أن يشعروا بأنهم لابد أن يكونوا مستقلين في شؤونهم. ولابد أن يكونوا هم الرابحين.

أما نحن النساء فليس لدينا مثل هذه الخبرة. فالتعاون عندنا لا يعني الخسارة بالنوعية التي يشعر بها الرجال. ففي المقام الأول لم تتشرب النساء معظم الإحساس الخادع بأن لهن ميزة على حساب مجموعة أخرى من الناس.

حين أقول إن المرأة هي أكثر انخراطاً في التعاون وأنها حالياً أقدر على البحث عن مناسبات تستمتع بها وأن ذلك يتطلب تلك الصفة فإنني لا أقصد أن لدى المرأة ورع موروث أكبر مما لدى الرجل بل أقول إن الحياة حتى الآن قد أوصلت المرأة إلى هذا الوضع. وبينما تحاول المرأة اليوم أن تمضي إلى الأمام فإنها لا تجد أن النضال بشكل واعٍ من أجل المزيد من التعاون ضرورة وحسب بل رغبة أيضاً. وكلتا النزعتين موجودتان لدى الجنسين بنسب مختلفة. في الماضي كان العديد من النساء يتنافسن من أجل الرجال لأسباب واضحة. لكن الكثير من النساء اليوم يحاول الابتعاد عن هذا النوع من التنافس مع غيرهن من النساء، ويستبدلن ذلك بالاتجاه إلى التعاون.

الإبداع

إذا أخذنا الإبداع مع التعاون فإن ذلك يفضي إلى مسألة شاملة أي إلى عودة النقاش السابق عن التحليل النفسي. إنني ما فتئت أشدّد على أن التحليل النفسي قد أشار باستمرار إلى مظاهر ذات جوهر إنساني مطلق. وقد قلت أيضاً أن هذه الميادين من الحياة مثل الجنس والارتباط العاطفي هي مجالات خصصت بها المرأة بشكل عام. وأود الآن أن أطرح أن ثمة مجالاً آخر ذا أهمية مطلقة للإنسان وهو أن التحليل النفسي لم "يصف" أو يرسم الخطوط الكبرى بشكل ناقص كما عرّف الجنس أو جوهر العلاقات الإنسانية الأساسية. وليس مفاجئاً أن الثقافة السائدة قد أحجمت عن الاعتراف الصريح بذلك. إنني أنوه بالضرورة والوجود المطلقين عند البشر بكل من التعاون والإبداع. ومن الواضح أن خذلان هاتين الضرورتين أو إعاقة هذه الحاجات ينجم عنه مشاكل تعادل أو تزيد عن أي شيء تم استخلاصه من التحليل النفسي حتى الآن. وللتشديد سوف أتناول هذا التأمل في المرحلة الثالثة من التحليل النفسي.

إنني لا أشير في هذا السياق إلى الإبداع في الإنتاج الفني الذي تقوم به قلة موهوبة بل إلى الإبداع الشخصي العميق الذي على كل منها أن يفعله طيلة الحياة. فعلى كل شخص أن يحقق، بشكل متكرر، تقدماً في اكتساب رؤية جديدة إذا كان له/لها أن يتقدّم ويتطور. هذا النمط الشخصي من الإبداع، هذا الخلق لرؤية جديدة، هذا الكفاح المستمر لا يحصي عادة بأشكال مفتوحة وصريحة تماماً. لكنه يمضي دون توقف. ونستطيع اليوم أن نرى هذه العملية

الشاملة أوضح ما تكون عند النساء. فالنساء هن اللائي يكافحن ليخلقن لأنفسهن مفهوماً جديداً للشخصية. وهن يحاولن إعادة بناء عقيدة تستند عليها حياتهن. وتمتد هذه الجهود إلى أعمق ما يمكن الوصول إليه.

لكن حتى في الماضي كان على النساء أن يبتكرن البنى النفسية الداخلية كي يتمكنّ من البقاء داخل أطر الثقافة المهيمنة. لقد قام المجتمع بخلق مؤسسات للرجال تنتج إرشادات وقيماً نفسية أساسية لا تنطبق عملياً على النساء. فقد تمت تنشئة المرأة وهي تعلم أن الأهداف ذات القيم الأسمى لتطور الفرد لم تكن أهدافاً لها. ومع ذلك فإن المرأة تنمو وتتطور. لقد بنت شخصاً داخلياً مختلفاً عن الشخص الذي يحظى بالقيمة الأعلى في هذا المجتمع.

كان على المرأة دائماً أن تعثر على أساس للأهلية والجدارة مختلفين عن تلك التي تهبها الثقافة. لقد حققت ما يكفي من التحوّل الداخلي الإبداعي للقيم التي تتيح لها نفسها أن تعتقد أن الاهتمام بالناس والمشاركة في تطوير الآخرين يتصاعد إلى مستوى تقدير الذات: بهذا المعنى نرى أنه حتى المرأة التي تعيش وفق كل القوالب القديمة تحقق تقدماً على سلم قيم هذا المجتمع. هذا لا يعني أنها تلقى الاعتراف والجزاء لمنظومتها القيمية. فمن الواضح تماماً أنها لا تلقى ذلك بل تدفع إلى الاعتقاد بأنها ذات شأن بسيط - "أنا ربّة منزل وأم فقط".

لقد نجحت بعض النساء بخلق أدوار أخرى لأنفسهن كي يسهمن بتقدير الذات. لكن المرأة التي فعلت ذلك خرقت المنظومة المهيمنة للقيم والتي تقول أن المرأة غير جديرة. وهذا ينطوي، في الواقع، على أن من المؤكد أن ثمة خطأ

فيها لدرجة أنها تحتاج إلى بدائل. لكن أي امرأة تمضي أبعد من المهام المحدودة تكون قد خلقت مفهوماً داخلياً يقوم بتوجيهها.

وهذا ما يدعمها لكن ليس بشكل كامل. إن المفهوم الداخلي الذي تبدعه كل امرأة نادراً ما يكون مصدراً للإزعاج بشكل علني. ففي معظم الحالات لا يصرح بهذه المفاهيم أو يتم توضيحها بالكلام.

تكافح المرأة اليوم كي تمضي انطلاقاً من هذه النقطة في إبداع شخصية من نوع جديد بطريقة شاملة وواعية وأكثر جرأة. وقد أصبح واضحاً في السنوات الأخيرة أن على النساء أن يبدعن مفاهيم جديدة تعبّر عما يقصدن بأن تكون شخصاً إذا كان لهن أن يغيّرن الأعمال اليومية في حياتهن. فحين تقاوم النساء بجدية المحظورات والمطالب فإن عليهن أن يخلقن مفاهيم جديدة يعشن عليها. إن من اليسير جداً حفز النساء أكثر من غيرهن كي يصبحن خياليات ومغامرات.

حين تتغير المرأة تخلق تحديات قوية. ونقترح لذلك مثالاً واحداً فحين ترفض المرأة أن تسمح لنفسها بان تكون شيئاً سواء بأرخص شكل تجاري أو بأكثر العلاقات حميمية فأين، عندئذ، سيجد المجتمع أشياء يستخدمها؟ إذا لم يكن ثمة من يُستخدم فما الأنواع الثورية للتحولات الشخصية التي ستقوم بها الجماعة المهيمنة من أجل نفسها؟ ألن ينتهي ذلك إلى تحرير بعض الطاقات الكامنة عند الرجال؟

هذه بعض الاهتمامات التي كان على المرأة أن تتشبث بها في الماضي وغالباً بأشكال مخيفة من الوحدة والعزلة. أما الآن فقد بدأت النساء يتعاملن معها بأشكال تعاونيّة وأعداد كبيرة. إن الروح التعاونية والإبداع التي أعتقد

أنها موجودة لدى جميع الناس والتي كانت ضرورية لكل الحياة الإنسانية يتم الارتقاء بها الآن إلى مستوى أكثر وعياً وصراحة.

كانت المرأة في الماضي قد دفعت إلى الاعتقاد بأنها لا تملك شيئاً خاصاً تسهم به. وإذا تجاوزت المرأة المنطقة المحدّدة لها فإنها كانت تشعر أنها تندفع حتماً بشكل لانتزاع مصالح الرجال واهتماماتهم. ومن الواضح الآن أن ثمة مجالات واسعة يفشل فيها مجتمعنا المهيمن. وحين تتعرف النساء على نقاط القوة لديهن فإنهن سوف يطرحن اهتماماتهن الخاصة. وهن لا يستطعن التقدم نحو أطروحة جديدة وحسب بل يوضحن قضايا جديدة أساسية لكل الكائنات الإنسانية.

ماذا عن الرجال في كل هذا؟ أود أن أعود إلى بعض من كلمات فرويد في هذا الموضوع. هذه الكلمات التي يمكننا أن ننظر إليها الآن في ضوء مختلف. قال فرويد إن الشيء الجوهري الذي يكافح ضده الرجل هو التطابق مع المرأة. وهذا أمر على عالم النفس أن يتحدث عنه فوراً بالرغم من أنه ينطوي على رغبة في تحقيق ذلك التطابق. إنني أود أن أقول أن الرجال الذين يكافحونَ لا ضد التطابق مع الأنثى في الجوهر بمعنى مادي بل إنهم يكافحون فعلاً كي يستعيدوا جوانب من تجربتهم الخاصة عينها. هذه الجوانب هي الجوانب التي تخلوا عنها للمرأة. والرجال ـ كما أعتقد ـ سوف ينعمون براحة عظيمة في أن يكونوا قادرين أن يكاملوا ويعيدوا تكامل هذه الجوانب في أنفسهم. إنهم يرغبون في أن يستردوا، بلا خجل، خبرة التقلبات والصراعات التي تمثل المشاكل الحتمية للنمو والعيش مع كيان المرء الكامل في مجتمعنا غير الكامل. إنهم يرغبون باستعادة جوانب من أنفسهم تتميز بخصائص تخيف الرجال لأنها تحمل عنوان "الأنثى".

وبينما ترفض المرأة أن تكون حاملة لبعض المشاكل التي لم تحل في المجتمع الذي يقوده الذكور، وبينما تتابع المرأة حركتها كي تصبح نصيرة لبعض جوانب القدرات الإنسانية فإنني أعتقد أننا سنخلق مناخاً يواجه فيه الرجال تحدّي التشبث بقضاياهم وبنهجهم الخاص. سوف يكون الرجال في مواجهة واجبهم في التعامل مع خبراتهم الجسدية وخبراتهم الجنسيّة وخبرات الطفولة وشعورهم بالضعف والتعرض والعجز وغير ذلك من المجالات والمشكلات التي لا حل لها. لكن بوسع الرجال أيضاً أن يتابعوا توسيع خبراتهم وأكثر من ذلك اكتشاف قدراتهم الحقيقية الكامنة في التعاون والإبداع. وبما أن هذه الميادين لم تعد "تشغلها" النساء ولا تلقى تقديراً من مجتمع يقوده الرجال فإن الرجال سوف يجبرون على مواجهة الأساليب الاجتماعية التي لا تتعامل بدقة مع هذه القدرات سيكون لزاماً عليهم أن يجدّوا في البحث عن أساليب أحدث وأفضل.

لعل من المفيد أن ألخص ما سبق. أعتقد أن بوسع المرأة أن تثمن صفاتها النفسيّة بطريقة جديدة حين تدرك أصول ووظائف هذه الصفات. وفي ثنايا هذا الكتاب أركز على هذين الجانبين للقوة. وفي نهاية المطاف يمكننا أن نأمل بصوغها في نظرية أكمل لتطور المرأة. لكن حتى الآن يمكننا أن نعترف أن قوى المرأة النفسية لا يتم إدراكها على هذا النحو من قبل الجماعة المهيمنة.

إنني لا أعني ضمنياً أن على المرأة أن تعود إلى دور داعم بل العكس. فالمرأة تستطيع أن تمضي في توسيع رؤيتها ونشاطها بالبناء على قاعدة ذات شأن. وقد يبدو هذا كما لو أنني أزعم أن النساء أفضل من الرجال لأنهن عانين

أكثر، أو أن النساء يتحلين بالفضيلة أكثر إنني لا أناقش هذه القضية. ما أفعله حقاً هو أنني أبيّن أن المهيمن هو مجتمع يفتقر إلى الكمال بدرجة كبيرة. إنه ليس سوى منظمة بدائية ذات مستوى متدنٍّ مبني على مفهوم محدّد جدّاً للقدرات الإنسانية الكامنة برمتها. إنه يدعم أهدافاً ضيقة ومدمرة ويحاول أن ينكر ميادين واسعة من الحياة. إن الزيف والتأثير الكاملين لهذا المفهوم المحدود قد جرى التعتيم عليهما. ومما له دلالة أن المرأة قد أوضحت جانباً كبيراً ومركزياً من هذا التأثير. والسبب بدقة هو أن النساء هنّ من تلقى هذا التأثير.

إن بعض الميادين التي أنكرتها الجماعة المهيمنة أحيلت إلى الجماعات التابعة وأسقطت عليها. ولا أقصد بذلك النساء حصراً. ويذكر هذا بقصة كبش الفداء المعروفة. لكن الجوانب الأخرى من الخبرة الإنسانية هي على جانب من الأهمية التي لا يمكن قذفها بعيداً جداً. وينبغي على المرء أن يبقيها غير بعيدة حتى لو كان ما يزال قادراً أن ينكر امتلاكه لها. هذه هي الميادين التي أحيلت إلى النساء. وبناء على الخبرات الحميمية الأخرى إلى جانبها فإن النساء يشعرن بأن هذه المشاكل هي أكثر حدّة. لكنهن يتعرضن للإساءة إذا ذكرن ما لا يمكن ذكره لدى عرضهن بعض المشاكل الرئيسة. لقد وضع هذا المحظور النساء بعيداً عن الرؤية بأن لديهن رغبات وأساليب مختلفة في العيش أكثر من تلك الرغبات والوسائل التي تعترف بها الثقافة المهيمنة في النظرية والممارسة النفسية وفي الثقافة التي أتاحت نهوضاً للنظرية الحالية.

الفصل الخامس
تعمل خيراً وتعيش شعوراً سيئاً

تنصب محاولة هذا الكتاب، بشكل عام، على البحث عن فهم أكثر دقة لنفسيّة المرأة بوصفها نتاجاً لخبرة المرأة أكثر من كونها إدراكاً لدى أولئك الذين لا يمتلكون الخبرة. ولتحقيق ذلك طرحنا في الفصل السابق مرحلة ثالثة من التحليل النفسي أو فهماً يتعلق بالقوى أو العمليات العقلية أو العاطفية الناشئة بخاصةٍ في فجر الطفولة وبأثرها في السلوك والأوضاع العقلية. وفي هذا الفهم يتخذ التعاون والإبداع مكانهما الصحيح والكامل. وقد افترضنا أن هذه المرحلة الثالثة قد تصبح صريحة عبر جهود النساء والتأثير على أوضاعهن. إن الفرضية الأساسية هي أن المرحلتين السابقتين مرتبطان بأوضاع المرأة أيضاً لكن لم يحصل الاعتراف بهما أنهما كذلك.

بيد أن المهم أيضاً أن نخطو إلى الوراء ونكمل المسير؛ أي أن نطرح أولاً وباختصار عدداً قليلاً من الصفات القيمة التي تتجلى عند النساء. وبالرغم من أن هذه الطرق أو بعضها هي طرق مختصرة في مراحل التحليل النفسي - إذا جاز التعبير - فإنها ذات قيمة وأهمية في البحث عن مرحلة ثالثة. وهذا يعني البحث عن تقدم في فهم التحليل النفسي.

ثانياً : إن من الأهمية بمكان أن نصف التعقيدات التي تنطوي عليها العملية التي بوساطتها تحولت نقاط القوة لتبدو كأنها نقاط ضعف، وكيف أثر هذا وما يزال يؤثر على المرأة. أما القسم التالي من هذا الفصل فسوف يناقش - باختصار على الأقل - الإخفاق الأنثوي و"الشر الأنثوي".

العطاء

حين تكون المرأة تحت العلاج النفسي تمضي في كثير من الأحيان قدراً كبيراً من الوقت وهي تتحدث عن العطاء أكثر مما يمضيه الرجل في حديثه عن ذلك. وتواجه المرأة نفسها بشكل مستمر بأسئلة حول العطاء . هل أعطي ما يكفي؟ هل أستطيع أن أعطي ما يكفي؟ وغالباً ما يكون لديها محاولة عميقة للتعرّف عما يجب أن يعنيه هذا لها . وتشعر بالقلق إذا شعرت أنها ليست معطاءة . وتتساءل عما يمكن أن يحصل إذا كانت ستتوقف عن العطاء ؛ بل إذا فكرت بألا تعطي . إن الفكرة مخيفة والتفكير بالعواقب بالغ الرهبة لدرجة أن معظم النساء لا يتجرأ على البوح بهذا الاحتمال خارج الجلسة السريرية.

ومن جهة مقابلة يبدو أن السؤال عما إذا كان الرجل معطاءً أو يعطي ما يكفي لا يدخل في صورة الرجل عن نفسه. إن قلة قليلة من الرجال تشعر أن العطاء هو قضية أساسية في كفاحهم من أجل الهوية. إنهم مهتمون أكثر بكثير في "الفعل" هل أنا فاعل؟ هل صورتي تضاهي الصورة الملائمة التي حققها فلان؟ وفي حين ينشأ عن الأداء في العمل (الفعل) عطاء مالي للأسرة فإن هذا النوع من العطاء ينطوي على معانٍ مختلفة لأنه ليس جزءاً مكملاً لصورة الذات التي

يكافح الرجل من أجلها . والواقع أن الظهور بمظهر من يعطي الكثير هو إساءة للسمعة لأن الرجل في هذه الحالة يبدو ليّناً جداً أو مغفلاً قليلاً .

وهنا ، كما هو الحال في مجال الضعف أو الهشاشة ، أعتقد أن العديد من الرجال يتوقون بوضوح أن يعطي من نفسه . فضلاً عن ذلك فإنني أعرف عدداً من الشبان المراهقين ممن يمتلكون حنيناً يودون أن يعطوه إلى الآخرين لكنهم لا يستطيعون أن يجدوا طريقاً كي يفعلوا ذلك ، طريقاً تسهم بإحساسهم بهويتهم . فالعطاء عند الرجل هو بوضوح ترف إضافي يسمح به فقط بعد تحقيق متطلبات الرجولة .

هذا التوزيع غير المتسق للإمكانيات الإنسانية في العطاء يفضي إلى الكثير من التعقيدات . ومن الأمثلة المهمة على ذلك ما يحصل في ميدان الجنس . فبالرغم من أنه قد لا يعترف هذه الأيام بما يدعى الثورة الجنسيّة فإن الكثير من النساء الشابات ما يزال يشعر بشكل عميق أن المرأة تعطي الرجل شيئاً عبر علاقتها الجنسية معه . ثمة امرأة شابة تحدثت إليها اسمها نانسي كان لديها مثل هذا الشعور علماً بأن علاقتها الجنسيّة كانت عرضية . ومن جهةٍ أخرى كان أصدقاؤها يشعرون بأنهم نجحوا في "فعل" شيء ما أو أنهم "أخذوا" شيئاً منها .

إن هذه العلاقة الجنسيّة عند نانسي وغيرها من النساء الشابات والتي لها تفسيرات مقبولة لفترة طويلة من الزمن ووصْفها بأنها عطاء اتخذت عدة مظاهر معقدة . فتركيز نانسي على مظهر واحد من عوامل عديدة أسهم في التعميم على الإدراك التام لرغباتها الجنسيّة الخاصة بها ، وبالتالي التعامل مع هذه الرغبات . وكما نعلم فإن ثمة تطوراً تاريخياً طويلاً لذاك الموقف . وكذلك ما تزال المشاكل

التي تولدت عنها ماثلة أمامنا بقوة. والمسألة هي أن معظم النساء مازال عاجزاً عن الانخراط في العلاقات الجنسيّة دون الشعور بان المرأة "أساساً" تعطي الشخص الآخر. لكن أليس هذا صحيحاً؟ الحقيقة هي أن كل شخص في هذه العلاقة يعطي الآخر بالمعنى الجوهري البحت. ولا يمكن أن يكون الحال غير ذلك. هذه حقيقة ساطعة ذهب التفكير الذكوري بعيداً في التعتيم عليها.

من الممتع أن نلاحظ أن الأشكال الجديدة لعلاج المشكلات الجنسيّة تركز في الوقت ذاته على مسؤولية العطاء والأخذ من أجل متعة كل شخص بذاته. هذا يعني أن كل شخص امرأة كان أم رجلاً يجب أن يقر بدوره كمانح للمتعة وآخذ لها في آنٍ معاً. وتعزو السلطات الراهنة الكثير من الصعوبات الجنسيّة الذكورية إلى انهماك خاطئ التوجيه في الأداء أكثر من المتعة. هذا الانهماك غالباً ما حوّل الرجال عن تطوير كل من القدرة على السماح بتدفق المتعة على الإدراك بأن منح المتعة هو جزء أساس من الإرتواء الجنسي. ولسوء الحظ فإن العديد من النساء قد أصبح أسيراً للمفهوم الذكوري للجنس بوصفه أداءً.

ثمة عدد آخر كبير من الميادين التي يعزى فيها دور العطاء للمرأة وهو الأمر الذي يفضي إلى مشاكل جمّة. إن المرأة كزوجة وأم وابنة وعشيقة وعاملة غالباً ما تشعر أن الآخرين يطالبونها بالكثير، وأنها تستاء من ذلك. ومع ذلك فإنها لا تستطيع عادة أن تجيز لنفسها الإقرار بأنها تمقت هذا الإفراط في الضغوط. وقد توصلت إلى اعتقاد أن تجيز لنفسها الإقرار بأنها تمقت هذا الإفراط في الضغوط. وقد توصلت إلى اعتقاد مفاده أن عليها أن ترغب في الاستجابة طيلة الوقت وبكل الطرق. نتيجة لذلك لا تستطيع أن تسمح لنفسها

التردد صراحة في الاستجابة للمطالب أو حتى اتخاذ خطوات صغيرة للحد منها. إن التردد في الإقدام على ذلك أي في مقاومة السيطرة على حياتها بطرق عادية يمكن أن يفضي إلى تعقيدات نفسيّة عدة بل حتى إلى أعراض جسديّة. هذه الأعراض هي في غالبها طرق غير مباشرة في الكلام ضمن أشياء أخرى. "ليس بوسعي أن أعطي المزيد، لكنني لا أشعر أنه مسموح لي أن أتوقف".

فلورنيس Florence امرأة عانت من سلسلة متكررة من آلام البطن والحوض. ولم يكن لهذه الآلام سبب بدني. وبعد تقصٍّ طويل اكتشفت أن هذه النوبات كانت تحصل حين كان أطفالها يسرفون في طلباتهم منها. ومن ناحية أخرى لم يكن زوجها، بأي حال، من يتلقى طلباتهم. وفي المناسبات التي كانت توجه إليه الطلبات لم يكن يدركها أحياناً وإذا أدركها يرد بكلمة "لا". لم تكن حالة فلورينس حالة بسيطة بل كانت مخبأة في خلفية أمها التي بدت لها خلفية من عطاء لا ينضب. تقول فلورينس: "أمي لم تقل "لا" قط". هذه الخبرة المبكرة كانت حاسمة فيما يتصل بفكرة فلورنيس عما تعنيه كلمة امرأة.

من الواضح أن المرأة تحتاج أن تجيز لنفسها بأن تأخذ علناً كما تعطي. والنساء اليوم في وضع فريد يتيح لهن دمج الأخذ والعطاء بطريقة جديدة ومتبادلة. إن ثقافتنا حتى هذا الوقت قد منعت الرجل من الأخذ والعطاء بوصف الأخير ملمحاً رئيساً من صورة الذات عندهم. لكن بينما تسعى النساء إلى هذا الدمج فإنهن سوف يعملن ضد معارضة معقدة (بل سوف ينعتن بأنهن أنانيات).

من المهم أن نفهم أن الرجال في العلاقات التقليدية يعطون بطريقة مقيّدة لكائنات أقل هم النساء والأطفال. ومن النادر أن يعطي الرجل كلياً لمن يعتقد

أنهم "يساووه". أي إلى رجال آخرين بشكل مباشر. وإذا فعل فإنه قد ينعت بأنه مخلوق أدنى. ولكي يكون ذا شأن ـ بل حتى يكون آمناً ـ فإن عليه أن يكافح من أجل التسلط على من "يساويه" من الرجال. ولهذا فإن كلا الجنسين قد حرما من إمكانية التطور كبشر لديهم الخبرة في العطاء إلى الأنداد وإدراك أن مثل هذه الأنواع من العطاء ممكنة، ويمكن أن تصعد إلى أن تطور الجميع.

الفعاليّة ـ الانفعالية

ثمة قول بالٍ قديم يقول بأن الرجال فعالون والنساء منفعلات. يضاف إليه رأي علم النفس الحديث القائل بأنَّه من أجل ألا تضعف ذكورية الرجل فإنه ينبغي على النساء أن يكن منفعلات. كل هذا تسبب في قدر كبير من التشوش والمشاكل.

إن هيلين التي كان زوجها محامياً مدمناً على المخدرات، وذكرت في الفصل السابق، تقدم مثالاً واحداً عن الحالة التي يغض فيها الناس النظر، بما في ذلك النساء ذاتهن، عن فعالية المرأة. لم تكن هيلين ترى نفسها ذكية بشكل خاص. كانت تعتقد أن ليس ثمة شيء تستطيع إنجازه بالرغم من أنها كانت قد أدارت بجدارة أسرة من الطبقة المتوسطة، وأنفقت بسخاء على الترفيه لتنقذ مهنة زوجها قبل تدهور الأسرة. كما أنها كانت تهتم بالأطفال وتعمل لإقامة أنشطة تربوية وتطويرية ضرورية لمحامٍ يتسلق السلم الاجتماعي. ومن هذه الأنشطة دروس موسيقى ورقص ورياضة وتعليم خاص وما إلى ذلك. إضافة إلى هذا كانت تعمل بمثابة موظفة استقبال وأمينة سر لزوجها.

وحين أصبح جيم (زوجها) أكثر إدماناً وعاجزاً عن العمل بدأت تعنى بجانب كبير من عمله القانوني. على مدى شهور كانت تعالج عواقب المواعيد الفائتة وغير ذلك من الهفوات. وتعالج أعداداً كبيرة من شؤون الزبائن فكانت جبهة مثابرة له. وبرغم هذا كله ظلت هيلين تكرر القول بأن ليس ثمة أوراق رسمية عليها أن تعالجها بسرعة في السوق الاقتصادية. لكنها كانت ما تزال تعاني بشكل عميق من الاقتناع الداخلي بأنها "حقاً لم تستطع أن تفعل كل شيء".

لم تكن هيلين، بلغة المجتمع، مخطئة تماماً لأن المجتمع الذكوري بشكل عام يعرف أن الفعالية هو ما يقوم به الرجل. وإذا نجحت المرأة إلى حد ما بأن تفعل ما يفعله الرجل فإنها تواجه معارضة قوية وحتى عنيفة. مازلنا نشهد مقاومة حقيقية في أوساط علماء الطبيعة لوجود عالمات الطبيعة. وبالرغم من التغيرات الأخيرة فإن هذا النوع من رد الفعل قد يمنع النساء من أن يعلنّ للرجال صراحة أن بوسعهن أن يفعلن ما يفعل الرجال.

إن معظم ما قد يدعى عمل المرأة لا يلقى اعترافاً بأنه فعالية. ومن أسباب هذا الموقف أن هذا العمل مرتبط عادة بمساعدة الآخرين على التطور أكثر من كونه ارتقاء بالذات. وينظر إلى هذا العمل أنه ليس انجازاً. مرّة أخرى نرى كيف تؤثر إدراكات المرء على تعريفه لما يحصل وقدرته على أن يطلق عليه اسماً يوضح حقيقة ما يحصل. وكمثال على ذلك راث Ruth التي كانت تحاول مساعدة زوجها في أعراض مرضه المتصلة بعمله. فقد كان ينظر إلى كل ما قامت به في هذا الصدد أنه "لا شيء".

ليس ثمة مجال للقول بأن المرأة لم تتم ضمن مسعى مباشر وصريح لتحقيق أهدافها الشخصية. لهذا فإن ما تقوم به ليس فعالية وفق التعريف الذكوري، فضلاً عن ذلك فحين تسعى المرأة من أجل مصالح ذاتية فغنها تجسدُ صعوبة في أن تجيز لهذا النوع من الفعالية في أن يكون أساساً للشعور بقيمة الذات. إن إحساس المرأة بقيمتها لا يفترض أن يأتي من هذا الاتجاه. وعلى النقيض من ذلك فإن أي فعالية موجهة نحو هدف شخصي يمكن أن تصبح بسهولة مشحونة بالصراع، ويمكن أن تسهم في إضعاف صورة المرأة عن ذاتها. (هذه الفعالية ليست ما يفترض أن تستخدمه المرأة لتبني شعوراً بجدارتها). والحقيقة أن هذه الطريقة المركزية كانت قد حرمت المرأة بسببها وعلى نحو خطير. وهذا يعني أن المرأة لا تستطيع أن تستخدم فعاليتها الحياتية لبناء صورة لذاتها مبنيّة على التأمل الحقيق عن ماهيتها وعما تفعل.

ومن ناحية أخرى بنت المرأة تقليدياً إحساساً بقيمة الذات على فعاليات تستطيع أن تعرّفها بأنها رعاية الآخرين وإعطاؤهم. (إذا كانت قادرة أن تقنع نفسها أنها تقوم بعمل يمكن تعريفه بهذه الطريقة فإن بوسعها أن تنجز أشياء عظيمة. هذه الإرادة القوية والمحرّكة سوف تناقش بالتفصيل في الفصل القادم). إن هذا الوضع معقد لأن نزعة قيمة تنطلق من هذه الظروف التقليدية على علاقتها. فالمرأة يمكنها بسهولة أكثر من الرجل أن تؤمن بأن أي فعالية هي مقنعة أكثر حين تحصل في سياق علاقات مع الآخرين. كما تعرف النساء هذه الخبرة بطريقة لا يعرفها الرجال.

ما يزال ثمة الكثير مما ينبغي توضيحه عن نوعية فعالية المرأة. ومن الأمثلة على ذلك أن الكثير من الفعاليات التي تنجزها المرأة بشكل أفضل تعرّف بشكل خاطئ كما لو أنها انفعالية صرفة. والحقيقة أن كلمة "انفعالية" تستخدم حالياً لتغطي مجموعة متنوعة من ضروب السلوك والخبرات مختلفة تماماً حقاً. فالإصغاء إلى الآخرين لاستيعابهم، والتلقي والقبول من الآخرين ينظر إليها بمثابة أعمال انفعالية، ومع ذلك فإنها جميعاً تولد استجابة لأن المرء لا يتلقى بشكل انفعالي صرف أبداً بل لابد من رد فعل. ويمكن أن يأخذ رد الفعل أشكالاً عديدة. من الصحيح أن الرجل يشعر أنه تحت الضغط وهذا ما يجعله يختصر تلقيه كما يجعله يندفع إلى بيان ردود فعله الخاصة. وفي كثير من الأحيان يخفي أنه تلقى أو سمع الكثير مما كان الآخرون يوصلونه إليه. أما المرأة فإنها في كثير من الأحيان تسمع أكثر بكثير مما قيل علناً وتتفحص المعلومات بعملية أكثر تعقيداً. وكان من الأفضل للمرء ألا يرد مباشرة وبصدق على ما قيل أو جرى لجزء من هذه العملية لاسيما ذلك الجزء الذي يشمل المعرفة التي لا يتاح للرجال أن يلحظوها. هذا التحاشي في الرد المباشر قد أسيء تفسيره بوصفه برهاناً على الانفعالية المتأصلة.

التغيّر

إن جوهر الحياة برمتها هو النمو الذي يعني التغير. والسمة الإضافية الأهم التي تسم النمو الإنساني هو التغيّر النفسي. والأشخاص الذين يتناغمون بشكل أكبر مع النمو النفسي هم أولئك الذين يكونون على صلة وثيقة به. إنهم

أولئك المجبرون على الاستمرار في التغيّر إذا كان لهم أن يستجيبوا للمطالب المتغيرة لمن يعيشون في كنفهم. فلكي ينمو رضيع ومن ثم طفل لابد أن يكون ثمة شخص يستجيب له. وبينما يكبر الطفل فإن استجابات هذا الشخص لابد أن تتغير وفقاً لذلك. فما هو كافٍ اليوم لن يكون كافياً غداً لأن الطفل قد وصل إلى مكان مختلف. ويجب على المسؤول عن رعايته أن ينتقل من مكان إلى آخر أيضاً إذا كنت مسؤولاً عن رعاية طفل فينبغي أن تستمر في هذا المسلك.

هكذا تعيش المرأة تغيّراً مباشراً ومن يوم إلى يوم. في ضوء هذا، تصور النساء على أنهن تقليديات، هن الجنس الذي يؤيد الماضي في حين يمضي الرجال قدماً نحو "التقدم". ولعله يكمن هنا واحد من الأماكن الرئيسة حيث وقعنا في تشويه مريع للواقع لأن النساء هن الأقرب إلى التغير، التغيّر الحقيقي. لقد كنا دائماً الأقرب إلى الانخراط الحقيقي في أكثر أشكال النمو من الجميع.

أما فيما يتعلق بالكائنات الإنسانية فإن من الصحيح بالمطلق أن الحياة ليست بيولوجية وحسب: إنها نفسيّة وعقلية أيضاً. فالعقل يدفع نحو النمو باستمرار. لا يمكنه أن يبقى راكداً، ولا يستطيع فعلاً أن يتحرك إلى الخلف نحو مستوى أقدم من التنظيم. وبالرغم من أننا جميعاً ندرك هذا فإننا لم نأخذه بالاعتبار.

ما الذي تغيّر إذاً، أو ما الذي يقاوم التغير؟ من الواضح تماماً أن ثمة نزعة متأصلة لدى المجتمعات في أن تحافظ على نفسها، ولأولئك في المراكز المهمة والسلطة أن يؤمنوا بالثبات ويسعوا إليه. هذه بديهية. لم تكن قيادة المجتمع في وقت من الأوقات تعمل على التخلي عن مكانتها طوعاً أبداً. وحتى أكثر القيادات نزاهة لا تستطيع عادة أن تدرك أن من الصواب أن تفعل ذلك.

في مجتمعنا وفي معظم المجتمعات يتم تشجيع الرجال منذ نعومة أظفارهم أن يندمجوا ويوجهوا أهدافهم باستمرار نحو القيم الأعلى لمجتمعاتهم. وتلعب هذه التعاليم دوراً داخلياً وشاملاً في تكوينهم أكثر مما هو الحال عند النساء، وأكثر بكثير بالتناغم مع الأمر الواقع.

يتطلب التغيّر تعلماً. بيد أن الأسس التي تنطوي عليها عمليات تعلّم المرأة محجوبة وتمضي دون اعتراف من أحد لأن الثقافة السائدة تصف التعليم فقط بالتوافق مع مصالحها وفهمها. في ثقافتنا يتم إبداع التعريفات القيّمة في ميادين العلوم، هذه الميادين التي أزيلت تماماً من الحياة المباشرة للنمو والتغيّر. وقد طرحت أنيتا ميشلر Anita Mishler، وهي مربية لامعة، مثالاً يتعلق بهذا الفرق. فهي ترى أن معظم التعليم، كما يدرسه ويفهمه علماؤنا، هو نوع عام ورصيد من التعلّم. فالمرء يتعلّم كيف يعمل شيئاً ما أو يتعلّم كيف يعمل شيئاً ما، ومن ثمّ يمضي ليطبق ذلك بدقة كما يتعلمه أو أن يعمم المرء منه على مواقف أخرى. إن تنشئة الأطفال هي مثال لنوع التعليم المختلف جداً وكلّياً. فما تعلّمه المرء البارحة ليس صالحاً بما يكفي ولا ينطبق اليوم. ولا يأمل المرء أن يستخدمه هو بالضبط ولا حتى بالتناظر أو القياس لأن الموقف والوضع قد تغيّر للتو. لذا فإن ما تعمله النساء في كل طريقة لكل يوم ينطوي على ضرب جديد من التعلم. (من المهم أن نلاحظ أن هذا التعلم المعقد يحصل أيضاً لدى النساء اللواتي ليس لديهن أطفال. فالفتيات يطورنه عبر الطفولة، ويتابعن العملية بينما يكبرن).

إن وعي هذه الفكرة يفتح الأفق بطريقة جديدة في دراسة التعلّم. ويمكن أن تحصل هذه الدراسة حين نعير اهتماماً كافياً لما يجري في حياة النساء وهو

يختلف عما يجري عند الرجال. إنه يشير إلى حقيقة أن الواقع الذي يتغيّر والنمو هما جزءان حميمان من حياة المرأة بشكل لا نظير له عد الرجال. والأهم من كل ذلك أن هذا التعليم يمكن أن يحدث مفهوماً للتعلّم من أجل التغيير أكثر من الثبات، مفهوماً حاسماً للمجتمع لكنه يحصل استيعابه حتى الآن.

تحاول بعض المجتمعات لاسيما مجتمعنا أن يحرف الحاجة إلى التغيير عبر التسلية والتعاقب السريع للأزياء. كل هذه "البهلوانيات" لا تلبي الحاجة إلى النمو وتوسيع العقل. وبدلاً عن ذلك فإنها غالباً ما تشوشنا إلى درجة نغض عندها الطرف عن الإحباط المريع في تحقيق هذه الحاجة الحقيقية. إنها تخذلنا أكثر مما تحقق هدف التعلم.

بينما تلتفت النساء اليوم إلى قضية تطورهن وتحسن أحوالهن فإنهن يواجهن المجتمع بتغيّر حقيقي، تغيّر في جوهر وجود المجتمع والطريقة التي يعرّف كل شخص ذكراً كان أم أنثى نفسه. وتواجه النساء اليوم وضع خبراتهن الواسعة غير المعترف بها في التغيّر في مستوى أوسع وجديد من الفعالية. فالنساء هن الأشخاص الذين يملكون الحاجة والدافع للقيام بتغييرات في أنماط عيشهن. وبما أنهن يبادرن إلى التغييرات الضرورية لتلبية حاجاتهن فسوف يبدعن الحوافز من أجل فحص شامل للمجتمع برمته.

الشر الأنثوي وإحساس المرأة بالإخفاق

قمنا حتى الآن بإدراج بعض الصفات النسوية التي ينبغي أن تحسب عناصر قوّة فقط وقبل أن نحاول دمج هذه الصفات في صورة أكثر تنظيماً فإن

من المهم أن نتبع الأسباب التي تؤدي إلى أن تصبح هذه الصفات مشوشة وغامضة. باختصار من الضروري أن نطرح السؤال التالي: إذا كانت كل هذه الصفات جيدة فلماذا تعيش النساء شعوراً سيئاً؟ كما ارتأينا من قبل تواجه النساء الرجال دائماً بمشاكل الرجال التي لم تجد حلولاً بعد أن تتحدى النساء الرجال فيما يتعلق بقوة الرجل الكامنة غير الفاعلة. إذا خطت النساء خطوة وراء القوة المحدّدة لهن فلا يستطعن أن يساعدن الرجال بل يواجهنهم ويتحدينهم. لكن حتى في دورهن التقليدي فإن النساء بفضل مجرد وجودهن يواجهن الرجال ويتحدينهم لأن الرجال أصبحوا تجسيداً لمشاكل الثقافة السائدة التي لم تجد حلولاً.

هذه المواجهة والتحدّي يمكن أن يكونا الآن تعلّماً مستمراً ينمي الصدام عند الطرفين، لكن في وقت تم فيه نشوء حالة أصبح من الصعب فيها أكثر تحقيق إمكانية التعلّم. وبما أن على النساء أن يعشن عبر محاولتهن إرضاء الرجال فقد تم تكييفهن لمنع الرجال من الإحساس بأنهم غير مرتاحين، أضف إلى ذلك أنه حين ترتاب النساء بأنهن سبب تعاسة الرجال أو غضبهم يتولد لديهن شعور بأنهن كنّ على خطأ.

إن التسبب في الإزعاج أو الاستياء هو مشكلة إذا كان لدى المرء قناعة بأن لديه سبباً وجيهاً لفعل ذلك أو إذا كان بوسعه أن يدرك الحق في فعل ذلك. ومن الجوهري أكثر أن يكون المرء مستعداً نفسيّاً بأن يجازف بالتسبب في الإزعاج إذا كان لديه تصور وفهم للحوادث دون أن يكون لديه دائماً يقين مطلق حولها. لكن حين تستطيع أن تفكر فقط في حالة لا تأبه لخبراتنا الذاتية

وحسب بل تنكر وتحط من قدر هذه الخبرات فإننا نبقى بلا سبيل لفهم حياتنا واستيعابها. في ظل هذه الظروف تترك المرأة غالباً بإحساس عام وغامض بأنها على خطأ. وكمثال على ذلك فإن راث Ruth التي كان زوجها يبدأ عملاً كانت تعيش هذه الحالة.

تعتّم كل هذه الآليات وغيرها على الوضع الحقيقي من عدم المساواة الذي يصيب المرأة. إن كلمة و"غيرها" تنبع من حقيقة أنه ليس ثمة شخص يختبر حقاً هذا الإلغاء والإنكار لخبرته دون أن يكون لديه رد فعل متزامن. ويتألم المرء بل أسوأ من ذلك يشعر بالتهديد، بإلغاء كيانه برمته. كذلك يغضب المرء لكن لا يجد من مكانٍ يتجه إليه بهذا الغضب، ولا يجد من يفهمه. ويضيف الغضب المزيد من الإحساس لدى الشخص بأنه كان على خطأ. وهنا يبني المرء مخزوناً من عواطف الغضب السلبية حين يشعر أنه ليس على خطأ وحسب بل يعيش شعوراً مخيفاً أكثر، شعوراً سيئاً وشريراً.

لقد بنت الثقافة الذكورية أساطير ضخمة ومدهشة حول فكرة الشر الأنثوي - حوّاء، صندوق بندورا[1] وما شابه. كل هذه الأساطير تبدو مرتبطة بوضوح بمشاكل الرجل التي لم تحل. إنها الأشياء التي يخشون أن يعثروا عليها إذا فتح صندوق بندورا. وفي الوقت نفسه تهيأت النساء لأن يقفن باستعداد

---

1 Panadora Box:
في الأسطورة أن زيوس أرسل امرأة عقاباً للجنس البشري بعد سرقة بروميثوس للنار أعطاها علبة ما إن فتحتها بدافع الفضول حتى انطلقت منها جميع الشرور والرزايا فعمت البشر و لم يبق فيها غير الأمل. (المورد: منير بعلبكي).

وبرغبة لقبول كل ذلك الشر. وهكذا تقع النساء، بلا قوّة حقيقية، في حالة تؤدي بهن إلى العمل باتجاه الإخفاق. إنهن لا يشعرن بأنهن يخفقن وحسب بل يعتقدن أن الإخفاق يؤكد الشر عندهن بشكل أكبر. (في مجتمعنا، على وجه الخصوص، نميل إلى الفكرة القائلة بأن النجاح يؤكد الخير).

من المرجح أن النساء أنفسهن يشعرن بقوّة أكبر بتأثيرات مشاكل مجتمعنا الأكثر عمقاً. وكمقاربة منطقية أكبر تميل ثقافتنا إلى "تشييء" الناس. وهذا يعني أنها تعامل معظم الناس كما لو أنهم أشياء. إنها تعامل النساء بالإجمال تقريباً بهذه الطريقة. إن التعامل مع الإنسان كشيء قد يفضي إلى إحساس داخلي بأنه لابد أنّ ثمة شيئاً خطأً وسيئاً في ذاته. فالعمال على خط تجميع الآلات يشعرون بهذا الانتقاص من إنسانيتهم. وقد أصبح الطلاب على هذا الوضع في العقود الماضية. وتشعر النساء الشعور نفسه ليس فقط لأن التشييء واسع الانتشار في المجتمع المهيمن بل كذلك لأنه سارٍ في معظم العلاقات التي تدعى حميمية. إن معاملة المرء أنه شيء تعني أن ثمة تهديداً بالإلغاء النفسي. إنها تجربة مرعبة حقاً. وقد استخدم عدد من الكتاب الدور الذي يلعبه ذلك في الاضطرابات النفسية الحادة (مثلاً R. D. Laing)، لكن معظمهم لم يبرز النقطة بأن هذا العامل هو عامل جوهري في العلاقة المركزية الأكبر. إنها بوتقة العلاقات جميعاً. أقصد علاقة المرأة ـ الرجل. إنني أشدّد عليها هنا بسبب الجزء الذي يمكن أن تسهم فيه باعتقاد المرأة أنه لابد من وجود شيء سيء وشرير جدّاً في هذه العلاقة. ولابد أن يكون ذلك صحيحاً لأن الآخرين، الآخرين المهيمنين يبدون وكأنهم يعتقدون أن المرأة تستحق أن

تعامل كشيء. فالتشييء يضيف سبباً عميقاً وشاملاً إلى استعداد المرأة كي تقبل بالشر المنسوب إليها.

أحد مظاهر التشييء هو الخبرة التي تجعل المرء شيئاً جنسيّاً. وهذه بوجه خاص خبرة مدمرة. لقد وصفت العديد من الكاتبات أعماق شعورهن بالإذلال في هذه الحالة. وكذلك عبّرن عن حقيقة أنهن دفعن إلى الشعور بالإثم والخطأ في النهاية. وهنا سوف نؤكد فقط على وجه واحد وهو أنه حين يكون المرء شيئاً لا ذاتاً فإن كل النبضات والاهتمامات الجنسيّة والنفسيّة يفترض ألا تكون موجودة. وهي تستحضر إلى الوجود فقط من قبل الآخرين ولأجلهم. هم يسيطرون عليها ويستخدمونها. أن أي مثيرات لجسد الفتاة أو المرأة لإثارة الرغبة الجنسيّة عندها سوف تؤكد لها فقط حالتها الشريرة. هذا مثال واحد صارخ ومأساوي جدّاً عن الكيفية التي تستخدم بها اللامساواة بعض المزايا الرائعة عند المرأة بهدف استبعادها وخذلانها. (ومن ثم يصاغ مصطلح مثل الماسوشية المتأصلة).

الفصل السادس
تلبية حاجات الآخرين

العمل من أجل الآخرين

تعدّ خدمة الآخرين "في ثقافتنا جزءاً من عمل الخاسرين. إنها شيء ذو منزلة دنيا. ومع ذلك فإن خدمة الآخرين هي مبدأ أساس تنتظم حوله حياة المرأة. إن ذلك لأمر بعيد جدّاً عما هو عند الرجال. والواقع أن ثمة معلومات في علم النفس التحليلي ترى أن حياة الرجل تنتظم نفسياً ضد هذا المبدأ. وهذا يعني أن ثمة قوّة فعالة في العمل تجبر الرجل أن ينأى بنفسه عن هذا الهدف.

عنصر التكامل

من الواضح أن على الناس أن يساعد بعضهم بعضاً في حاجاتهم ما دام لدى الناس حاجات. فمن ذا الذي يساعدهم إن لم يساعدهم الآخرون؟

إن تنظيم حياة الفرد حول خدمة الآخرين هو عامل مركزي فيما يتعلق بالنساء لأن معظم الموضوعات التي نوقشت تنطوي على علاقة وثيقة بهذا الموضوع العام. والواقع أن بالإمكان رؤيته بوصفه موضوعاً طاغياً. وفي النهاية قد يكون بوسعنا أن نورده كصيغة أدق وذات فعالة أكبر. إن من الأهمية

البالغة الآن أن نشدّد على أن المرأة قد دُفعت لأن تشعر أن بوسعها أن توجد وتستخدم كل صفاتها حين تستخدمها من أجل الآخرين، لكن ليس من أجل نفسها. وقد طورت المرأة شعوراً بأن حياتها يجب أن تسترشد بالحاجة المستمرة إلى أن تتناغم ذاتها مع رغبات الآخرين وحاجاتهم. فالآخرون هم المهمون والمرشدون إلى العمل الصائب.

بالرغم من أن الرجال يتأثرون بأحكام الآخرين ويتجلى تأثرهم هذا بأشكال مختلفة فإن ثمة فرقاً رئيساً بين هذه التأثيرات وتلك التي تحصل عند النساء. صحيح أن الرجال يقيّمون أنفسهم انطلاقاً من حسن أدائهم لبلوغ متطلبات ثقافتهم، لكن الأمر ليس كذلك عند النساء.

هذا الاختلاف مرتبط بشكل وثيق بنظرية التحليل النفسي لتطور الأنا. والواقع أن الأنا، "أنا" التحليل النفسي قد لا تكون في حالة ملائمة عند الحديث عن المرأة. فللمرأة مبادئ تنظيمية مختلفة تبني نفسيتها حولها. أحد هذه المبادئ هو أنها وجدت لتلبية حاجات الآخرين. إن الجوهر الأساس للفرق بين هذا المبدأ التنظيمي والتصوير التقليدي للأنا سوف نلحظه هنا ونعود إليه لاحقاً.

كما في القضايا التي ناقشناها حتى الآن يتجلى لخبرة المرأة في خدمة الآخرين جانبان، وكل جانب له بدوره تعقيداته. يتم تعليم المرأة أن هدفها الرئيس في الحياة هو أن تخدم الآخرين - أولاً الرجال ولاحقاً الأطفال. وتؤدي هذه الوصفة إلى مشاكل هائلة لأن من المفترض أن تنفذ كما لو أن المرأة ليس لديها حاجات خاصة بها، كما لو أن المرء قادر أن يخدم الآخرين دون أن يلتفت إلى مصالحه ورغباته. وبتنفيذ ذلك "بتمامه" نحصل على الأم أو الزوجة

المختنقة. لكن في هذا أيضاً سبيل فريد للتطور والتقدم. فلدى المرأة فعلاً مزيد من القدرة الهائلة كي تنجز حاجات الآخرين وكي تفعل ذلك بسهولة ويسر. أقصد بهذا أن المرأة تتكيف بشكل أفضل من الرجل لإدراك حاجات الآخرين أولاً ومن ثم أن تؤمن أن بإمكانها خدمة حاجات الآخرين. وهذا يعني أن بوسعها أن تستجيب لحاجات الآخرين دون أن تشعر أن في هذا انتقاصاً لإحساسها بالهوية. ولا تحصل المشكلة إلاّ حين تجبر المراة على خدمة الآخرين، أو حين يتوقع منها أن تفعل ذلك لأنه "هو الشيء الوحيد الذي تصلح له النساء". فضلاً عن ذلك فإن ثمة القليل جداً من الفرص للتطور الذاتي بينما تظل خدمات الآخرين قائمة حتى أمد طويل. والواقع أنه ليس ثمة أشكال اجتماعية يمكن فيها وضع هذا المزيج تحقيق الذات وخدمة الآخرين - موضع الفعل. ولو كانت أشكال من هذا القبيل متوفرة فإنني أعتقد أنه كان بوسع المرأة أن تقتحمها دون حدوث ذلك النوع من الصراع الذي يواجهه الرجل. فالمشكلة أن هذه الأشكال غير موجودة. إن أفق دمج تطور الذات مع خدمة الآخرين يبدو طرحاً معقداً ومستحيلاً. لكن هذا التعقيد ليس كبيراً عند النساء. إن الإمكانية أن تستعد المرأة لذلك أيسر بكثير من التفكير بما تسمح به الفئة المسيطرة.

كان هذا هو العامل الذي أثر على ماري، المرأة التي ناقشنا وضعها في الفصل الرابع والتي كانت قلقة من قبولها وظيفة ذات متطلبات كبيرة. لقد رأت نفسها مثل شخص أراد أن يخدم حاجات الآخرين وقد أحرز رضاً من عمله هذا. هذه القدرات كانت أحد مصادر أدائها الرائع في عملها إضافة إلى كونه

عنصراً ضرورياً لإحساسها الداخلي بجدارتها. إن الوظيفة الجديدة سوف تجعل من الأصعب عليها أن تتابع ممارسة هذه القوّة في كل من عملها نفسه وفي علاقاتها الشخصية الوثيقة. هذه المحدودية تزيد صراعها. فإذا أعيد ترتيب جدول أعمالها في الوظيفة بحيث يترك حيّزاً كي تتابع خدمة أسرتها بالطريقة التي ألفتها فسوف تعاني من صراع أقل بكثير. إن بوسع المرء أن يعثر على طرق يعيد بوساطتها ترتيب العمل الوظيفي والمنزلي سواءً كان رجلاً أم امرأة. وللقيام بذلك عملياً يتطلب الأمر تغييراً رئيساً في مؤسساتنا وأماكن عملنا. ومن الناحية الأخرى لا تدخل هذه الاعتبارات في تقديرات تشارلز حين يتعلق الأمر بوظيفته الجديدة. بدلاً من ذلك كانت زوجته تؤدي هذه الخدمة له ضمن محاولاتها الواعية لتخفيف الأعراض التي كانت تبدو عليه.

إن القول بأن المرأة تؤمن بأن من واجبها أن تخدم الآخرين قد يبدو ملاحظة مبتذلة. والواقع أن هذا الدور، ضمن الترتيبات الاجتماعية كما هي عليه، قد مضى عميقاً وخلق عدداً من التعقيدات النفسية. ولسوء الحظ إنها لملاحظة مبتذلة وعاديّة عند جماعة علم النفس لأن الكثير من الناس يغفلون أهميتها الساحقة بوصفها عاملاً في خلق المشاكل للنساء يحصل هذا حين يقبله الطبيب بوصفه "مجرد جزء من ستارة المسرح الخلفية" دون أن يعي أن العديد من النساء لا يستطعن التساهل أو السماح لأنفسهن بالشعور أن الفعاليات في حياتهن هي لهن أنفسهن. هذه الحالة بحد ذاتها تسير بعكس الرؤى العصرية المتعلقة بأصول "الصحة" النفسيّة، هذه الرؤى تفترض مصلحة ذاتية مستنيرة. لكن هذا التناقض الواضح لا يلحظ عادة، والواقع أن الحالة أكثر تعقيداً من ذلك.

بادئ ذي بدء ثمة سبب واحد يمكن أن يجعل الأطباء يغفلون الأهمية الواضحة لهذا العامل وهو أنهم قد يعتقدون أنهم يتوصلون إلى حقيقة مفادها أن المرأة تخدم نفسها عبر خدمتها للآخرين. قد يشددون على محاولات كي يكتشفوا عما تبحث المرأة مثلها مثل غيرها ذات دوافع تنطلق من ينابيع كينونتها التي لا تنضب. بذلك المعنى نحن جميعاً نتصرف ونؤثر في الجوهر على ما يحركنا كأفراد. لكن من الصحيح أيضاً أن المرأة تشعر أنها مكرهة على أن تعثر على طريقة كي تترجم دوافعها إلى وسيلة لخدمة الآخرين وتعمل لذلك طيلة حياتها. فإذا كان بوسعها أن تجد طرقاً للقيام بهذا فغالباً ما تكون مرتاحة وراضية. ونتيجة لذلك تخدم الآخرين. هذه الترجمة للدافعية تحقق التكامل الذي يكون مغايراً بشكل له دلالة للتكامل الذي يشجعه المجتمع عند الرجال. والواقع أن مجتمعنا يثبط بشكل خاص، الرجال حتى من الإقدام على أي شيء من هذا القبيل.

قد توضح تجربة امرأة ما كيف يحصل هذا التكامل. كانت آن Ann فنانة جديرة وماهرة. كان لفنها الأولوية المطلقة في حياتها. وكانت غارقة فيه عميقاً. كانت متزوجة ولديها طفلان وكانت تحب زوجها وأطفالها. بيد أنها بدأت تشعر أن عليها أن ترسم فقط بعد أن فعلت كل شيء ممكن لتلبي حاجات زوجها وأطفالها. ونتيجة لذلك بدأت ترسم أقل فأقل لأن حياتها أصبحت بشكل متزايد منظمة حول أسرتها. وفي الوقت الذي كانت ما تزال تستمد الرضا حين كانت ترسم فقد كان يتملكها شعور بأن ذلك نشاط "أناني" أي إطلاق لعنان الرغبات.

مات زوجها في سن مبكرة. كانت محطمة. لم تكن تعاني من فقدانه وحسب بل كذلك من الشعور بأن هدفها في الحياة قد ولّى. وكان الدافع الوحيد الذي جعلها تؤمن "بالاستمرار" هو اهتمامها بأطفالها والحاجة القصوى لإعانتهم من الناحية المادية وغيرها. اكتشفت أن الطريقة المثلى لكسب عيشها كانت بالرسم وتدريس الفن. وكان بوسعها الآن أن تعمل بتركيز عميق. كان عليها أن تقوم بذلك من أجل أطفالها. وبالرغم من أنه كان عليها أن تحقق توازناً بين الإخلاص والاهتمام المكرسين لهم مباشرة وكذلك لعملها فقد أجازت لنفسها كلتا المهمتين. ولم تعد تشعر في أن إشباع حاجتها إلى الفن ضرب من الأنانية. وفي نهاية المطاف بدأت تشعر بإحساس يسري في ذاتها أكبر مما شعرت به من قبل. شعرت بأنها لم تمتلك الحق في أن تكرس نفسها لشيء "لي وحدي فقط"، فكل ساعة كانت تعطيها لعملها كانت توضع على محك صارم، يحدّد ما إذا كانت هذه الساعة تستخدم لتحقيق شيء لذاتها أو لأولادها. ومما لاشك فيه أن ثمة شيئاً كان ينبغي عليها عمله ليجعل حياتهم أفضل وأبهى.

رحيل الزوجة المتفوقة

في الوقت الذي لم يكن سهلاً على آن Ann أن تتحلل من الكوابح الداخلية التي كانت تشعر بها كانت هذه الكوابح أيسر فهماً من التعقيدات التي قد تجعل الحاجة إلى معالجتها تقدّم أمثلة أخرى عديدة. لقد كانت آن Ann محظوظة جداً بمعرفتها على الأقل بحاجتها ورغباتها المهمة.

ثمة الكثير من الحاجات النفسية التي يصعب استيعابها وتحديدها. ولابد للمرء أن يقتنص الفرصة لإجراء بحث في هذا المجال عبر تفاعل مع العالم ومن فيه من البشر. وحين لا تلقى النساء تشجيعاً على أخذ المهمة على عاتقهن، وحين يثبطن من عمل ذلك، فسوف يواجهن صعوبة أكبر بكثير من التعرف على حاجاتهن ورغباتهن.

ومع ذلك فثمة طريقة تبدو أيسر للنساء في هذا المجال. إن بوسع المرء أن يغير وجهته كلياً تقريباً عن التقصي الصعب لحاجاته الخاصة ويركز على خدمات الآخرين. لكن حين يحصل هذا فغالباً ما يظهر اعتقاد لدى النساء ولا يعلن لفظياً بأن حاجاتهن الذاتية، حتى وإن لم تفحص وتختبر وتعلن، سوف تتحقق بدورها بشكل من الأشكال.

ولتركيب الحالة تبدأ بعض النساء بالاعتقاد بأن الآخرين سوف يحبونهن (ويصبحون مخلصين لهن بشكل دائم) لأنهن يخدمن هؤلاء الآخرين كثيراً وعلى خير ما يرام. المأساة هنا هي أن الناس عادة لا يحبون الآخرين لهذا السبب. قد يصبحون معتمدين على خدماتهم لكن هذا مختلف عن الاهتمام والحب الحقيقيين. الواقع إذا أصبح الرجال والأطفال بالغي الاعتماد فقد يصلون إلى نقطة يشعرون فيها أنهم أسرى اتكاليتهم. ويتشكل لديهم كره للشخص الذي يعنى بهم بشكل حسن. (هذا أحد الأسباب التي تجعل بعض الرجال يتخلون عن زوجاتهم المتفوقات، وكذلك ينقلب بعض الأبناء بقوة على الأمهات المتفوقات). إذا شعرت المرأة أنها ليست موضع حب فإن هذا يعزز اعتقادها بأن الآخرين مهتمون بها فقط بسبب الخدمات التي توفرها. لهذا

تفقد المرأة الإحساس بأن الآخرين مهتمون بها لأنها من هي. ومع أن هذا الشعور مزعج جداً فإن نساء كثيرات يشعرن أن عليهن أن يتابعن ذلك خاصة بعد أن يكون قد مضى على زواجهن بعض الوقت.

البدائل التي تمتلكها النساء هنا

قد تلقي تجربة امرأة أخرى الضوء على بعض العوامل الأخرى. إيديث Edith استطاعت أن تبلغ نموذج "الأنثى الكاملة". كانت قد تعلمت من أمها كيف تكسب الرجل وتسعده.

لم تتعلم كيف تسعد نفسها سوى أن تعثر على رجل جذاب ذي آفاق جيدة. ولكونها جميلة ومحبوبة تزوجت أخيراً بيرت Bert، وهو الشخص الواعد أكثر من بين من طلبوا يدها. وأصبحت الأم المتفوقة والمرأة المتفوقة. وبدأت، بشكل متزايد، تعلق أملها على الإيمان بأن في وسعها أن تربط كل اسرتها بها ليس لأنهم يحبونها فعلاً ويريدونها لذاتها لكنهم قطعاً يحتاجونها. لقد عملت الكثير من أجلهم وجعلت الحياة مريحة لهم، فكيف لهم ألا يحبونها؟ ولفترة طويلة كانت تفاخر بوضعها الذي آلت إليه بحيث لم يعد لأي منهم غنى عنها. وأضحى هذا تقريباً المصدر الوحيد لإحساسها بهويتها.

بعد بضع سنوات بدأت تعاني من غضب وقلق واكتئاب مبهم. وكان من الصاعق أنها لم تدرك سبباً لذلك، بل بدأت تعيش شعوراً طاغياً بأن عليها أن تبتعد عن بيتها المريح. فعلت ذلك. وجدت عملاً بأجر زهيد جداً بل إنها اضطرت أن تغادر بلدتها لتحصل على تلك الوظيفة. كانت الشقة التي استطاعت أن تستأجرها رخيصة ومزرية. في ذلك الوقت فعلت ذلك فقط

انطلاقاً من إحساسها بشيء من اليأس، وإحساس بأن "عليها" أن تفعل ذلك دون أن تعلم السبب قطعاً.

لم يفهم أحد سلوكها الغريب. ومع الوقت، وبينما كانت تبني حياتها الخاصة بها، حياة بائسة بدأت تكتشف أنها كانت قد عانت من استياء متصاعد ضد حالة العبودية التي عاشتها.

وعلى نحو تدريجي تراكم لديها شعور أن لا أحد كان يعلم أو يبالي بها. وبدأت تكره أولئك الذين جعلوها تصل إلى هذه الحالة. لم تكن قادرة أن تدرك كنه هذا الاستياء أو تعثر على أسس له. هذا العجز عن إيجاد مفهوم أو صيغة تعبر فيها عن مشاعرها كان المصيدة الكبيرة. كانت الآن ترى أنها كانت تعتقد أن قيمتها الوحيدة في الحياة تكمن في خدمة الآخرين. كانت بحاجة ماسة إلى إحساس ما بأنها كانت شخصاً له الحق في أن يكون ذا كيان. كما كانت بحاجة أيضاً إلى أن تثق بأن الناس لا يهتمون بها بوصفها ذلك الشخص. كانت هذه الحاجات ضاغطة بحيث وصلت إلى الرغبة بأن تجازف بعلاقاتها القديمة.

يكمن تشخيص حالة إيريث بسهولة بوصفها شاذة، وتسعى إلى تدمير ذاتها. تركت منزلاً كانت "تملك كل شيء فيه" لتنتقل إلى حالة لا تملك فيها شيئاً. كما يمكن القول أن بالإمكان وصفها بأنها امرأة غاضبة ـ أجل كانت كذلك لأنها عاشت ما مضى من حياتها برمته تحت توجيه حاجات الآخرين. كما أن بالإمكان وصفها بأنها كانت "اتكالية بشكل مفرط". كان بالإمكان إقناعها بسهولة أنها كانت تعاني من مزاوجة بين الغضب المفرط والاتكالية

المفرطة. وكان عليها أن تحاول التغلب عليهما، وتعود إلى المزايا التي كانت تتمتع بها. كان يمكن لهذا النهج أن يستبعد جوهر مشكلتها.

ثمة الكثير من النساء اللواتي لم يسرن على نهج إيديث. ففي حالات مشابهة أصبحن أكثر اكتئاباً أو ظهرت لديهن أعراض نفسية أو جسدية. ولعل منهن من وقع لما يدعى الإكتئابات الارتدادية. ويرجح أن هذه تحصل بشكل خاص حين يبدي الأطفال أنهم لم يعودوا بحاجة إلى أم نظراً لنموهم وتطورهم. وتتميز النساء في هذه الحالات من الاكتئاب بقدر كبير من الغضب أيضاً بالرغم من أنهن عادة ما يجدن أن من المستحيل الاعتراف لأنفسهن بذلك. كيف يمكن للمرء أن يفهم غضباً كهذا في الوقت الذي يستمر فيه الأطفال بعمل ما يفترض أن يعملوه؟

حين حصلت الأمور لدى إيديث كان زوجها مهتماً بكل ذلك وبصدق. لقد بحث عن زوجته وحاول أن يفهمها ويستجيب لها. وبعد لأيٍ كان بوسعه أن يقنعها بأنه يريدها ويحبها في الوضع الذي آلت إليه والذي كانت مختلفة عما كانت عليه.

لم تتطور علاقتهما الجديدة بسرعة ويسر فقد بقي الكثير من سوء الإدراك والفهم يحول دون ذلك. أخيراً مضيا معاً لكن على أسس مختلفة جداً. فقد انتقل بيرت إلى المدينة التي تعيش فيها إيديث، وغير نمط عمله وحياته الاجتماعية. كان ثمة عدد من العوامل التي ساعدت في أن تجعل هذا التغيير ممكناً. كان بوسع بيرت أن ينطلق، على الأقل، في عملية يحاول فيها أن يتفهم حادثة كان فيما مضى يواجهها برد فعل عنيف جداً. كما كان في هذا الوقت

قد "وطن نفسه" للوضع الجديد، وكان قادراً إلى حد ما أن يقلل سعيه إلى الشهرة والثورة. وهذا ما كان قد استولى على عقله طيلة سنوات الزواج بالرغم من أنه كان يشعر إلى حد ما أنه كان ما يزال "يضحي" ببعض طموحاته.

بداية التغيير

جودي Judy امرأة أخرى كانت لها استجابات بطريقة عصرية مختلفة تستجيب فهيا لحالة مشابهة. كانت أصغر من إيديث وأكثر وعياً لحاجاتها الخاصة منذ البداية. كانت تريد أن تشارك مشاركة تامة في تطور أطفالها. لكنها كانت تريد أن تشعر أن زوجها يسهم بقدرٍ مساوٍ في اهتمامها وإخلاصها. أي أن يكون مهتماً بها وبهم كما تهتم هي به. إضافة إلى ذلك كانت تريد أن تطور اهتماماتها الخاصة. لقد كانت على صلة وثيقة ومستمرة بحاجتها إلى أن تبني إحساساً بنفسها يستند على دوافعها وقدراتها، وليس على دوافع زوجها وقدراته. كانت تدرك أنها في مراهقتها كانت تجد كل شخص وكل شيء يشجعها على إقامة علاقة مع رجل وعلى الزواج أيضاً. في الجو الحالي كانت أقدر بكثير أن تناقش بعضاً من خبراتها الزوجية مما تفعل إيديث. وهذا ما كان يخلصها من الضرورة في أن تتصرف بعمى عما يحصل ويمنعها من الشعور بأن "لدي شيئاً خطأ" لكن كان هذا ما يزال دون المطلوب.

كان زوجها ويل Will العامل الماهر، يتفهم عقلياً جانباً من حالتها. إنه يدرك ويعترف أن القيود المفروضة عليها لم تكن عادلة. ويقول أنها لو كانت في مجتمع أكثر عدلاً لنالت أجراً مساوياً مقابل عمل مماثل. (كان بوسعه أن

يضيف أيضاً أنها ربما تلقى في يوم ما تشجيعاً مساوياً). لكن في غضون ذلك لا يمكنه أن يتخلى عن موطئ قدم اكتسبه في العمل أو أي من الأجور التي يتلقاها كي يسهم في مسؤولية الأطفال. فما يمكن أن يخسره من أجر عند هذه النقطة هو أكبر من المقدار الذي يمكن أن تكسبه زوجته جودي. علاوة على ذلك لا يمكنه حتى التفكير بالتغير الذي قد تحدثه التغييرات في ترتيبات عمله فيما يتعلق بصورته هو عن نفسه أو موقفه من "الزملاء في المعمل". ليس ثمة شك في إخلاصه لجودي وأطفاله. لكن لابد أن يكون هذا الإخلاص حصراً بعد "ساعات العمل" وليس شيئاً تحدّده عزيمته في حياته اليومية. ومع ذلك فإن التفكير بفقدانه لهم يملؤه بالرعب واليأس.

توضح هذه القصة أن المرأة هي التي تتحرك بدافع تطوير المجتمع كي يصبح عادلاً. هي التي تحترق، وهي التي تتحسس الحاجة إلى التغيير. والقضية لديها ليست نظرية فكرية عن العدالة، وإن عليها أن تجد حلاً كيما تحيا حياة مفعمة بالرضا. أما ويل Will فإنه "يرغب لو كان بوسعه أن يمضي وقتاً أكثر مع الأطفال". وقد كان على جودي أن تجري، مكرهة، التغييرات التي تحتاج. هذه التغييرات يمكن لها أن توفر ما يمكن أن يساعده في المشاركة التامة في حياة أطفاله. وفي الوقت ذاته فإن من المهم أن تلاحظ أن رغبات جودي لنفسها تشمل رغبة كامنة مساوية يمكن لها أن تغرس التطور في أطفالها وزوجها.

نظرية غريبة عن "الطبيعة الإنسانية"

لا يريد زوج إيديث أو زوج جودي أن يحرم أحداً. والواقع أن هذا هو أحد الأسباب التي جعلتهما يستجيبان بشكل سلبي حين أثارت كل زوجة

منهما قضية التفاني من أجلهما ومن أجل أطفالهما. لقد دفعهما ذلك إلى أن يصبحا فظّين دون أن يكون ذلك عن قصد منهما. وترتكز هذه القضية على نقطة أعمق لأنهما تعلّما أن يغلقا منطقة واسعة من وعيهما، منطقة مهمة ألا وهي الاستجابة لحاجات الآخرين.

في الواقع لا يعني هذا أن الرجال لا يخدمون الآخرين وبأشكال عدة. فكلا الرجلين في هذين المثالين يفعلان ذلك. لقد ظل بيرت يفكر، على الدوام، أن عمله العلمي مهم "للجنس البشري". أما ويل Will، العضو القوي في اتحاد العمال، فإنه مهتم جداً بزملائه العمال. لكن المسألة هي أن الحاجة إلى خدمة الآخرين ليست مركزية في صورة الرجل عن نفسه. إن ذلك ترف يمكن أن يرغب فيه أو يوفره فقط بعد أن يوفر المتطلبات الأساسية للرجولة. وبمجرد أن يصبح رجلاً عبر تلبيته مطالب أخرى فقد يختار أن يخدم الآخرين.

من الواضح أن العنصر الأكبر من النشاط الإنساني الذي يشمل خدمة الآخرين قد تم فصله، وعُهد به إلى المرأة. وحين يندمج هذا مع حقيقة أن ما تفعله المرأة لا يلقى اعترافاً بشكل عام، فإننا نصل إلى بعض النظريات الغريبة في طبيعة الجنس البشري. والواقع أن هذه النظريات هي النظريات السائدة في ثقافتنا. إحدى هذه النظريات هو أن الإنسان، في جوهره أناني ومنافس وعدواني ومدمر. وتغض هذه النظرية الطرف عن حقيقة أن ملايين البشر (معظمهم نساء) قد أمضوا ملايين الساعات لمئات السنين يقدمون أقصى ما عندهم لملايين الآخرين. وفي حين أن لهذه الحقيقة نتائج مهمة فيما يتعلق بالنساء، فإن لها بالمعنى الجوهري مضامين جدّية خطرة على الرجال وعلى

نظريات الثقافة السائدة حول طبيعة البشر. فبما أن الإنسان مقياس لجميع الأشياء، والرجل تحديداً أكثر من بقية الكائنات الإنسانية، فإن لدى النساء نزعة لقياس أنفسهن بالرجال. إن تفسير الرجال للعالم يعرفنا ويوجهنا جميعاً، ويشرح الطبيعة الإنسانية.

لتوضيح ذلك كله ببساطة أقول: كل ما نملك نحن بني البشر هو أنفسنا، والآخرين. لكن من الواضح أن ذلك غير كافٍ. إننا جميعاً نحتاج أنفسنا ويحتاج بعضنا البعض الآخر. ويبدو أن متاعبنا تنبع من محاولة للتقسيم بحيث يخبر الرجال أن يتمركزوا حول أنفسهم، وأن تتمركز النساء حول "الآخر". وبسبب هذا التقسيم تعاني كلتا الفئتين لكن بأشكال مختلفة جداً. وفي حين يبدو التقسيم بسيطاً وواضحاً نسبياً فإن عدداً من التعقيدات النفسية ينشأ عنه بشكل مباشر. إحدى التعقيدات هي أن الفئة المهيمنة محرومة بشكل خطير من معرفة ماذا يعني بالضبط أن يتكامل عيشك من أجلك ومن أجل الآخرين. إن تأهيل الرجل نفسيّاً منذ سنٍّ مبكرة وتركيزه يكون من أجل نفسه. فهو يدفع إلى الاعتقاد بأن عليه أن يفعل ذلك، أو أنه سيشعر بالفشل أو بانعدام الرجولة. ففي أثناء تطور الرجل أو الفتى يتم ردعه نفسيّاً عن تمثل صفات الخدمة عبر حقيقة قابلة للملاحظة بسهولة وهي: ثمة في الواقع أشخاص معنيون بالخدمة وهم فتيات ونساء. وإذا قام الرجل بدور الخدمة فإنه بذلك يجازف بكينونته، وينظر إلى نفسه كما لو أنه امرأة. لقد تحوّل هذا المفهوم إلى مشهد مخيف يصل إلى درجة يصبح فيها تهديداً للهوية الذكوريّة.

من خلال ما نعرفه حتى الآن عن تطور إحساس الشخص الجوهري بهويته أن هذا الإحساس مرتبط منذ وقت مبكر جداً بإحساس الشخص أنه ذكر أو أنثى. وتبيّن أحدث الأدلة أن الطفل عند سن السنة والسنة والنصف إلى الثلاث سنوات "يفكر" بنفسه/بنفسها بوصفه شخصاً ذا جنس معين. لذا فإن التهديد عند الصبي بكونه شخصاً غير ذكر ـ كونه "ليس ذكراً" يجعله يبدو نفسياً أن لديه إحساساً بأنه ليس شخصاً البتة. إننا نصل إلى ربط إحساسنا بوجودنا كشخص ذي جنس في وقت مبكر بحيث لا نستطيع حتى أن نفكر بأنفسنا "كشخص" فقط. ويمكننا أن نفكر على النحو التالي فقط: "أنا فلان الفلاني"، رجل أو "فلانة الفلاني" امرأة. "إذا لم أكن أنا جون الذكر فأنا لست أي شيء البتة". إن الإحساس الداخلي بعدم الوجود، بفقدان المرء لإحساسه بالوجود، بفقدان المرء للمعاني الحقيقية هي أنه ليس علينا أن نعطي الأنثوية والذكورية المعاني التي نعطيهما حالياً. إن المشاركة الكاملة في الحياة برمتها، أي في نمو الآخرين وتطورهم ونمو المرء ذاته لا ينبغي أن تتحول إلى تهديد للذكورة. فهذا المفهوم، مثله مثل العديد من الأفكار، مفروض ثقافياً.

هكذا خلقنا بالمعنى العميق جداً حالة يواجه فيها الرجل تهديداً بأن يكون مثل امرأة إذا أجاز لنفسه أن تتناغم بشكل جوهري مع الآخرين وتخدم حاجاتهم. إن تكن مثل امرأة يكاد يعني ألا تكون شيئاً. هذا لا يعني أن جميع الرجال يمتلكون هذه الصيغة في التفكير بطريقة صريحة بل إن معظمهم لا يفعل ذلك. إنها تبيّن الكيفية التي يكاد فيها الرجل يشعر ويبني إدراكاته بطريقة داخلية غير لفظية.

إن تناغم المرء مع حاجات الآخرين واستجابته لها باستمرار في أثناء تطوره، والإجازة لنفسه الاستجابة لهذه الإدراكات، وترك هذه الاستجابات تتدفق، وتطوير طرق للقيام بذلك والتعبير في الوقت نفسه عن نفسه والسعي إلى تطور ذاته واستنباط طريقة للدمج بين هذا الطريق ثنائي الاتجاه، كل هذا لا يحصل عند الرجال. وبدلاً عن ذلك تراهم محرومين من هذه العملية المستمرة. فهم مجبورون على التخلص من هذه الجوانب الطبيعية في أنفسهم. والمسألة ليست في أن الصبيان غير متناغمين مع الآخرين، ولا يستطيعون تحسس حاجاتهم بل الحقيقة أنهم يشجعون بشكل منهجي أن يكبحوا استجاباتهم. فهم يحرمون من الثواب لقيامهم بذلك لأن هذا عمل ينعت بالأنثوي، وبهذا لا تكون رجلاً، لأن ذلك ليس كينونة. إنه في عالم لا يمكن تخيله، عالم مفزع لابد من تجنبه.

ولأن الصورة في أذهاننا عن القدرات الإنسانية مبنيّة على ما يفعله الرجال، وعلى ما يقول الرجال أنه ممكن فلم يكن بوسعنا أن نعي أكثر من "إنسان" كما تم تعريفه. لقد تُركنا للاعتقاد بأنه في الوقت الذي يمتلك فيه الكثير من الناس دوافعهم تجعلهم كرماء ومتعاطفون مع حاجات الآخرين فإنهم في الجوهر أنانيون ومتمركزون حول ذواتهم ومخلصون لها فقط. فالمصلحة الذاتية هنا أساسية، لكنها ليست العنصر الجوهري. إنها مجرد إمكانية واحدة وحسب.

لعل بوسعنا القول إن إحدى القضايا الرئيسة الماثلة أمامنا كجماعة بشرية هي مسألة طريقة الحياة التي تشمل خدمة الآخرين دون إذعان. كيف لنا أن ندمج هذه الضرورة في تطوير كل فرد ونظرته؟ كما طرحنا في البداية

تمتلك النساء اليوم قاعدة عالية من التطور للتقدم الإنساني. لكن لوضع ذلك موضع الإنجاز يتطلب الأمر تكاملاً جديداً لما تمتلكه النساء بطبيعة الحال. فلكي يخدم المرء دون أن يكون مذعناً يستلزم ذلك أن تقدم النساء برهاناً على امتلاكهن صفات أخرى. هذه الجوانب سوف تناقش في الفصول التالية.

تطور الأنا

لدى العودة باختصار إلى نظرية التحليل النفسي لتطور الأنا نلاحظ أنه يقال إن "بُنى الأنا عند المرأة" أكثر نفاذاً مما هي عند الرجل أو أن "حدود الأنا أقل حدّة" مما هي عند الرجل يقول فرويد نفسه إن المرأة تمتلك أنا أعلى أقل تطوراً. إن هذا الانتقاص واضح لا لبس فيه. من الناحية النظرية يتطور كل من الأنا والأنا الأعلى في العلاقة مع الواقع. (هذا يعني أن الواقع يعرّف من خلال ثقافة المرء) وما تتطلبه تلك الثقافة من الفرد. فالواقع يصنع هذه المطالب لأن من المفترض بكل شخص أن يُهيّأ ليكون ممثلاً حيّاً لثقافته ومعاييرها.

إن نظريات التحليل النفسي السائدة حول أنا وأنا أعلى أضعف لدى المرأة قد تعكس جيداً حقيقة أنه ليس لدى النساء لا أنا ولا أنا أعلى البتّة كما يستخدم هذان المصطلحان اليوم، فالنساء، في هذه الصورة، لا ينلن ما يناله الرجل. كما لا يملكن الحق أو ما يلزم ليتمتعن بمرتبة كاملة لتمثيل الثقافة. ما لم يمنحن الحق في التصرف والحكم على أعمالهن. فكلا هذين الحقين يبدوان أساسيين لتطور الأنا والأنا الأعلى كما يعرّفان. هذا لا يعني أن النساء لا يمتلكن مبادئ تنظيمية أو لهن ارتباط "بالواقع" بطريقة ما. لكن واقع المرأة متجذر بتشجيعها على أن "تكون"

نفسها على صورة الشخص الذي يستفيد منه الآخرون. لذا فإنه يرين أعمالهن فقط بمثابة الأعمال التي تقوم بدور الوسيط بين الآخرين. وهذه الخبرة تبدأ مع الولادة، وتستمر مدى الحياة. وانطلاقاً منها تطور النساء تركيباً نفسياً حيث قد لا يطبق مصطلح الأنا كما هو مستخدم عادة.

لذا فإننا نرى أن المبدأ المنظم في حياة المرأة لم يكن حتى الآن على علاقة مباشرة مع الواقع كما يعرّف الواقع ثقافياً. كذلك لا يفهم أنه الوسيط بين "دوافع" المرء الذاتية وذلك الواقع هو مصدر تطور الأنا. بدلاً من ذلك انخرطت المرأة في وساطة أكثر تعقيداً وهي محاولتها أن تحوّل دوافعها إلى خدمة دوافع الآخرين. والوساطة ليست مباشرة مع الواقع لكن مع وعبر أهداف الشخص الآخر في هذا الواقع. كان يفترض بهذه الفردية أن تتوقف أساساً على مدركات الشخص الآخر وتقويماته، وليس على تلك المدركات المرتبطة بالأنا.

تبدو هذه الافتراضات معقدة، والعنصر الأساسي المشترك بينهما جميعاً هو طبيعة صلة المرء ذاتها بالواقع. إن القسم الأكبر من هذه الصلة ينشأ عبر عمل الآخرين من أجل كل فرد. لكن إنشاء العلاقة ذاتها مع الآخرين يختلف جوهرياً عند النساء عما هو عليه عند الرجال. فخدمة الآخرين هي إحدى الطرق لوصف الشكل الجوهري الذي تبنى فيه صلة المرأة بالآخرين. لكن ثمة قضية لابد من استكشافها وهي السمة البارزة للعلاقة مع الآخرين، ومعناها في المقام الأول. هذا الموضوع سوف يناقش في الفصل الثامن. ومع ذلك فلا بدّ أولاً من المقاطعة بشكل مختصر كي أناقش طبيعة الواقع أو "العالم الحقيقي" كما يطرح نفسه بشكل متباين أمام كل جنس.

الفصل السابع

خارج "العالم الحقيقي"

قد يبدو أنني أقول أن المرأة تمتلك كل الفضائل، وأنها تستطيع أو ينبغي عليها الآن أن تنطلق وتنقذ العالم، ذلك بالتأكيد ليس ما أقصد. ما أقوله هو أن الخبرة الإنسانية قد قسمت بوضوح إلى اثنين - تقسيم لا يصل إلى نقطة المنتصف بل ينحرف عنها إلى مكان آخر. إن أحد النصفين وهو الجزء المخصص للمرأة قد قللت قيمته، وكاد يعامل كما لو أنه غير موجود، أو أنه مهم بما يكفي لما تفعله النساء فقط.

ومما لا ريب فيه أنه جزء "أساسي". فالجميع يدرك أن على شخصٍ ما أن يربي الأطفال. والجميع يبحث عن شخص كي يعنى بالراحة الجسدّية، و"الحاجات الأدنى" المتعلقة بالجنس. وكل رجل يحتاج شخصاً ما ليعنى به حين يكون مريضاً أو عاجزاً.

كل هذه الأشياء، الأشياء التي يسمح للمرأة ممارستها، قد أزيلت من حياة المرء بطريقة ذات مغزى؛ فمكان المرأة هو خارج العمل المستمر. ورعاية كبار السن والمرضى والعجزة هي العناية بأولئك المتقاعدين بشكل مؤقت أو دائم. كما أن تنشئة الأطفال هي انشغال بأولئك الذين ما يزالون خارج العمل

الرئيس. أضف إلى ذلك أن النساء يعنين بأولئك المنخرطين في العمل الرئيس في خلال ساعات اليوم حين يكونون خارج العمل. هذا يعني أنهن يوفرن الرعاية والراحة للرجل المتعب حين يعود إلى البيت مساءً. أما دور المرأة الآخر فهو الإنتاج البيولوجي للجيل القادم. ومع أن هذا الدور يعد دوراً أساسياً؛ فإنه يضع المرأة، بشكل عملي، خارج سياق عمل جيلها. هذه حالة من الحالات التي تشير إليها النساء حين يقلن أنهن يشعرن بفقدان الاتصال "بالعالم الحقيقي".

من الصحيح حقاً أن النساء، في أحايين كثيرة، وأماكن كثيرة، لعبن الدور الرئيس، أو الدور المساوي في الإنتاج الاقتصادي لمجتمعاتهن، لكن حتى في هذه المجتمعات نادراً ما كان لهن أي دورٍ مساو للرجل في توجيه المجتمع. كانت المرأة وما تزال هي المنتج الرئيس للمواد الغذائية في أماكن كثيرة. إنها هي الفاعلة الأساسية في الاقتصاد؛ لكن مكانتها لم تكن تتحدد في ضوء فعاليتها. يبدو أن من غير المهم ما تفعله النساء إذ لا يُعدُّ نشاطاً ذا قيمة. فحتى الآن مازالت تنعت بأنها منتجة وعاملة للعناية بالآخرين. وهذه الأعمال غير ذات شأن. ومن المؤكد أن مجالات الحياة المنوطة بالمرأة في مجتمعنا قد عُرّفت ثقافياً بأنها دونية ومنفصلة عن "الحياة الواقعية".

تعمل المرأة وهي تعيش إحساساً واسع الانتشار بأن ما تفعله لا يقف على قدم المساواة مع ما يعمله الرجل. ولاشك أنها في هذا العمل تظل على اتصال تام مع الواقع، الواقع كما حدّده لها المجتمع. لكن قبولها بتعريف المجتمع قد وضعها بعيداً عن واقع آخر، عن حياتها وخبرتها الخاصة. ويعتقد الرجال أن ما يفعلونه أهم بكثير. وهم بهذا المعنى أيضاً على صلة تامة بالواقع وفق تعريف هذا الواقع

اجتماعياً. (هنا نوع آخر من الخبرة التي يمكن أن تفسّر بحسد المرأة للرجل على قضيبه. فالمرأة تشعر كما لو أنه يمتلك شيئاً لا تملك هي، لكنها بالتأكيد تملك).

يجادل البعض بأن هذا التقسيم للمسؤولية صائب وصالح. ويقول هؤلاء دع المرأة تعنى بهذه الأشياء. إنها أشياء أساسيّة، ولابد من وجود شخص لينجزها. إذا كان على شخص أن تناط به رعاية الحياة، وإذا كانت رعاية الحياة خارج "العالم الواقعي" فلتكن المرأة هذا الشخص. إن هذا النهج لا يبدو مفهوماً في أي ديموقراطية. علاوة على ذلك ثمة نقطتان مهمتان للغاية تنبعان من تقسيمنا الحالي لخبرة الحياة. الأولى ـ إذا كان المجتمع يرى أن ميادين المرأة أقل شأناً فلا يستطيع أن يقول للمرأة أنها تستطيع أو يجب عليها أن تشعر بأنها شخص ذو قيمة كاملة. وإذا لم يتح لشخص الحق الأساس في أن يكون عضواً كامل القيمة في مجتمعه؛ فإننا نضع حدوداً لتدفق التعبير النفسي عندها بمليون طريقة كبيرة وصغيرة. أما النقطة الرئيسة الثانية فهي أن المحاولات التي صنفت أنها مكان للمرأة ليست ثانوية أو لا أهمية لها. ولأنها عرّفت كذلك فقد أفضت إلى مشاكل للرجال كما للنساء. ويقف استمرار هذا التوزيع في طريق الحل لكلا الجنسين.

لدى محاولة علم النفس التحليلي استكشاف أعماق النفس الإنسانية دخل إلى "العالم غير الواقعي" للمشاكل التي لم تحل عند "الجنس البشري" وحين شق طريقة بحذر عبر العديد من المتاهات المعقدة لم يعترف بأن هذا العالم هو عالم المرأة. ما جعل المجتمع يخفق حتى الآن هو أن الاتصال بهذا العالم لا يطلب منك أن تكون ضعيفاً. إن بوسعه أن يجعلنا جميعاً أقوياء.

داخل "العالم الواقعي"

قد تبدو بعض الأشياء التي كتبتها مثل الأشياء التي كانت تقولها لنا جداتنا: "الرجال سوف يصبحون صبياناً. نحن نتركهم يلعبون ألعابهم الصغيرة مع بعضهم بعضاً. نحن نعلم أن تلك ليست أشياء مهمة؛ لكنهم يعتقدون ذلك؛ لذا نتركهم وشأنهم. إننا نعنى بهم بحيث يمكنهم الاستمرار في اللعبة، ولولانا لما كانوا قادرين: "لكن الألعاب لم تعد مسليّة البتّة إذا كانت كذلك من قبل. فالكثير منها ينتهي بلعبة الحرب. ما لم تقله جدّاتنا هو أن الرجال قادرون على شيء مختلف كليّاً. (إذا كانوا غير قادرين على فعل غيره؛ فإن الأحرى بهم أن يتركوا ذلك للنساء).

وبرغم كل هذا فإن بوسعنا القول أن الرجال آبار غير مغلقة من الطاقة الكامنة، ولكنهم لن يتقدموا إذا استمرّت النساء بدعم الأمر الواقع.

كان ثمة طوفان من الكتابات الحديثة في ميادين مختلفة للثقافة السائدة. وكل هذه الكتابات يتحسر على وقوع الرجال في الشراك. تقول هذه الكتابات إن الأهداف التي تقدم للرجل تخلق شخصاً عاجزاً عن الوصول إلى الرضا، أو حتى الإحساس بالارتباط بما يقوم بفعله وبأولئك الذين يعمل معهم. لاحظ تيار "الاغتراب"، وأدب "الإخفاق في الاتصال". إن ما لم تأخذه هذه الكتابات بالاعتبار هو أن هذه الصعوبات هي نتيجة لجعل المرأة ذيلاً.

إن جميع البنى الاجتماعية التي بناها المجتمع الذكوري، حتى الآن، قد انطوت ضمناً على قمع بقية الرجال. كما أن ما استطاعت حفنة قليلة من الرجال في مجتمعنا المتقدم أن تبنيه كان على حساب بقية الرجال. فمن

الناحية التقنيّة حقق المجتمع المتقدم تحسينات عظيمة لفئة صغيرة جداً من الرجال وبعض التحسينات إلى مجموعة أكبر نسبياً على حساب بؤس الكثيرين، وتدمير ثقافات برمتها للآخرين.

إحدى العواقب الخاصة لهذه الروح التدميرية هي أن لدينا صورة مشوهة جدّاً عن البشر. أعني أن الناس ينطلقون من أجل أنفسهم، ولا بأس أن يسحقوا الآخرين تماماً. إن آراء فرويد المهمة شبيهة: الإنسان محكوم بقدره. إن دافعه الأساسي المطلق، الدافع الفطري، الدافع المتعة الذي يقول عنه فرويد إنه مصدر الدافعية برمتها، يفضي فقط إلى الهزيمة والتدمير. وليس بوسع المجتمع إلا أن يأمل في أن يكبح هذه الروح التدميرية ويصعد هذه الدوافع. وقد ينبع هذا التفسير بسهولة من مجتمع أسس الفصل، وأوكل لجنس واحد إمكانيات العمل والقرار والسلطة.

حقاً إنه سباق الفئران. إنه عالم قاس وفظ. وليس الأفق واعداً جدّاً. إن ما يدعى أزمة الهوية عند الشباب (الشباب الذكور، فالمصطلح لا يعني حقاً الإناث حتى الآن). قد ينتج ليس من الرغبة الحقة في اختيار ذلك العالم، ولا من الرغبة الحقة في ترك العالم وراءنا ـ ما يدعى عالم الأطفال ـ حيث يكون الناس على استعداد للعون، للرعاية، لتشجيع تطورك، ليشعروا ويعملوا من أجلك لا ضدك. وينظر الأطباء السريريون إلى هذا النفور على أنه عدم نضوج واتكالية. لكن لماذا حقاً يريد شباب اليوم أن يغادروا عالم الرعاية وينموا؟ ومن جهة أخرى كيف يمكن للمرء أن يكون فعالاً، شخصاً يوجه نفسه دون أن يكون في الوقت نفسه مشاركاً فعالاً ونصيراً لسباق الفئران؟ إن تكن أقل من مشارك ملتزم يعني أن تغامر بأن تكون أقل من رجل.

بقدر ما يتعلق الأمر بالمرأة، كما بيّنا، لا يحتاج المرء أن يكون كذلك. لكن فيما يتعلق بالمرأة أيضاً تصبح القضايا حادة حين تأخذ النساء أنفسهن العيش في "العالم الواقعي" على محمل الجد. حين تحاول المرأة أن تستخدم كل نفسها فإنها تواجه مهمة وضع كل صفاتها قيد العمل في ظل تصميمها هي نفسها. هذه النظرة لم تكن موجودة من قبل على نطاق واسع. إنها تتطلب تحوّلاً في الصفات القيّمة للمرأة. هذا التحوّل سوف ينتج شروطاً مختلفة بشكل ولع عن تلك التي عملت فيها النساء بغية تطوير شخص آخر.

إنها سوف تصبح الفاعل الحقيقي وصانع القرار الحقيقي. سوف يتطلب الأمر تكاملاً جديداً في ظل مبادئ توجيهية جديدة. وبينما تبدأ المرأة بتعريف المبادئ الجديدة لنفسها فإنها تشدّد على قضايا ومسائل جديدة. وبالرغم من أن هذه المبادئ موجودة في الواقع بشكل ما؛ فإنها تتطلب الآن مستوى من الوعي والتأمل المفضي إلى التفاهم. وسوف يشير الجزء التالي إلى بعض القضايا التي تحقق انتشاراً أكبر حين تسعى النساء لإعادة تعريف أنفسهن والتصرف وفق التعريفات الجديدة.

قد يكون من المهم تمييز هذا النقاش باختصار عن أفكار أخرى بعضها قديم جداً. ومن الأمثلة على ذلك فكرة ين Yin ويانغ Yang وهي فكرة الفيلسوف يانغ عن وجود امرأة خفية في كل رجل والعكس بالعكس. أما المثال الآخر فهو استجابة كريستوفر لاش Christohpet Lasch عن الموجة الأولى للنسوية حين وصف الدفاع عنها بالقول إن المرأة انتقلت إلى الشأن العام لتقوم بتدبير "المنزل الاجتماعي" للمجتمع كي تنقل نظافتها وأخلاقها إلى العالم الفاسد.

هذه الصيغ تخفق في أن تأخذ على محمل الجد عدم المساواة في السلطة والحكم بين الرجل والمرأة. إن من النادر أن تكون مهمة المرأة اقتحام الثقافة السائدة "لتنظيفها" من مشاكلها. وليس هذا سوى مجرد تكرار بشكل آخر "للعمل من أجل الآخرين"، و"التنظيف للآخرين"؛ أي تنظيف "الجسم السياسي". وعلى نحو مماثل فإن "المرأة المتخفية في رجل" عند يانغ[1] ليست عكسها نفسه. وبدلاً من ذلك علينا أن نسأل من يدير العالم فعلاً ومن "يقرر" الجانب المقموع عند كل جنس. إن أفكار يانغ والآخرين تنكر عدم المساواة وعدم الاتساق الماثلين؛ فهما أيضاً تاريخيان. والمسألة هنا عما تمّ قمعه، وما يمكن أن يظهر في هذا الوقت من تاريخنا، ومَن بوسعه أن يبرز الجوانب التي كانت ضحية القمع؟ من أعلن ما يمكن تصنيفه "ذكوري" أو "أنثوي"؟ أخيراً، هذه الصيغ هي بذاتها انعكاس لتقسيم أسس هذه الخبرة الإنسانية. وأعتقد أن الفصل والتقسيمات الحالية هي نتاج للثقافة كما عرّفناها. وهذا يعني ثقافة قائمة في أساسها على عدم المساواة. إن طبيعة هذا التقسيم ذاتها هي موضوع البحث.

---

1 ين ويانغ: ظهر هذا المفهوم في الصين عام ١٦٧١، وتعني كلمة "يانغ" المبدأ الذكوري الفعال في الطبيعة، والذي يعني في علم التكوينات الصيني أنه يتجلى في الضوء والحرارة أو الجفاف، والذي يندمج مع "وين" التي تتجلى في الظلمة والبرد والرطوبة. وينتج عن هذا الاندماج كل ما يتكون في الحياة الإنسانية لأن "ين" تمثل المبدأ السلبي الأنثوي في الكون.

المترجم (قاموس ويبسترز).

الجزء الثالث

ملاحظات في مفتاح للمستقبل

شدّد الجزء الثاني على صفاتٍ نفسيّة طورتها المرأة في الحياة كما هي. وهذه الصفات بذاتها لا تقدّم صورة كاملة حتى عن الماضي، وهي بالتأكيد ليست كافية للمستقبل.

أما الجزء الثالث فسوف يشير إلى بعض العناصر التي تبرز حين تمضي المرأة في آفاق مستقبلها. هذه التوكيدات الجديدة لم تنشأ من جديد. إنها تنبثق من تجربة المرأة، وقيمها الخاصة التي ولدتها التجربة.

أما الموضوع الفرعي الذي تجري متابعته فهو المحاولات الرئيسة المعنيّة في حياة المرأة التي توازي مادة التحليل النفسي المكتشفة. ويتجه هذا القسم أيضاً إلى الموضوعات التي تلقى اهتماماً دائماً في التحليل النفسي والعلاج النفسي. لكن هذه الموضوعات لا تصنف على أنها حاجات إنسانية أساسيّة. بيد أنني أعتقد أنها كذلك بالرغم من أنها تتطلب في النهاية وصفاً أدق من التقديرات الواردة هنا. فهي ذات صلة بالإبداع والروح التعاونية، وكذلك بالصدقية وتقرير المصير والسلطة إضافة إلى الانخراط في الصراع حتى لو كان ذلك عند انخراط المرء في التعاون. في هذه المرحلة من التاريخ ستكون بعض هذه العوامل [ليس كلها] حاسمة في تطور المرأة.

وحتى قبل أن نناقش هذه الموضوعات لابد لنا من أن نعرّج على عنصر هام وهو طبيعة الروابط الإنسانيّة. فعلم النفس التحليلي في مرحلته الثانية لم

يكف عن الاهتمام بهذا الموضوع. ومثل موضوع "العمل من أجل الآخرين" - لكن بشكل جوهري أكثر - ينطوي على هذا الموضوع على مبدأ منظم أساسي في حياة المرأة. إن له الصفة نفسها ذات الوجهين كما تمت مناقشة الموضوعات للتو. بل إن النظر فيه أكثر أهمية من حيث كونه حجر الأساس في مستقبل المرأة.

الفصل الثامن
الروابط مع الآخرين

حين يحرم المجتمع الذكوري المرأة من حقها حتى النهاية؛ أي حين يقيد تطورها وفق المعايير الذكورة؛ فإنه يغض النظر عن حقيقة أن تطور المرأة يتقدم لكن على أسس مختلفة. ومن السمات الرئيسية لهذا التطور هو أن المرأة تبني وتطور وتستمر في سياق من الارتباطات مع الآخرين. والواقع أن إحساس المرأة بذاتها يصبح منظماً جداً حولها كونها قادرة على أن تصنع الروابط مع الآخرين ومن ثم تحفظها. وأخيراً يدرك الكثير من النساء التهديد بتمزيق الروابط. ولا يعرّف ذلك بوصفه مجرد فقدان للعلاقة؛ بل بوصفه شيئاً أقرب إلى فقدان الذات كلياً.

يمكن لهذه البنية النفسيّة أن تكون أساساً للكثير من المشاكل. فالاكتئاب الذي يرتبط بشعور المرء بفقدانه ارتباطه بالآخرين منتشر على نطاق أوسع في أوساط النساء مع انه يحصل عند الرجال بشكل مؤكد.

ما لم يتم إدراكه هو أن نقطة البدء بالبنية النفسيّة هذه تنطوي على إمكانيات لمعالجة مختلفة وأكثر تقدماً. ففي الطريقة الأولى تلقى الروابط تقديراً عالياً يساوي أو يتجاوز التصعيد الذاتي. علاوة على ذلك تفسح هذه المعالجة في

المجال لظهور الحقيقة. هذه الحقيقة هي أن تطور كل فرد امرأة كان أم رجلاً يتقدم فقط عبر الروابط. في الوقت الحالي ليس الرجال مستعدين ليعرفوا هذا. فهذه الفكرة تتطلب المزيد من التوضيح. ولنبدأ ببعض الملاحظات والأمثلة الشائعة ثم نعود لنحل هذه العقدة، عقدة لكنها قضية أساسيّة.

باولا Paula امرأة متزوجة وعندها أطفال. كانت شبيهة بإيديث Edith في بعض النواحي التي تحدثنا عنها في الفصل السادس. فالحال مشابه عند باولا التي كانت قد نشأت لتقيم علاقة مع رجل "سوف يحقق لها السعادة"، وقد نظمت حياتها حول خدمة حاجاته. وكان جل إحساسها بهويتها، وكل إحساسها بقيمتها يتركز تقريباً على القيام بذلك. كانت تعتقد أن بيل Bill "جعلها ذات قيمة" مع أنها كانت تمتلك في الواقع قدرات كبيرة للاستجابة لحاجات الجميع بينما تدير أسرة كبيرة. وبينما كان الوقت يمضي بدأت تشعر ببعض النقصان في أهميتها الأساسيّة عند بيل. وبينما كان هذا الشعور يتزايد، ضاعفت جهودها لتلبي حاجته وتخدمه ساعية إلى ربطها بها على نحو أعمق. أما الأشياء الحقيقية فإنها لم تكن ذات أهمية لها. (الواقع أنها أنجزت ما بدأت عمله بيسر وجدارة كبيرين). وكان شأنها متوقفاً فقط على ما يصدر عنها من إحساس داخلي بأن بيل سوف يرتبط بها بقوة وبشكل دائم، وأن هذا بدوره سيجعل لها قيمة. لقد تحقق رضا بالدرجة الأولى التي تخص مصلحة بيل واهتماماته فقط.

حين لم تسفر جهود باولا عن النتيجة التي كانت تسعى إليها أصيبت بالاكتئاب بالرغم من أنها لم تعرف السبب. كانت مفعمة بمشاعر أنها "ليست صالحة"، وأنها "لا أهمية لها"، و"لا شيئاً مهماً". كانت تشعر أن بيل لا يهتم بما

فيه الكفاية، لكنها لم تتمكن من التثبّت من دليل مقنع لهذا الشعور. كان يقوم بدوره كزوج وأب وفق المعايير السائدة. والحقيقة أنه كان "زوجاً أفضل من الكثيرين" كما قالت باميلا. ولاشك أن هذا العامل جعلها تشعر بأنها أكثر "جنوناً". كانت تعمل أن بيل يهتم، لكنها لم تتمكن من أن تشعر أنه يقوم بشيء. عندئذ باتت مقتنعة أنه لابد من وجود شيء خطأ في شخصيتها. وفي الوقت نفسه لم يحقق لها أي شيء مما تعمل الرضا قطعاً.

من الجدير بالملاحظة هنا أن باولا لم تكن "اتكالية" بالمعنى الضمني المألوف لهذا المصطلح على الأقل. فالواقع أنها كانت تعنى بزوجها وأطفالها على خير ما يرام.

ليس هذا وحسب بل إن وجود باولا برمته كان "يعتمد على" كلمة بيل بأنها كانت موجودة، أو أن وجودها يعني له شيئاً. ومثل باولا كمثل الآخرين من مرضى الاكتئاب. لقد كانت شخصاً نشيطاً ومؤثراً. لكن تحت نشاطها الظاهر كان ثمة هدف داخلي وهو أن الشخص المهم هو الآخر - وهو بيل في هذه الحالة - لابد له أن يطمئنها بقوة ووضوح. ولأنه لم يقم بهذا التطمين فقد باتت مشلولة الحركة، وبدأت تشعر أنها ليست شخصاً ما على الإطلاق. ماذا كان يعني كيف تفكر بذاتها؟ مثل هذه الكلمات لم يكن لها معنى.

وحتى النساء اللواتي حققن إنجازات هامة جدّاً في "العالم الحقيقي" يحملن معهن نوعاً مشابهاً من البنية الضمنيّة. وكمثال على ذلك باربار التي كانت تتبوأ منصباً أكاديمياً رفيعاً. وهي في المناقشة مفكرة حيوية ومستقلة. ومع ذلك فهي تصارع شعوراً داخلياً ينطوي على أن كل إنجازاتها لا تساوي شيئاً ما لم يكن ثمة

شخص يقدر ذلك. وتعتقد أن ذلك الشخص لابد أن يكون رجلاً. وإليكم مثالاً آخر هي بياتريك Beatrice. إنها سيدة أعمال ناجحة جداً؛ تستطيع أن "تبيع" وتقنع دهاة التجار الذين يجيدون المكر على الرجال. كانت هذه المرأة تسأل: "لكن ماذا يعني كل ذلك إن لم يكن ثمة رجل يهتم بي"؟ والحقيقة هي أنها عندما عثرت على ذلك الرجل شعرت بأن أنشطتها حية ومحفّزة. وحين فقدت ذلك الرجل أصيبت بالاكتئاب. وباتت كل نجاحاتها غير ذات معنى، وعديمة الفائدة. كانت ما تزال الشخص نفسه، وتقوم بالأشياء ذاتها لكنها لم تكن "تشعر بها" بالطريقة نفسها. كانت تشعر أنها لا تحصد سوى الفراغ والخيبة.

كذلك كيت Kate، وهي امرأة كانت تعمل بنشاط من أجل تطوير المرأة. كانت متطورة جدّاً من حيث فهمها لوضع المرأة. وفي أوقات معينة أصبحت مقتنعة على نحو حاد بحاجتها إلى الآخرين وتدين نفسها بشأن ذلك. "أنظر أنا لست متطورة البتّة. أنا سيئة كما كنت دائماً، مثل امرأة تماماً".

وبالرغم من أن باربارا وكيت لم تصابا بالاكتئاب فقد انتابهما الشعور نفسه بأن العامل الضمني هو ذاته. ويستخدم الاكتئاب هنا فقط للتوضيح لأن ثمة الكثير من العواقب السلبية الأخرى.

كيف تعمل الروابط.

تقدّم جميع النساء اللواتي ذكرن إيماءات عن الدور الذي تلعبه الروابط مع الآخرين عند المرأة. وكما علمنا حتى الآن فإننا نرى أن المشاكل التي تنشأ مع كل الروابط تنشأ من نمط الهيمنة والتبعية.

تدرب المرأة، وفق نظرية علم النفس، أن تكون "معتمد"، "تحتاج الآخرين أكثر من اللزوم"، أو أنها غير ناضجة بأشكال شتى. (لم تتطور بعد مرحلة مبكرة من العمر حيث تم الفصل والتفرد، وبذا لم تحصل على استقلالها). أود هنا أن أقول، بدلاً من ذلك، أنه بالرغم من أن هؤلاء النسوة يواجهن مشكلة تزعجهن كثيراً فإن المشكلة تنشأ من الدور المهيمن الذي أصبح يلعب دوراً في حياة النساء. وهكذا فإن النساء في الواقع "يعاقبن" لأنهن يجعلن الروابط مركزية في حياتهن.

نحن جميعاً نبدأ الحياة مرتبطين بعمق بمن هم حولنا. ويشجع الرجال والصبيان على الخروج من هذه الحالة في الوجود حيث يكونون هم وأقدارهم مندغمين بشكل حميمي في حياة الآخرين وأقدارهم. بيد أن النساء يشجعن على الاستمرار في هذه الحالة، وما عليهن إلا أن يحولن ارتباطهن إلى شخصية ذكورية أخرى بينما يكبرن.

كذلك يكافأ الصبيان لتطوير جوانب أخرى من حياتهم. وتبدأ العوامل الأخرى مثل السلطة والمهارات بالحلول تدريجياً محل الروابط المهمة إلى أن تزيحها في نهاية المطاف. ومما لاشك فيه أن المرأة تتغير أيضاً. لكن هذا التغيير يكون داخلياً لأن التطور لا يحل محل القيمة التي تتوافق مع الارتباط بالآخرين.

ما أريد قوله هنا أن مقياس التطور عند المرأة ليس نفسه عند الذكور. ولا ينطبق عليهم المصطلح نفسه. وهكذا يمكن أن تتطور النساء بشكل كبير مع احتفاظهن بما يعطين من وزن لعلاقاتهن مع الآخرين.

مرّة أخرى تكيّف المرأة كل حياتها لتكون "حامل" الضرورة الأساسيّ للمشاركة الإنسانية. إن بوسع الرجال أن يمضوا بعيداً عن إدراك هذه الحاجة لأن المرأة معدّة تماماً "لتسد" هذه الحاجة عند الرجال. لكن ثمة جانباً آخر وهو أن المرأة هي أيضاً أكثر استعداداً للتحرك نحو طرق أكثر تقدماً وطرق عيش تحقق ارتباطاً أفضل بالحاضر وانشداداً أقل إليه. وكمثال على ذلك سوف تأخذك الروح العدوانية إلى مكانٍ ما في هذا المجتمع إذا كنت رجلاً. حقاً قد تأخذك بعيداً جدّاً إذا كنت واحداً من الأشخاص القلائل المحظوظين. لكن إذا تابعت عدوانيتك بشكل مباشر في مسعى لما يبدو أنه تحقيق لحقوقك وحاجاتك كرجل؛ فإنك سترى في وقت من الأوقات أن ذلك يسبب لك متاعباً أيضاً. (إن عدم المساواة من ضروب أخرى مثل الطبقة والعرق تلعب دوراً مهماً في هذه الصورة)، وعلى أي حال فقد تصل إلى هذه النقطة في وقت لاحق. وبعد أن تكون قد رسخت اعتقاداً بفعالية الروح العداونية فإنك تكون، في واقع الحال، تعتقد أن هذا الاعتقاد مهم لإحساسك بالذات. عندئذ يصبح من الصعب أن تتخلى عن الدافع نحو العدوانية والإيمان بضرورتها. علاوة على ذلك؛ ما تزال هذه الروح موضع استحسان بمعيار آخر لأن بوسعك أن تجد أماكن تحصل فيها على شيء من الرضا والتشجيع على ذلك حتى لو كان ذلك من الأصدقاء في نادٍ محلي من خلال التماهي مع لاعبي كرة القدم، أو استخدام قوتك مع النساء هنا وهناك. إن التخلي عن هذه الروح كلياً يمكن أن يبدو كما لو أنه انحطاط أو خسارة، خسارة الرجولة بشكل خاص؛ أي خسارة الهوية الجنسيّة. والواقع أن الأحداث إن لم تسر كما تهوى فقد تميل إلى زيادة الروح العدوانية أملاً بتغيير

الأحوال. ويمكن لهذه المحاولة أن تزيد في العدوانية؛ بل هذا ما تفعله حقاً، وتحولها إلى عنف سواءً على صعيد الفرد أو الجماعة حتى تصل إلى التهديد بالحرب ثم الحرب نفسها.

بدلاً من ذلك يمكن للمرء؛ بل يجب عليه أساساً أن يعزز ثقته بالآخرين في سياق يكون فيه كائناً اجتماعياً مرتبطاً بالكائنات الإنسانية الأخرى. يكون معهم كما يكون مع نفسه. وتتعلم المرأة منذ نعومة أظفارها أن عليها أن تركن إلى هذه الثقة أساساً. إنها لا تستطيع أن تعتمد على تطورها وإنجازها أو قوتها الفردية. وإذا حاولت فإن مصيرها الإخفاق. وهي تدرك هذا في وقت مبكر.

يكمن أمل الرجل الوحيد في الارتباط أيضاً. لكن هذا الارتباط عند الرجل قد يبدو عائقاً أو خسارة أو خطراً أو على الأقل ليس العنصر الأفضل. وبالمقابل تشعر المرأة بأن الارتباطات بالآخرين، والعلاقات معهم تجعلها تشعر بالإنجاز والرضا، وأنها "ناجحة" وحرّة في أن تمضي إلى أشياء أخرى.

وهذا لا يعني أن الرجال غير مهتمين بالعلاقات، أو أن الرجال لا يحملون حنيناً عميقاً إلى الارتباط. الواقع أن هذا هو بالضبط ما يجده الناس على نحو مستمر فيما له علاقة بالقوى العقلية والعاطفية الناشئة خاصة في فجر الطفولة، وبأثرها في السلوك والأوضاع العقلية. أعني أنهم يجدون برهاناً على هذه الحاجات عند الرجال والنساء. وتتوضع هذه الحاجات عميقاً تحت سطح المظاهر الاجتماعية.

ثمة حالات تنتمي إلى صيغة شائعة، وكمثال على ذلك هو أن الرجال يبحثون طيلة حياتهم عن أمهاتهم. لا أعتقد أن ما يبحثون عنه هو الأم في

الجوهر. إنني أجزم أنهم يبحثون عن نمط تشاركي في العيش ـ نمط ما كان ينبغي له أن يعني العودة إلى الأم لو استطاع المرء أن يجد طريقاً يسير عليه نحو تواصل إنساني أكبر. لقد حرم الرجال أنفسهم من هذا النمط حين تركوا أمره للنساء. والأهم من ذلك أنهم جعلوا أنفسهم عاجزين عن أن يؤمنوا به. من الصحيح أن أوقاتهم مع أمهاتهم كانت هي الأوقات التي كانوا يستطيعون فيها حقاً أن يؤمنوا بالارتباط ويعتمدوا عليه. لكن بمجرد أن يبدؤوا بالنمو ضمن القالب الذكوري فإن من المفترض فيهم أن يتخلوا عن هذا الاعتقاد وحتى هذه الرغبة. فهم يدفعون إلى الإفلات منه وحتى إلى شجبه في نفوسهم، وبناء حياتهم على شيء آخر مختلف. وهم يكافؤون على عملهم هذا.

من الناحية العلمية يتحسّر الجميع الآن على إحساس الرجل في الغرب بالاغتراب والافتقار إلى جماعة والعجز عن العثور على طرق تنظيم المجتمع من أجل غايات إنسانية. وقد وصلنا إلى نهاية الطريق المبنيّة على مجموعة من السمات المؤسسة لهوية الذكر. وهذا يعني تقدّمٌ بأي ثمن ودفع أي ثمن وإبعاد جميع المنافسين وقتلهم إذا كان ذلك ضرورياً. أما الفرصة لممارسة مثل هذه المزايا الرجولية فقد ظلت متيسرة دائماً لقلة قليلة من الرجال. وحين كافح الرجال من أجل تعريف أنفسهم وفق هذه الأفكار فقد بنوا المنظومات النفسيّة عندهم حول هذا الكفاح.

قد يعتقد البعض أنه كان علينا أن نصل إلى مرحلة جديدة معينة من "السيادة" على البيئة الطبيعية، أو مستوى ما من التكنولوجيا لا لنرى حدود هذا النوع من التنظيم الاجتماعي وحسب بل خطره المطلق أيضاً. ومن ناحية

أخرى لعلنا لم نكن بحاجة إطلاقاً أن نأتي إلى هذا المسار الطويل في المقام الأول لأن من المحتمل أن يكون ذلك انعطافاً واسعاً وغير ضروري. والآن يبدو بوضوح أننا وصلنا إلى نقطة يجب أن نبحث انطلاقاً مننها على أساس للإيمان والارتباط. لا الإيمان وحسب، بل الاعتراف بأن الارتباط ضروري لوجود الكائنات الإنسانية. (والأساس لما يبدو أنه الخطوات الأساسية المطلقة في تاريخ الغرب إذا أردنا البقاء). فإذا كان لنا أن نبقى فإن الأساس لما يبدو أنها الخطوات الأساسية في التاريخ الغربي هو متوفر في واقع الحال.

يمكن لتقدم اجتماعي أعظم أن ينبثق من خلال وضع المرأة هموم النساء نصب عينيها. وقد بدأت النساء يفعلن ذلك منذ وقت قريب. مرّة أخرى ليست المسألة مسألة سمات بيولوجية فطرية. إنها مسألة نمط البناء النفسي الذي يجري على نحو مختلف عند كل جنس في هذا الوقت من تطورنا كمجتمع للكائنات الإنسانية، ومسألة من هو القادر أن يقدّم الحافز والتوجيه للانتقال من هنا.

إن النقطة المركزية هنا هي أن رغبة المرأة بالارتباط هي قوّة جوهرية وأساسية من أجل التقدم في آن معاً. وهي في الوقت نفسه المصدر الحتمي للكثير من مشاكل المرأة. وهذا يعني أنه في الوقت الذي بحثت فيه المرأة عن أساس البناء النفسي ووجدته سعياً وراء مزيد من الوجود الاجتماعي المتقدم؛ فإنها لم تكن قادرة أن تتصرف بشكل كامل ومباشر على هذا الأساس القيّم بطريقة تتيح لهذا الأساس أن يزدهر. ونتيجة لذلك لم تكن قادرة أن تعلل أو حتى تدرك هذه القوّة القيمة. وعلى النقيض من ذلك فحين تتصرف المرأة على أساس هذا الدافع النفسي المهم فإنها عادة ما تنقاد إلى التبعيّة. هذا يعني أن

الأشكال الوحيدة للارتباط والتي توفرت للمرأة كانت ارتباطات التبعيّة فقط. وفي حالات كثيرة قد يؤدي السعي إلى الارتباط إلى أن يقود المرأة إلى وضع يخلق مشاكل عاطفية خطرة. ويصنف الكثير من هذه المشاكل بأنها ضروب من العصاب والمسميات الشبيهة الأخرى.

بيد أن ما هو أهم هو أن ترى أن ما يدعى عصاباً قد ينطوي في داخله على نقاط البدء في البحث عن شكل أكثر تقدّماً للوجود. إن هذا ليس مجرد احتمال بل هو ما يجري حقاً في أكثر الأحيان. والمشكلة أن المرأة ما فتئت تبحث عن ارتباطات يستحيل عليها أن تحققها في كل الأوضاع والترتيبات الحالية. لكن كي تدير البحث كانت لدى المرأة رغبة بان تضحي بكامل مكونات ذاتها. لذا استنتجت المرأة، كما تفعل بسرعة، أنها لابد مخطئة أو "مريضة" بلغة العصر.

البحث عن الارتباط - "العصاب".

لقد أثرنا موضوعين متصلين: الأول اجتماعي وسياسي، والآخر نفسي. الأول هو كيف تطور المرأة أنواعاً من الارتباطات التي تدفع تطور المرأة، وتساعدها على قوتها لتخلق تغييراً حقيقياً في العالم الحقيقي؟ ثانياً، إلى تنجز هذه المهمة، وجنباً إلى جنب، هل يمكننا أن نفهم على نحو أفضل لماذا نعاني؟ قد نكون قادرين على الأقل أن نتوقف عن تشويه أنفسنا عبر إدانة قوانا.

في محاولة لفهم الوضع أكثر يمكننا العودة إلى بعض النساء اللائي ذكرن في بداية هذا الفصل. إنهن جميعاً يعبرن عن موضوع شائع وهو الافتقار إلى القدرة على تقويم وتصديق أفكارهن، مشاعرهن، وتصرفاتهن. يبدو الأمر كما لو أنهن

فقدن الشعور الكامل بالرضا في استخدام أنفسهن وكل طاقاتهن الخاصة، أو بالأحرى لم يكن لديهن الحق الكامل في القيام بذلك في المقام الأول. وكما تعبّر بياتريك عن ذلك بأن ثمة إحساساً "بأنه ينبغي أن يكون ثمة شخص آخر". فوجودها وعملها وحده ليس لهما معنى تاماً. وهو بذلك يصبح جافاً وفارغاً وخالياً من أي شعور طيب. وهذا لا يعني أن بياتريك تحتاج شخصاً آخر ليعكس نفسها لها (في الحقيقة كانت تعلم أنها كانت ممتازة ودقيقة في الحكم على نفسها) لذا تبدو حاجتها أساسيّة أكثر من ذلك. فما لم يكن ثمة شخص موجودا فإن الحدث برمته أي الفكر، الشعور، الإنجاز أو أي شيء كان يفتقر إلى المتعة والأهمية. لا تشعر أنها نصف شخص فقط؛ بل نصف شخص يفتقر إلى الرضا الكلي، ويريد شخصاً آخر إنها ما تزال قادرة أن تستمد بعض الرضا من نصفها الخاص. إنها كما لو لم تكن شخصاً البتّة. فهي على الأقل ليست شخصاً ذا أهمية. وبمجرد أن يكون بوسعها أن تثق بأنها تستخدم نفسها مع شخص آخر، ولأجل شخص آخر فإن ذاتها تنتقل إلى الفعل وتبدو مرضية وذات شأن.

إن النساء اللواتي أشير إليهن في هذا الفصل لسن ما يدعين "غير مستقلات"، أو شخصيات من أنماط غير ناضجة. (مثل هذه المصطلحات قد تتطلب إعادة فحص بشكل جيّد فيما يتعلق بالمرأة). الواقع أنهن متطورات كما أنهن أشخاص قد لا يكون بالإمكان تصنيفهن بهذه الطريقة، وعلى المستوى السطحي لا يمكن لعبارات مثل "البحث عن موافقة" أو "الخوف من موافقة" أن تغطي وضعهن حقاً بالرغم من أن هذه العوامل تلعب دورها.

إن الاعتقاد المشترك أن شخصا يحتاج شخصا آخر بطريقة معينة وخاصة جداً يتجلى بطرق مختلفة لأفراد مختلفين. إحدى هذه التجليات تؤدي بشكل سريع إلى

الاكتئاب. وتجارب النساء التي وصفت هنا يمكن أن توفر بعضاً من مفاتيح التعرّف على الاكتئاب. وقد يساعد هذا في فهم بعض مظاهره. ففي حين عانت كلٌّ من باولا وبياتريك من الاكتئاب فإن لدى بقية النساء تجليات مختلفة.

من المحتمل أن يقر كل شخص يعمل في ميادين علم النفس المختلفة بأننا لا نفهم الاكتئاب فهماً دقيقاً. يبدو أن الاكتئاب، بشكل عام، مرتبط بشعور المرء بأنه معاق أو عاجز أن يفعل أو يحصل على ما يطلب. والسؤال هو: ما معنى ما يطلب المرء فعلاً؟ هنا نجد أنواعاً من الاكتئاب الصعبة والمعقدة التي لا تبدو أنّ "لها معنى". وعلى السطح قد يبدو أن شخصاً أنثى حصلت على ما تطلب. (بالنسبة لكثير من الشابات من الطبقة المتوسطة كانت الطلبات منزلاً في إحدى الضواحي وزوجاً وأطفالاً).

كيف يمكن إذن اكتشاف ما يسعى المرء إليه؟ ولماذا يشعر المرء بأنه عاجز ولا فائدة ترجى؟

قد توفر تجربة بياتريك فهماً ما حول هذه النقطة. فقد قالت في النهاية أنها كانت تسعى إلى تقييد ذلك الشخص المهم وربطه بها بشكل مطلق، وأنها تريد ضماناً لذلك القيد. كانت أي شيء إلا أنها لم تكن انفعالية أو اتكالية أو عاجزة. لكن نشاطها كان موجهاً على هذا الهدف الذي اعتقدت أنها كانت تحتاج تحقيقه. وفي حين أنها لم تكن تحتاج ذلك النوع من العلاقة فإنها لم تكن مقتنعة بهدفها داخلياً. (في سعيها بحثاً عن الهدف غالباً ما اتخذت شخصية بارعة وقويّة جداً. وبالرغم من أن متابعة الهدف كانت تتم عادة بشكل مقنَع وخفي عن نفسها فإن من حولها كانوا يشعرون بذلك بوضوح تام).

كانت بياتريك قد طورت اعتقاداً داخلياً بأن كل شيء تفعله يبدو صحيحاً فقط إذا فعلته من أجل ذلك الشخص الآخر، وليس من أجلها هي. وقبل كل شيء فإنها كانت قد فقدت الإحساس بأن إشباع حاجاتها أو رغباتها لا يساعدها قطعاً أن تحقق الرضا. وتكاد كما لو أنها فقدت "المنظومة" الداخلية التي تسجل الحوادث وتبلغها ما إذا كانت تجعلها راضية أو سعيدة. إن "تسجيل" ما يبدو رضا قد انتقل، والآن يأتي فقط عبر إحساسها بأنها تستطيع أن تبقى الشخص الآخر في حالة معيّنة من العلاقة بها. عندئذٍ فقط يمكنها أن تشعر بأنها قوية وجيدة. (في حالات الاكتئاب الأكثر تعقيداً، كما في حالة بياتريك، قد لا يكون الشخص الآخر بذاته هو ما يرغب المرء أن يقيده لكن صورة نوع العلاقة التي يعتقد المرء أنه يحتاجها هي ما يرغب تقييدها) ومن الأمثلة على ذلك أن النساء اللواتي كبر أولادهن قد لا يرغبن في الاحتفاظ بالأطفال كأفراد لكنهن يشعرن أن عليهن أن يمتلكن نوعاً من علاقة الطفل بالأم. في الواقع قد لا يحتاج المرء حقاً مثل هذه العلاقة. لكن الاعتقاد قوي بذلك لأن المرأة التي قضت وقتاً طويلاً تنظم بناءها النفسي على ذلك الأساس لن تتخلى عن تلك الفكرة بسهولة. زد على ذلك أن وقتاً طويلاً تنظم بناءها النفسي على ذلك الأساس لن تتخلى عن تلك الفكرة بسهولة. زد على ذلك أن وقتاً طويلاً قد مضى منذ فقدت الاعتقاد أنها تستطيع فعلاً أن تمتلك أي نوع من العلاقات.

وكان من مظاهر مشكلة بياتريك القدر الكبير من الغضب المتولد عندها. ولكي تسوي المشكلة - مثل كثير من النساء - عانت من صعوبة بالغة في السماح لنفسها أن تعبّر عن غضبها. بيد أنها كانت تغضب إذا قام الشخص الآخر بعمل أي

شيء يبدو أنه يهدّد بتغير الروابط. ويبدو جليّاً أن كون المرء في وضع كهذا الوضع هو سبب مهم لانفجار الغضب. وكيف لها ألا تغضب من ذلك الشخص الذي أعطته الكثير من حريتها الشخصية؟ بل إن بياتريك باتت أكثر اكتئاباً لأنها فسرت غضبها بوصفه علاقة مضافة إلى عدم جدارتها. وبالرغم من تعاستها العميقة فإنها لم تستطع أن تصدق أن ثمة طريقة أخرى ممكنة للاستمرار في العيش.

مثل "بياتريك غالباً ما يكون الأشخاص المعرضون للاكتئاب نشيطين جداً وأقوياً، لكن هذه الفعالية يجب أن تدرك على أنها لفائدة الآخرين. علاوة على ذلك فإنها تنتظم حول مسعى وحيد هو البحث عن ارتباط في الشكل الوحيد الذي يبدو ممكناً:

"سوف أعمل أي شيء إن تركتني فقط أستمر في هذا النوع من العلاقة بك".

قد تساعد مظاهر أخرى للاكتئاب في توضيح هذه النقاط. لقد عرفت منذ وقت طويل أن ثمة ما يدعى أنواع الاكتئاب المتناقضة التي ما تلاحظ غالباً عند الرجال. وتحصل هذه بعد أن يتلقى رجل مقتدر ترقية أو تقدماً يفترض أن يجعله سعيداً وأكثر فعالية. مثل هذا النوع من الاكتئاب قد يعكس حقيقة أن الفرد مجبر أن يقر بمزيد من الحريّة الشخصية، وأن يقر كذلك أنه هو نفسه مسؤول عما يحصل. فما يفعل لا يفعله لشخص آخر أو بتوجيه من شخص آخر. أما المرأة فلا تصاب باكتئاب الترقية بشكل واسع لأنها لا تتلقى الكثير من الترقيات. مع ذلك كان بوسع بياتريك أن تنجز أعمالاً مذهلة ما دام إلى جانبها شخص في مكانة أعلى منها، ويتمتع بنشاط كبير في العمل. إنها لم تسمح لنفسها قطعاً أن تحصل على الوظيفة الأعلى بالرغم من أن ذلك عرض عليها مراراً.

لعل ثمة عملية مشابهة في نشاطها في ظاهرة تلاحظ في التحليل النفسي. فقد عرف منذ زمن طويل أن لدى الناس أحياناً ما يدعى "ردود فعل علاجية سلبية". هذا يعني أنهم يحققون كسباً رئيساً ثم تسوء حالتهم بعد ذلك. وقد ارتأى بونيم Bonime أن معظم ردود الفعل هذه هي في الواقع أشكال رئيسة نحو الأخذ على عاتقه توجيه مسؤولية باقي الحياة. لقد رأى الشخص أنه يستطيع أن يخرج من حالة العجز، ويستطيع أن يبذل جهداً فعالاً لمصلحته الذاتية. لكنه يصبح عندئذ خائفاً مما تنطوي عليه تلك الرؤية. وعلى سبيل المثال قد تعني هذه الرؤية أن الشخص لا يحتاج حقاً إلى الشكل الاتكالي القديم للعلاقات. وهنا يتراجع أو يرفض أن يتابع السير في المسار الجديد. هذا الانسحاب يحصل عند الرجال كما النساء. لكن لهذه الحالة قصة قديمة شبيهة جداً بما يجري في الحياة.

إن أهمية هذين المثالين للنساء قد تكمن فيما يلي: "إذا استطعت أن أقود نفسي للاعتراف بأنني أستطيع أن آخذ على عاتقي حرية وتوجيه حياتي بدلاً من تسليمها للآخرين فهل يمكنني أن أعيش بأمان؟ برضا؟ ومن يمكن أن يحبني، أو حتى يتحملني إذا فعلت ذلك؟ فقط بعد مواجهة هذه الأسئلة، على الأقل بدرجة ما، هل بوسع المرء أن يبدأ السؤال الأساسي أكثر: ماذا أريد حقاً؟ وهذا السؤال لن يلقى دائماً جواباً سهلاً. لقد انقادت معظم النساء بعيداً عن التفكير بهذه الأشياء، وغالباً ما يمر هذا التفكير بفحص عسير لكن يظهر عادة أن ثمة حاجة عميقة تشعر المرأة بها دون أن تواجهها البتّة. عندئذ فقط يمكن أن يبدأ المرء بتقييم هذه الرغبات، وأن يرى إمكانية العمل بهدف تحقيقها.

وعندئذ فقط يدرك المرء أن بالإمكان تحقيق الرضا في هذا المسار. علاوة على ذلك عندئذ يصبح جليّاً أن المرء لا يحتاج أو يريد نوع الارتباط الذي كان يعتقد أنه أساسي. ونظراً لأن العملية التي وصفت في هذه الفقرة يجري خنقها في الغلب؛ فإنه يصبح واضحاً سبب تعرّض النساء للاكتئاب.

ثمة الكثير من التعقيدات التي تدخل لتشكل الحالة الخاصة بالمرأة كما حصل لدى بياتريك. إذا كان ثمة من يعتقد أن السلامة والرضا يكمنان في العلاقات المبنية على أنواع معينة من الروابط؛ فإن الشخص سوف يستمر في دفع الناس والمواقف إلى هذه الأشكال. لهذا كانت بياتريك تعمل باستمرار وبنشاط للحصول على رجل ضمن هذا النوع من العلاقة. كان لديها برنامج للعمل. كان هو الوحيد الذي كانت قادرة على بنائه. لكن هذا البرنامج خلق لها قيدها الخاص. هذا هو السبب في أن الاضطرابات النفسية هي أسوأ أنواع العبودية لأن المرء يصبح منشغلاً باستعباد نفسه، أي أنه يستخدم الكثير من طاقاته الذاتية لخلق هزيمته.

تشجع جميع أشكال الاضطهاد الناس على العمل طوعاً على استعباد أنفسهم. وفيما يتعلق بالنساء على وجه الخصوص يأخذ هذا التطوع حتماً أشكالاً نفسيّة. وغالباً ما ينتهي إلى أنواع من العصاب وأشياء أخرى مشابهة: (يعني الرجال أيضاً من مشاكل نفسية كما نعلم جميعاً، والقوّة المحركة لها ذات صلة بما عند النساء، لكنها حتماً تتخذ أرضية مختلفة).

بهذا المعنى لا تنشأ المشاكل النفسية عبر اللاشعور بقدر مما تنشأ عن الحرمان من الشعور الطيب. لو كان لدينا مفردات أكثر دقة (عند كل مستوى

عمري) لنصوغ بوساطتها مفاهيمنا لما كان لهذا أن يحصل. لو كان لدينا طرق لمعرفة خياراتنا الحقيقية الخاصة ـ لو كان لدينا كل هذه الأشياء ـ لاستطعنا أن نضع برامج عمل أفضل. وبسبب افتقارنا للوعي التام فإننا نبدع مما هو متيسر. فالنساء شوهن فقط ما يحصل (وما يمكن للشخص أن يتزود به أو يجب أن يزود به)، وما يجب ويمكن أن يوفر للشخص. إن المفاهيم المتوفرة للرجل يمكن الحكم عليها بأنها أكثر تشوهاً لكن البرامج الممكنة للعمل والقوى التي تحققها مختلفة.

حتى الكلمات بعينها، المصطلحات التي بها نصوغ المفاهيم ونتأمل الوعي السائد لا تعبر بالضرورة عن حقيقة ما يجري. هذا صحيح عن الثقافة بالمفهوم الواسع وفي نظرية علم النفس أيضاً. إننا بحاجة إلى مفردات غير قائمة على نواتج محمولة من حالة الرجل كما أنها غير ملائمة. فحتى كلمة مثل استقلال التي يستخدمها الكثير منا ويحبونها قد تحتاج إلى مراجعة بالنسبة للنساء. إنها تحمل معنى الارتباط لكنها بالنسبة للنساء تعني التهديد؛ أي أن على المرء أن يكون قادراً على دفع ثمن التخلي عن الروابط لكي يصبح فرداً منفصلاً يوجه نفسه. في الواقع حين تكون المرأة قد ناضلت لتطوير ذاتها كفرد قوي مستقل؛ فإنها تكون بذلك قد هدّدت وتهدّد فعلاً الكثير من العلاقات، العلاقات التي لن يتسامح فيها الشخص الآخر مع امرأة تقرر مصيرها. لكن حين يكون الرجل مستقلاً فليس ثمة مبرر لأن يفكر أن علاقاته سوف تتعرض للتهديد. وعلى النقيض من ذلك ثمة سبب للاعتقاد أن تطوير الذات سوف يكسبه المزيد من العلاقات. أما الآخر ـ وهو عادة امرأة ـ فإنها ستهرع إليه وتدعمه في جهوده، وسوف يحترمها الآخرون ويعجبون بها. وبما أن على المرأة أن تواجه عواقب

مختلفة جداً فإن كلمة استقلال تبدد احتمالاً خطراً. إنها كلمة مشتقة من تطور الرجل لا تطور المرأة.

ثمة إحساس آخر قد يكون فيه الانتقال الأولي إلى مفهوم مثل مفهوم الاستقلال كهدف للمرأة سبباً للمشاكل. فالمرأة تبحث بصدق عن شيء أكثر كمالاً من الاستقلال كما يعرّف عند الرجال عن قدرة تشمل العلاقات مع الآخرين بالتزامن مع التطور التام للذات. لذا يحتاج الكثير من مصطلحاتنا إلى إعادة فحص.

لقد تحرّك الكثير من النساء الآن لتحديد طبيعة ارتباطاتهن، وليقررن لأنفسهن مع من سيقمن علاقات. وحين يبدأن هذه الخطوة يجدن الأشكال المجتمعية تقف في الجهة المقابلة، الواقع أنهن عملياً خارج الأشكال الاجتماعية القديمة يبحثن عن أشكال جديدة. لكن لا يشعرن بالوحدة وأنهن مخطئات بل يشعرن أنهن يسعين نحو أهدافهن. إن كون المرء في هذا الوضع غير المألوف ليس أمراً مريحاً، لكنه ليس مزعجاً بشكل كلي أيضاً. والواقع أنه يبدأ بإعداد مكافآته الجديدة المختلفة. هنا، وحتى على أعلى مستوى مباشر، تجد النساء جماعة من السعاة الآخرين، سعاة منشغلين بهذه المتابعة. وليس بوسع أحد أن يأخذ على عاتقه هذه المهمة المرعبة (فالعلاج حتى لو قمنا به بطريقة قريبة من الكمال ليس كافياً).

من المهم للغاية أن تعرف أن الشد باتجاه الارتباط الذي تشعر به النساء ليس خطأ أو تخلفاً. فالنساء لسن بحاجة لإضافة الإدانة من تلقاء أنفسهن. خلافاً لذلك فإن بوسعنا أن ندرك هذا الشد بوصفه القوة الأساسية. كما أن بوسعنا أن نبدأ اختيار العلاقات التي تعزز النمو المتبادل. وسنناقش مثل هذه الحالات في الفصول القادمة.

أما القضايا الأخرى فإنها على الدرجة نفسها من الصعوبة. كيف لنا أن نعي مجتمعاً منظماً بشكل يسمح بكل من التطور والتبادل بين جميع الناس؟ وكيف نصل إلى هناك؟ كيف يمكن للمرأة أن تنتقل من حالة ضعف ذات قيمة متدنية إلى فعالية ذات قيمة؟ كيف نحصل على القوة لنفعل هذا حتى إذا لم نكن نريد أو نحتاج القوة لنغمر الآخرين أو نسيطر عليهم؟ قد يبدو الأمر صعباً بما فيه الكفاية لو بدأنا من الصفر، لكننا لا نفعل ذلك. نحن نبدأ من وضع يمتلك فيه الآخرون القوة ولا يترددون في استخدامها. وحتى إذا لم يستخدموها عن وعي ضد النساء فكل ما عليهم هو أن يبقوا في حالة من الهيمنة، ويستمروا في عمل من الصفر، لكننا لا نفعل ذلك. نحن نبدأ من وضع يمتلك فيه الآخرون القوة ولا يترددون في استخدامها. وحتى إذا لم يستخدموها عن وعي ضد النساء فكل ما عليهم هو أن يبقوا في حالة من الهيمنة، ويستمرّوا في عمل ما يعملون، ولن يتغير شيء. إن صفات المرأة التي أؤمن بها هي في الجوهر وفي كل الأوقات، ثمينة وأساسية. لكنها ليست الصفات التي تستخدم من أجل القوة في العالم كما هو عليه الآن. كيف لنا إذن أن نستخدم عناصر القوة هذه لتصعيد فعاليتنا بدلاً من تركها تحرفنا عن العمل؟

يبدو أن جزءاً من الجواب واضح بطبيعة الحال. فالنساء لن يتقدمن إلا بالانضمام معاً في عمل تعاوني. وما لم يتضح حتى الآن هو أنه ليس ثمة مجموعة استفادت من قيادة المرأة، من ميزة هذه العناصر العميقة والخاصة عند المرأة. فمعظم هذه العناصر مخفية في هذه الثقافة، مخفية حتى عن المرأة ذاتها. وليس بوسعي أن أكف عن التشديد على إحدى عناصر القوة هذه ـ

القـوّة ذاتهـا الأكثـر أهميـة لعمـل المجموعـة المتفـق عليهـا . وخلافـاً لبقيـة المجموعات لا تحتاج النسـاء لوضع علاقة وقوة إحداهن في مواجهة الأخرى. يمكننا بسهولة أن نربح الاثنتين، ونبحث عن المزيد والأفضل من الطرق لاستخدام العلاقات كي نصعد القوة، والقوّة لتصعد العلاقات.

ولكي تستمد النساء القوة من العلاقات فإن ذلك يتطلب بوضوح تغييراً في شكل وبنية طبيعة العلاقات. إن المكونات الأساسية الجديدة في هذه العملية هي حرية الإرادة والقوة لتحويل الإرادة إلى واقع. لكن حتى قبل الوصول إلى هذه القضية الرئيسة فإن ثمة العديد من الأسئلة التي تواجه النساء: "إذا كنت أريد تحديد المصير فما هو فعلاً ما أريد أن أحدده؟ ماذا أريد؟ من أنا على أي حال؟ إن الصعوبة في الإجابة على هذه الأسئلة أدت إلى إحباط النساء . ويحصل هذا الإحباط عند النساء اللواتي يمتلكن القناعة بأن ثمة شيئاً خطأً متجذر عميقاً في الطريقة القديمة. إذا نظرنا إلى الأمر من الناحية التاريخية حيث تركزت حياة النساء كلياً على الآخرين؛ فإن من السهل أن نرى أن مثل هذه الأسئلة تحمل قوّة حجة خاصة تأتي من مكان خفي خاص بالمرأة. في الفصل التالي سوف ندرس هذه المسألة تحت عنوان عام هو الأصالة. ومن المهم هنا أن نلاحظ أن هذا النقاش عن أهمية العلاقات للمرأة هو بلا شك نقاشٍ مضنٍ. وهو ليس نقاشاً كاملاً لأي من المشاكل المعقدة ذات الصلة بالاكتئاب. إنه بالأحرى محاولة لحل ألغاز موضوع يحتاج إلى الكثير من الفحص الجديد . آمل أنه سوف يؤدي إلى المزيد من النقاش.

الفصل التاسع
الذات

الأصالة، الإبداع

كان تحقيق الذات، الأصالة عند النساء كما عند مجموعات أخرى من البشر أمراً يندر أن يجري الحديث فيه بجدّية حتى وقت متأخر بالرغم من أن ذلك يظهر جليّاً في اهتمامات أعضاء الثقافة المهيمنة. أن الأصالة والتبعية متنافرتان تنافراً كلياً. بيد أن نزعة غريبة على رأي الرجال في الأصالة قد عتمت على حقيقة أن العلاقات يمكن أن تؤدي المزيد بدلاً من القليل من الأصالة. يمكننا أن نوضح هذا بتتبع امرأة هي جين. وجين هي أم وعاملة في مصنع وكانت في وقتٍ من الأوقات تعيش في رفاهية. إن حلقات قصيرة من حياة نساء غير جين سوف توضح الأفكار الشائعة في هذا الموضوع في خضم التنوع الفردي للنساء.

الآن أشعر أن لدي مركزاً هو نفسي. أنا أستطيع أن أعبّر عن ذلك النوع من المشاعر بوصفها معارضة للأخرى (الطريقة الماضية في الشعور والتصرف). ما يزال الأمر صعباً؛ لكن حين أعبر عن ذلك المركز يكون شعوري مختلفاً جداً

يلخص قولها قصة طويلة. وتبدأ هذه القصة حين اتخذت خطوة جديدة ومهمة، كان ذلك عندما تتعامل مع الناس في العمل بشكل مباشر وصادق.

كانت جين قد استمرت في مراكمة مخزون النقد والغضب على زميلاتها العاملات في المعمل. ولأنها رأت الفجوة تتسع بينها وبينهن، استجمعت قواها أخيراً وحاولت أن تقول لإحدى النساء ماذا تفكر. كانت تلك هي المرة الأولى التي تعبّر فيها عن مثل هذا الشعور المزعج لأي شخص. وحين تذكرته وصفت تجربتها قائلة:

أدركت أنني كنت خائفة حتى الموت حقاً حين قلت لهذه المرأة مباشرة أنني كنت ساخطة عليها. لم أعرف ذلك من قبل. لم يسبق لي أن أزعجت امرأة من قبل. كنت قد فكرت دائماً أن من الأفضل أن أكون مع الرجال. كنت قد فكرت دائماً أنني أنسجم معهم. كان الرجال سهلين. لم يكن علي أن أتعامل معهم مباشرة. كان بوسعي دائماً أن أتخفى عنهم تحت شيء اسمه "امرأة".

كنت أعرف كيف ألعب اللعبة. كانت تضمن لي السلامة.

آه، أعلم أن رجالاً أحبوني بسبب نظراتي. إنّ نظرات فتاة جميلة تعزز الأنا عندهم. كنت دائماً أعرف أنني جميلة، وعادة الفتاة الأجمل بين من حولي، وكنت دائماً قادرة على اصطياد الرجل الذي أشاء.

كنت أعتقد أن النساء سخيفات. كنت دائماً مسرورة مع الرجال. أعيش تسلية جميلة وانسجاماً دائماً. إذا حصل أي خلاف مع رجل فإنني أتراجع بسرعة. لم يشكل ذلك الانسحاب دوراً إيجابياً. كان لدي

على الدوام ذلك الجانب الخفي المخيف الذي جعلني أشعر أنني لابد مخطئة بأي حال بصرف النظر عن نوع الخطأ. لذا لم أكن قطعاً أهدّد أي رجل، وليس لأي منهم مبرر أن يقلق مني.

كان الحال مختلفاً مع النساء. لم يكن بوسعي أن أخفي واستخدم تلك اللعبة مع النساء. لذا تجاهلتهن. لم يكن ذلك ذا شأن لي بأي شكل.

الآن لدي هذا المركز الذي أعرف وهو نفسي. لكنني فعلاً أتساءل: هل يستطيع الرجل تحمل المرأة التي تعبّر انطلاقاً من المركز؟ جو Joe (صديقها في ذلك الوقت) لم يكن قادراً على التحمل، مثله مثل أي رجل يفتقر إلى الثقة بالنفس قد يكون من يحتمل رجلاً يمتلك الثقة بالنفس، ويتمتع بمظهر جميل ولائق. لكن أنت تعملين أنني لست ناقدة اجتماعية، لكنني لا أرى الكثير من هذا النوع حولي.

يمكن رؤية بدايات الشعور المتزايد بالأصالة في حادثة تبدو صغيرة في حياة دوريس Doris، وهي امرأة كانت عند نقطة مختلفة جدّاً عن جين في الحياة. كانت محامية مثل زوجها. كانا يعملان معاً. وكان معظم من يعرفونهما يتفقون على أنهما كانا على قدر كبير من الجدارة. كانت دوريس تبدو هي "الشخص الأقوى" فبالإضافة إلى عملها كانت تعنى تقريباً بكل شيء في المنزل، وتساعد زوجها في القضايا الصعبة. كان جانب كبير من قوتها مستمداً من أنها كانت "عاطفية". حين كان يزعجها شيء كانت تبدو أن لديها القدرة أن تعود إلى مشاعرها وتعبر عنها، وتصل نسبياً إلى وضع جيّد من فهم الحالة وكيف يمكن أن تتعامل معها على خير ما يرام. وفي حين لم تكن قادرة دائماً أن تتعامل مع رب عملها أو زملائها بهذه الطريقة المباشرة فإنها "بعد أن

تـتخلص منهـا في المنـزل" كانـت قـادرة أن تـستنبط طريقـة لتعـالج أي حالـة تقريبـاً . لكـن دوريـس Doris كانـت قـد بـدأت في وقـت متـأخر تـشعر بـأن زوجها نادراً ما يحتمل صـراحتها في التعبير حيـث راح يتعامـل معهـا باسـتعلاء علماً بأنه لم يعبّر عن هذا الموقف بالكلام . وقد أغاظها هذا بشكل خاص لأنهـا كانت تعتقد أنها دعمته بطرق مختلفة .

إحدى الأمسيات ، وبعد أن كانت قد قضت يوماً قاسياً مع زملائها راحت تروي لزوجها كم كانت مزعوجة :

أصغى حوالي عشر دقائق . كان ذلك الحديث عن وجهة نظره . ثم قـال : "لا ولا تسـمحي لأولاد الحرام أن يزعجوك" . ذلك شيء أشك بـه . إنـه يبـدو جميـلاً ومسـانداً . لكنه في الحقيقة يعني "اخرسـي ، لقـد سـمعت مـا فيـه الكفايـة" . وفي العادة لم أكن أعبأ بمثل هذا ، لكنني هذه المرة لم أستطع ، وبعد أن كتمـت غيظـي لبعض الوقت قلت له مـا كنـت أفكـر . في البدايـة قـدم لـي اعتـذاراً ، "إن المسـألة مجرد تأخير" حتى أنه قال شيئاً مكملاً : "كنت فقط أحاول أن أقـول أنـك كنـت علـى صـواب دون شـك" . كانـت تلـك نقطـة لابـد عنـدها أن أسـكت بـسهولة . لكنني قلـت لـه أنـني أعتقـد أن هـذه مجـرد اعتـذارات . وكنـت أعتقـد أنـه كـان يقصد أنه لا يستطيع أن يفكر بمشاعري على هذا النحو .

بعد حوالي عشر دقائق اعترف قـائلاً : "أجـل ، لقـد سـمعت مـا فيـه الكفايـة" . وحتى ذلك كان تطوراً كبيراً لأن من الصعب عليه أن ينقض شيئاً قاله مرّة . يجب أن يكون دائماً على حق ، لذا فإن من الصعب عليه أن يعترف بـذلك . ومـن ثـم أسـهب في الحديث عن الموضوع . وقام بالتصريح والتعبير عن الموضوع برمته بـشكل مـا . كان لدي شعور جميل واستطعت أن أنام (كان الأرق إحدى مشاكل دوريس) .

في الماضي كان موضوع من هذا القبيل يفسح لي في المجال للشعور بأن معاملتي قد أسيئت. وكنت أبقى عابسة لبضعة أيام، وأشعر بسوء المعاملة وأنني على حق أكثر من الآخرين. ولم يكن ثمة من أحد يفهمني سواه. فكان يرسل رسالة ما ويشرع في تصرف رائع تجاهي بعد أيام. وتبدو الأشياء عادت على ما يرام من جددي. لكن المسألة لا تفتح من جديد قطعاً. هذه المرة لم أصل إلى شعور بأنني على حق. كان لك أفضل من شعور كذلك.

(دار الحوار بيني (المؤلفة) وبين دوريس).

ـ كيف كان شعورك حين فعلت ذلك؟

ـ خائفة، خائفة جداً.

ـ مم؟

ـ من هذا الغضب.

ـ هل هذا كل شيء؟

"أعرف ما تريدينني أن أقول ـ غضبي أنا بالذات. لكن لا أعتقد أنك محقة. أعرف جيداً حين أكون غاضبة، لذا أستطيع أن أقول لك أنني خائفة من غضبه. أنت مثل غيرك. الناس دائماً يعتقدون أنني قوية بحيث لا أخاف غضبه. حقاً كنت خائفة من غضبه. كان ذلك هو الشعور الحقيقي. ولعل الشيء الآخر الذي فكرت فيه فيما بعد أنني كنت خائفة من شعوري بأنني لست قوية ولن أسيطر على نفسي. تلك هي الصورة التي كان يتمناها لي الجميع. وأنا أبدو أنني بحاجة إلى أن أشجع نفسي. أفهم ذلك. أنا متأكدة أنني كنت فاقدة السيطرة. قد لا تصدقين ذلك. كان قلبي يخفق بقوة لكنني أدركت أنه لا ينبغي لي دائماً أن أستمر في هذا التظاهر".

تحدثت امرأة أخرى هي نورا عن نفس الموضوع. وبشكل من الأشكال كان السياق صعباً عليها بشكل خاص لأن هذا السياق كان مجموعة من النساء تنتمي إليها. مجموعة كانت قد أضحت حديثاً ذا أهمية خاصة كبيرة لها. كانت مجموعة تتمتع بمستوى عالٍ من الوحدة والشعور الطيب؛ لكن كانت نورا قد بدأت تدرك تدريجياً أن المجموعة تنظر إليها على أنها قوية. وكانت حين تريد أن تعبر عن بعض معاناتها "كنّ يملن إلى أن لا يدعنني أفعل ذلك". كن يصرفن النظر عن ذلك أو يأخذن المرء باستخفاف مع تعليقات مثل "الأمر بسيط، سوف تعالجيه جيداً" أو "أنت جيدة في معالجة ذلك".

أحست نورا أنهن كن بحاجة إلى أن يرينها قوية لأسبابهن الخاصة. لكنها كانت ترفض بشكل متزايد قبول هذه النظرة الزائفة وذات البعد الواحد عن نفسها، لقد تضاعفت الصعوبة التي كانت قد خبرتها لتوها عبر المزيد من مشاعرها المحبطة. وأخيراً نجحت في التعبير عن هذا الجانب فقط من شخصيتها عبر الصراخ "أنتن لا تتحن لي فرصة التحدّث". "أنتن لا تسمعنني. لا يهمني احتجاجكن. عليكن أن تسمعن ما أقول". وأظهر صراخ نورا صعوباتها الأولية في طرح الموضوع، لكنها كانت قادرة على شرح ما كانت تخشى.

الغضب غضبي أنا. لم أتصرف في حياتي قط على ذلك النحو، (كنت خائفة من) غضبهن أيضاً. لكن الأكثر من ذلك كان ثمة ضرب من الخوف بأنهن سوف ينهرن جميعاً أو يحصل لهن شيء من هذا القبيل. كنت كما لو أنني أخوفهن، أخذلهن. كنّ بحاجة إلى أن يمتلكن صورة عن امرأة قوية جداً. كنت قد شعرت على الدوام أن علي أن أحتفظ بصورة شخص قوي، حتى حين كنت طفلة ـ أي في أسرتي كما تعلمين. والآن هنا من جديد.

بيد أنني أعتقد أني بحاجة لأن أكون أنا نفسي حقاً، وأن أجعلهن يعرفن أنني الآن أقوى. كما أعتقد أيضاً أنني كنت أشعر "أنني إن لم أمضِ كي أناضل لأكون أنا نفسي هنا في هذه المجموعة، فإنني لن أفعل ذلك أبداً"، وعلى أي حال فإن الشيء العظيم هو أنهن لم ينهرن. كان ذلك هو الدرس الكبير لي ولهن في الوقت ذاته كما أعتقد.

الأصالة عبر التعاون

تعاني جين، أول امرأة وصفت هنا، شعوراً متمركزاً عميقاً بأنها لم تستطع أبداً أن تجعل أي شخص يسمع رغباتها، ولم تنجز أي شيء يتسبب في حدوث شيء يذكر. وكانت تعتقد أن أحداً لن يستجيب لها، "لم أستطع الوصول إلى أي شخص حين كان الأمر يهمني، ولم يكن ثمة شيء أستطيع أن أعمله، شيء يحقق فرقاً". هذه المشاعر مخيفة.

كانت هذه المشاعر عند جين قد نشأت في أسرة كانت محاولاتها القليلة فيها للتعبير عن نفسها عقيمة. لكن هذه المحاولات كانت قد أدت إلى هجوم والديها عليها. كان والداها من ذوي الطبع الحاد. أما شكل هجوم أمها فكان "هستيرياً"، وغالباً ما ينتهي بما يبدو لجين أنه نوع من انهيار كامل - زعيق، بكاء، اللجوء إلى فراشها، الإصابة ببعض الأمراض. وتقول أنها تتمنى أن تموت، وما شابه.

توضح قصة جين القوة الكامنة المختبئة غالباً وراء قناع من الضعف. ظهرت أنها ضعيفة. ظهرت أنها ضعيفة متشبثة برجل قوي. وعلى نحو متناقض

ظاهرياً كانت في أعماقها تخاف الضعف، ضعفاً كان يعني لها صورة أمها محبطة في حالة هستيرية، بائسة بشكل واضح لكن عاجزة تماماً عن فعل أي شيء يحدث تغييراً حقيقياً في حياتها. كانت جين تخشى بقوة أن تتحول إلى امرأة مثل أمها، وكانت تأمل أن تتحاشى ذلك مهما كان الثمن: لكنها لم تستطع أن تجد سبيلاً إلى قوة أكبر من قوة أمها بشكل مباشر. كان ينبغي أن يمر ذلك عبر الارتباط برجل قوي "يعمل لها كل شيء" لم يكن ثمة في تنشئتها أو مجتمعها ما يشجعها أن تتصرف لصالحها أو تبني إحساساً بفعاليتها الذاتية. ومثل غيرها من النساء قالت مرّة: "ليتني رأيت أمي قوية حتى لو مرّة واحدة. ليتني لمحت ذلك على أنه مجرد إمكانية لي".

المشكلة أن جين لم ترَ سوى بديل واحد لشخص عاجز معتمدة على غيره. كان هذا الشخص كائناً خائفاً. كان البديل شخصاً قوياً مكتفياً بذاته متحرراً إلى الأبد من الضعف والعوز. والأهم من هذا وذاك أن يكون متحرراً من تأثير الآخرين. كان باختصار صورة لرجل. كانت تعتقد أن لدى الرجال مناعة ضد هذه المشاعر المخيفة. لكن إشارة طفيفة في أن تكون مثل رجل كان أمراً مرفوضاً كلياً.

وبدلاً من ذلك ربطت نفسها بالرجال؛ لكنها ظلت خائفة ووحيدة مع هذه المشاعر. لم يقتحم عزلتها أي شيء يغيّر شعورها المتأصل في الضعف حتى قامت بخطوة تجاه زميلاتها العاملات. أخيراً تحدثت جين إلى إحدى النساء، بلانش Blanch. قالت لها إنها لم تكن تعتقد أنها (بلانش) والبعض من النساء يقمن بعملهن على نحو ملائم. وقالت أن هذا الأمر صعب عليها، وجعلها غاضبة. كما أن بلانش غضبت بدورها، واتهمت جين بأنها متعجرفة وأوضحت أن كل النساء

ينظرن إليها النظرة نفسها أيضاً. لم تعبأ جين بهن، فلماذا يقلقن منها؟ هذه التهمة تومي بأن النساء ربما يدركن بدقة ازدراء جين لهن واعتقادهن أنهن "سخيفات"، وتحفّظها الذي نشأ من خوفها الانخراط معهن.

لكن بعد الغضب المتبادل كان بوسع بلانش أن تقول: "أنا سعيدة أنكِ أنت من طرح الموضوع. لم يكن بوسعي أن أفعل ذلك، لكنني كنت منزعجة منك جداً".

النقطة المهمة هنا هي القوة الحقيقية في استجابة بلانش. فقد عبرت عن موافقتها على طرح جين لموضوع صعب وأقرت بجوانب القصور عندها. وحتى شكواها الصريحة عن جين تحمل رسالة احترام والتزام حقيقيين. فكل امرأة انتقدت الأخرى بصدق. وفي حين كانت المنازعات والمشاعر السلبية قد انقشعت بسرعة؛ فإن القدرة على أن تعود إحداهما إلى الأخرى لمعالجة المشاكل كانت قد بدأت بالظهور.

نتيجة لذلك عبّر عدد قليل من النساء في المعمل عن منغصاته وغضبه في حين كانت استجابة جين مخيفة وخرقاء في البداية. ومع الوقت بدأت الصراحة تنساب بسلاسة وحتى مع شيء من الدعابة. وبعد ذلك طورت النسوة في هذه المجموعة علاقة تعاون مدهشة. لقد عرفن نقاط ضعف بعضهن بعضاً في أوقات صعبة كثيرة لا تتصل بالمعمل فقط بل بحياتهن المنزلية أيضاً.

كانت جين ممتنّة بشكل عام لصديقاتها، وتلقت الكثير من العون من هذه العلاقة بحيث شعرت أنها ملزمة بمساعدة بقية النساء كلما كان بوسعهن ذلك. وحين بدأت تتعرف على بعض النسوة والأعباء التي يحملن أعجبت بقواهن. كان ثمة امرأة تعيل عدة أطفال وحدها، وأخرى لديها طفل مصاب بمرض مميت، وثالثة لديها طفل معاقٌ عقلياً.

العزلة

لم يتم إنجاز كل النمو والتطور السابقين بسرعة ويسر. لقد كانت جين منخرطة ببعض الصراعات الطارئة مع زميلاتها في العمل، ومع نزعاتها الشخصية، وكان جزء من هذه الصراعات قد نتج عن اكتشاف جين أنها تسعى إلى السلطة والقوة كأي شخص آخر. كانت قد حاولت الاحتفاظ بإحساس ما بالسلطة على النساء وبذلك تأمن شرهن. لكن وسائلها كانت منبوذة وموضع ازدراء. كان من اليسير عليها الحط من قدر النساء وتجاهلهن. علاوة على ذلك كان لدى جين تحالف مع "الرابحين" أي الرجال. هذا التحالف منح جين إحساساً داخلياً لكن خادعاً بالقوة و"العجز". فهي لم تكن واعية صراحة برغبتها الذاتية بالسلطة أو استخدامها للسلطة حتى دخلت في اشتباك مع زميلاتها. عند ذلك الوقت كانت واعية بشكل واضح لشعورها بالإخفاق وحاجتها إلى الرجال.

وجدت جين أنه كان بوسعها أن تقر بمشاعرها الخفية عن الضغط فقط بعد أن تعلمت أنها كانت تستطيع أن تفعل شيئاً يتعلق بهذا الضعف. وبعبارة أخرى فقط حين أظهرت اعتقاداً حقيقياً معيناً بقدرتها. لقد وجدت أنها بينما كانت تتابع التعامل معهن بمزيد من الصدق كانت قادرة أيضاً أن تتابع التعامل معهن بفعالية أكبر. هذه السلسلة أصبحت عملية مستمرة ومعززة. وربما يبدو هذا الوصف كما لو أنه نهاية كتاب قصة؛ لكنه وصف حقيقي. إن قدراً كبيراً من الحصيلة كان يعتمد على قدرة بقية النساء كي يستجبن بشكل جيد وصريح. والواقع أن الخلافات ما تزال قائمة. فالنساء لا يشتركن في نظرة واحدة. لكنهن يستطعن قبول خلافاتهن ويلتقين على لغة مباشرة. جين تعمل

في عمليها - عاملة في معمل وأم في منزل. لديها عقبات ومشاكل حقيقية عليها أن تواجهها. ومع ذلك فهي تقول: "وكان لكل شيء ملمس خاص به. إنه أنا". أعتقد أن ما تتحدث عنه هو الأصالة.

إن العاملين الهامين هما: - جين وجدت طريقها الخاص إلى عمل مؤثر من أجل ذاتها، وقد وجدت هذه الطريق عبر عودتها إلى الآخرين. هذان العاملان يساعدان الآن بعضهما البعض الآخر. - طيلة الفترة التي وجدت جين فيها نفسها اتكالية ومتشبثة بالآخر كانت وحيدة ومنعزلة. وبشكل متناقض، كما قد يبدو، تحاول أن تأخذ ذلك على عاتقها وحدها بأن تضع نفسها في مستوى نظيرها "الذكر المنيع"، وبالسماح لنفسها الانشغال مع الآخرين اكتشفت أنها قادرة أن تكون فعالة من أجل ذاتها. وتابعت انتقالها إلى قوة أكبر، لكنها تابعت كجزء من عملية الالتفات إلى الآخرين. إنها في آن واحد أقوى بكثير بذاتها وأكثر قدرة على وضع ثقتها في الآخرين بشكل أقوى. وبمعنى ما تأخذ مثابرتها على عزلتها الكثير من القوة. لكن القوة هي التي شوهتها. أما الآن فهي تؤمن بشكل مطلق بحاجتها إلى الآخرين. والواقع أنها تجد متعة في العثور على ذلك الشخص "الذي يستطيع أن يعمل لي هذا". وفي الوقت ذاته لديها إحساس متنامٍ جداً. بإحساسها بذاتها.

الأصالة الجنسية

ماذا عن علاقة جين مع الرجال في أثناء هذه الفترة؟ لوقت ما لم تكن جين متيقنة بعد فيما إذا كانت حقاً تتصرف "من صميمها" أم أنها تلتزم بالطريقة

القديمة. كانت تشعر أن العلاقة مع الرجال مربكة. ومن الممتع أن بعضاً من أكثر الأوقات حيرة كانت هي "الأوقات الطيبة" حين كان بوسعها أن تتفق مع الرجال. لم تكن بعد متأكدة إنْ كان بوسعها أن تثق بكياستها. هل كانت تسقط في اللعبة القديمة السهلة؟

في وقت لاحق، التقت رجلاً بدا أنه كان فعلاً يسر "بالنواحي الجديدة" لديها. كانت أكثير يقيناً أنها لم تعد "تصمم نسختها للأشياء كي تكون مناسبة" لما كانت تظن أن رجلاً يبحث عنه. وكان الأمر يعود إليه في أن يحب ذلك أو لا يحب. وكان حتى الآن يحب أو يبدو أنه يحب ما تفكر به، تعتقد جين أنها قد تحبه فعلاً، لكنها غير متأكدة حتى الآن. ما يزال ثمة الكثير لتكتشفه وتستنتجه لنفسها حول الكيفية التي تريد أن تكون عليها، وحول ما تريد أن تكون. وقد يظهر لها أنه ليس ذلك الشخص الذي أرادت أن تقيم معه علاقة.

ثمة أيضاً قضية الجنس. في الماضي كانت جين تشعر "أن الرجال الأقوياء فقط هم من يجذبونها"، وحين تغيرت نظرتها بكاملها، وبدأت فكرة الرجل القوي تشع بألقها القديم راحت تتساءل عما إذا كان بوسع أي شخص أن يجذبها جنسياً. لكن مع الوقت دخل الجنس في الصورة. وصلت المشكلة المخيفة دون قدر كبير من العناء.

لعل من الصحيح تماماً القول إن إحساس جين بمعنى القوة تضمن دلالات مختلفة، وافترض مكاناً مختلفاً في الصورة برمتها. لم يعد لديها اهتمام ملزم بالصورة النمطية للرجل القوي؛ لكن من المؤكد أنها معنيّة بالرجال الذين يتمتعون بقوة ذاتية. كانت لديها القدرة لكي تكون أكثر تحرراً وانخراطاً في

الجنس مع رجل يعرف كلاً من نقاط قوتها وضعفها والقادر بالقدر نفسه أن يشاركها جوانب شخصيتها المتنوعة.

كان ثمة امرأة أخرى هي إيملي Emily التي كانت أيضاً تطور إحساساً بجوهرها عبر عملية تشبه عملية جين. فهي كذلك تستمتع بالتصرف "مثل نفسها" بصدق وبشكل مباشر. وكانت تجد في الخبرة مصدراً جديداً وكبيراً للطاقة. كذلك التقت أخيراً رجالاً بدوا لها أنهم يستجيبون "لذاتها الجديدة"، لكن حالما أصبحت منخرطة معهم جنسياً بدأت تفقد الإحساس بذاتها. (لا أكاد أشعر أنه ينجح بدنياً. إنني أنزلق في قالب انفعالي قديم. ليس لدي ما أقول عما يحصل. إنه يحصل لي فقط).

ثمة عدد من الأبعاد لهذه المشكلة. أحد هذه الأبعاد هو قبولها ممارسة الجنس وإمتاع نفسها به. وكانت هذه المشكلة قد نشأت من اندماج مشاعر قديمة تنظر إلى الجنس على أنه قذر وغير أخلاقي. (هذه المشاعر ما تزال موجودة معنا إلى درجة كبيرة حتى في هذه الأيام من الثورة الجنسية). إذا كان ثمة من امرأة ما تزال تعتقد حتى رغماً عنها ـ أن الجنس شيء سيء فيكون عندئذ من الأيسر ممارسته (دون الاستمتاع به) إذا كان بوسعها أن تذعن وتستجيب فقط، وذلك من أجل الآخر فقط". هذا الوضع هو جزء من تاريخ مما كان يفترض بالمرأة أن تفعل وتشعر. لكن ذلك لا يتوافق مع ما تريد إيملي وتحب أن تنجز في ميادين أخرى.

هناك بعد آخر إضافي في قضية الجنس عند إيملي. فلكي تكون هي ذاتها في ممارستها الجنسية ترى أن الجنس هو التوكيد النهائي أن "ذاتها الجديدة"

موجودة فعلاً . بعبارة أخرى سوف "تثبت" أنها حقاً قادرة أن تكون ذلك الشخص الذي تلمحه الآن . إن ذلك سوف يتيح لها أن تطلق كل طاقاتها المقموعة وتوجهها نحو أهدافها . وبمعنى آخر إن ذلك سوف يكون "غاية استقلالية" . وهي غير قادرة تماماً على مواجهة هذا الاستقلال . فهو يبدو مخيفاً لكنه في الوقت ذاته يعني أنها ما تزال تطلب من رجل أن يثبت أن ذاتها الجديدة موجودة ، أي ليعطيها وثيقة إثبات عبر الاختبار الأخير ، أي تحققه من المتعة الجنسية .

كان شعورها لفترة من الزمن بأنها ألقيت ثانية في القالب القديم الذي قلب إيملي ضد الجنس وأحبطها . وفي نهاية المطاف كانت جين قادرة على تصنيف القضايا الخاصة بها . فهي لم تعد تحتاج الرجل أو حتى الجنس نفسه لكي تثبت أن "ذاتها الجديدة" موجودة حقاً مع أن وجودها أمر طيب . وبدلاً من ذلك كان يمكن أن يكون الجنس أحد التعابير عن مشاعرها وعن ذاتها بكليته . والآن ترغب إيميلي وتستطيع أن تقول إنها اتخذت موقفاً حازماً في توجيه نفسها ، ويمكنها الآن أن تقرر إذا كان ذلك جيداً في العلاقات الجنسية لكي تتيح لنفسها أن تتحقق وتزدهر . لقد تحركت خطوة كبيرة بعيداً عن المطالبة بأن يقوم رجل بذلك من أجلها ؛ أي عبر الإثبات الجنسي .

من ناحية أخرى تواجه جين خطوة مختلفة في هذا الوقت . إنها تعلم أن علاقتها الجيدة قد تتسبب في مصاعب إضافية . فإذا ما وصلت إلى درجة تحب عندها هذا الرجل فسوف تقع تحت إغراء أكبر لكي تعطيه وتعمل من أجله هذه الأشياء سوف تصبح سهلة عليه .

عندئذٍ قد يكون من الأصعب أن أعرف إن كنت أتصرف انطلاقاً من ذاتي أم لا. (إن مجرد الشعور بحاجتها إلى أن تعمل من أجل قد يزداد).

أريد أن أعمل أشياء من أجله، لكنني أريد أن أعرف لماذا أعملها ـ إما لأتجنب أن أكون أنا ذاتي أو لأنني أكون أنا ذاتي.

تفكر أحياناً أنها قد يكون عليها أن تؤجل أي علاقة جدية مع رجل حتى يكون بوسعها أن تتأكد بوضوح تام من دوافعها. لابد أن يأتي وقت تشعر فيه أنها متأكدة من نفسها، وعن ذلك تقول:

أعتقد أحياناً أنني أحصل على الاثنين متمازجين لكنني سرعان ما أستطيع أن أعود إلى معرفة فيما إذا كنت أتصرف انطلاقاً من صميم ذاتي، حين أشعر أنني لا أفعل ذلك أستطيع أن أجد وسائل العودة إليه.

الخطوات الأولى

يجد الكثير من النساء اليوم أنفسهن في وضع شبيه بوضع جين في بدايته. كانت تعلم ما لم تكن تريد؛ أي أن تسقط في علاقة أخرى مثل زواجها بواحد من "رجالها الأقوياء" الذي خذلها. وفكرت في الوقت نفسه "أنه ينبغي لها إقامة علاقة ما مع شخص كي تعيش".

إنها بهذا تقصد رجلاً، رجلاً لا يخذلها. لكنها هي نفسها لم تكن تعرف ما تريد. هذا ليس غريباً جداً حين نفكر بامرأة ذات ظروف تتناقض بكاملها مع ما تكتشف أنها تريد.

أما الآن فإن الافتقار إلى رغبة محددة بذاتها هو إحباط للعديد من النساء. إن هذا يمثل في جوهره نوعاً واحداً من "اتخاذ القرار" مع أنه قرار غير

مفهوم. فإذا لم تكن تعرف ما تريد فإن بوسعك أن تتحاشى المجازفة بالحصول عليه، وهذا عند النساء مجازفة خطرة. لكن الإقرار بهذا وحده ليس شيئاً مساعداً كثيراً. فالنساء يجدن أن عليهن أن يبدأن استكشاف أفكارهن ومشاعرهن أيّاً تكن، ومن أين يبدأن.

في مستهل هذه العملية غالباً ما تكتشف النساء الكثير من المشاعر التي تبدو أنها ذات شأن مهم. إن من الصعب جداً تحمل مشاعر وأفكار لا يستطيع المرء أن يدخلها بشكل ملائم في إطار من المفاهيم. هذه التجربة تستدعي على الفور نوعاً واحداً من الإبداع، وهو إبداع وإعادة لأنواع من التفكير، واقتراح العديد من الأشياء التي لم تكن مقبولة ولو كموضع تفكير في السابق. وهذا موضوع سوف يناقش بالتفصيل في نهاية هذا الفصل. وعلى نحو آخر فإن ثمة الكثير من النساء اللواتي يختبرن في البداية "مشاعر سلبية فقط" مثل الغضب والاستياء والكراهية وما شابه. وغالباً ما يضفن مزيداً من النقد لأنفسهن لأنهن يعتقدن أن مشاعرهن ذات أساس سيء. ومن المهم جداً أن ينظر إلى هذه المشاعر على أنها ملائمة وضرورية في أكثر الأحيان. قد يكون الغضب إحدى أولى ردود الفعل الأصيلة. فبالرغم من أنه ليس شعوراً ساراً تقليدياً؛ فإنه قد يقدم ضرباً من المتعة الخاصة به بسبب واقعيته القاسية التي لا يمكن نكرانها. قد يكون الغضب عامل تعبئة وتقوية مع أن بوسع المرأة أن تضيف عوامل أخرى إلى ذلك.

هذه النقاط لما يشبه الإحباط كلها مهم كأمثلة على ضروب القضايا التي تواجه المرأة. وفي حين لا نستطيع إكمال قائمة المشاعر؛ فإن ما

ذكرناه ليس سوى بعض المشاعر الشائعة التي تواجهها المرأة حالما تنطلق في دربها نحو الأصالة.

المخاطر - كان على كل امرأة وردت في أمثلتنا أن تقدم على مجازفة كبيرة، مجازفة كانت صعبة عليها بشكل خاص بالرغم من أنها قد لا تبدو كذلك للآخرين. لهذه الأنواع من المجازفات مكونات معينة تشترك فيها غالبية النساء. فكل امرأة كان عليها أن تجازف بالتركيز على رغباتها وحاجاتها حتى لو كان ذلك يعني إزعاج الآخرين، كما يبدو أن ذلك قد يعني. والآخر المهم في الغالب هو الشخص الذي تودع المرأة لديه ارتباطها العاطفي الرئيس. فإذا كان هذا الشخص هو الذكر فإن مصادر عيشها ومكانتها الاجتماعية ستدخل في إطار هذه العلاقة أيضاً.

حين يفكر الكثير من النساء بالتسبب في إزعاج شخص آخر - خاصة إذا كان رجلاً - فإنهن يعددن ذلك تخلياً. والمجازفة هنا بالمعنى النفسي ومدى التأثير تصبح مجازفة بالتخلي والإدانة. (ستتخلى المرأة لأنها كانت سيئة وعلى خطأ) لكن سواء كان الرجل يريد أن يتخلى عنها حقاً أم لا فإن المرأة مهيأة لكي تشعر أنها ستقدم على فعل ما تريد. وغالباً ما يكون هذا أكبر مجازفة وأكبر مصدر للخوف. والواقع أن الرجل، في بعض الحالات، لا يترك المرأة تتابع مسيرة حياتها، وفي حالات أخرى تكون المرأة نفسها هي من يتخلّى، وقد تعثر على علاقات أخرى بشكل كامل. لكن العامل الحاسم هو أن على المرأة أن تقدم على المجازفة الأولى بوصف هذه الخطوة مجازفة نفسية. فإذا لم تقدم المرأة على هذه الخطوة فإنها في غالب الأحيان لا تستطيع أن تبدأ رحلتها.

فالمرأة تستطيع أن تتحرك نحو التفكير في النوعية الحقيقية لعلاقاتها وكيف تطورها أو تغيرها بدلاً من التفكير أولاً بإرضاء الآخر وتلبية رغباته وآماله لأنها بهذه الطريقة تبدأ بالتعرّف على نفسها. لكن مثل هذه الخطوة ما زالت خطوة ضخمة في ظل الحقائق الاقتصادية والنفسية في الوقت الحاضر.

إن إحساس المرأة بإرضاء ذاتها بات أمراً نادراً لدى معظم النساء. وحين تحقق امرأة ذلك فإنه يعد متعة وجدت بعد فقدانها. وكثيراً ما تستمر المرأة في إبداع علاقات متصاعدة لكن إذا كان دورها أن تضمن العلاقة أولاً فإنها لا تعثر على بداية الطريق. أعتقد أن هذا يعود إلى أن علاقة الذكر ـ الأنثى قد بنيت بقوة لحرف المرأة بعيداً عن استجاباتها الطبيعية. في الماضي كان يحصل هذا الحرف تلقائياً تقريباً حتى قبل أن تتشكل العلاقة بين الرجل والمرأة.

إضافة إلى هذا فإن "إرضاء الذات" يجعل جزءاً من متعة جين وغيرها من النساء اللواتي يعشن هذه التجربة يتمتعن بمزيد من الحرية بأن يكن ذواتهن وأن "يُتِحْنَ" بل ويستمتعن بأن يكون الآخرون هم أنفسهم. حين يتصرف المرء على هذا الأساس فإنه لا يريد أن يستغل الآخرين ولا يطالب أحداً بأن يكون شخصاً آخر. وبدلاً من ذلك يمكن للمرء أن يكون هو نفسه بحرية أكبر في خضم علاقات كثيفة مع الآخرين.

تقدم دوريس Doris وزوجها مثالاً بسيطاً لهذه الحرية العاطفية المتبادلة. حين يقصد "أن تخرس" يقول "الآن اخرسي" كما أن دوريس تجادله بدلاً من أن تسمح له بأن يشعر بأنه أكبر وأقوى "وعلى حق". لقد وضع كل منهما جانباً من التدابير المباشرة والمحكمة التي بوساطتها كان يسيطر

أحدهما على الآخر ويقمعه. إنهما يستطيعان أن يحترم ويُسر أحدهما الآخر الآن أكثر لكن أياً منهما لم يعد يجبر الآخر على اتخاذ مواقف معينة.

الإبداع والمكان الذي نتجه إليه

الإبداع الشخصي عامل ذو أهمية قصوى لعلنا بدأنا نقدر هذه الأهمية بشكل نادر. من المظاهر المثيرة للحماس الراهن الذي تبديه المرأة هو حقيقة أنها تناضل من أجل الأصالة. فهي تبدع وتنير إبداعها الشخصي بشكل متزامن. وبتصرفها على هذا النحو توضح الإبداع الذي يستمر في صراعه بطريقة خفية أكثر لدى جميع الناس وفي جميع الحالات والأوقات.

فالإبداع الشخصي هو عملية مستمرة في تحقيق رؤية متغيّرة للمرء عن ذاته، ورؤية عن ذاتها في علاقتها مع العالم. انطلاقاً من هذا الإبداع يحدد كل منا خطواته أو خطواتها التالية مع توفر الدافع لاتخاذ هذه الخطوة.

ولابد لهذه الرؤية من أن تعاني تغيراً متكرراً وإعادة إبداع. في أثناء الطفولة والمراهقة أيضاً ثمة تغيرات بدنية مستمرة تفضي إلى مزيد من الخبرة، مزيد من الإدراكات، مزيد من العواطف، ومزيد من التفكير. ومن الضروري أن تتكامل كل هذه في مفهوم متماسك ومتنام باضطراد في حياة المرء.

يجمع كل شخص بشكل متكرر هذه العناصر في تصور لم يكن قد حصل سابقاً. هذا يعني أن المرء يبدع رؤية شخصية بشكل دائم. ورغماً عن كل مجتمعنا فإن كلاً منا وكل يوم يبدع محاولته الخاصة لوضع عناصر الصورة معاً. هذه الصورة ليست هي ذاتها عند أي شخص آخر، ولا يمكن أبداً أن تكون

مثيلة لصورة الأمس. ومعنى هذا أن كلاً منا يعيد مواجهة الضرورة بشكل متكرر كي "يحطم الصورة الكلية" كما وصفها ماكس ويريثمر Max Werhteimer . وفي أفضل الأحوال لن تكون مفاهيمنا انعكاساً دقيقاً لما خبرناه وكيف نشعر ونفكر في هذه الخبرة. وكلما استطعنا الاقتراب من هذه الأصالة المثالية كلما أصبحنا أفضل. وكلما كان بوسعنا أن نتصرف في ضوء مفاهيمنا كلما شعرنا بالكمال والأصالة. وحين نتصرف يمكننا أن نعود و"نصحح" مفاهيمنا عن العالم، عن أنفسنا، عما نريد.

من الصحيح أن الطرق عينها التي نكتشفها لصوغ الخبرة في مفاهيم هي بمعيار كبير تُقَدّم لنا عبر الثقافة التي نتعلم منها "كيف نفكر ونشعر"؛ بل نتعلم ما هو التفكير والشعور. لكن الناس أيضاً يقاومون ضد الحدود التي رسمتها ثقافتهم، ضد التصنيفات التي تقوم ثقافتهم بتجديدها، ويبحثون عن وسائل تساعدهم على أن يفهموا ويعبروا عن العديد من الخبرات التي لا تفي بها ثقافتهم. هذا ينطبق على جميع الناس. وهو عامل مهم عند المرأة الآن. وكما رأينا فإن ثمة عوامل جوهرية تقف وراء الأسباب التي تجعل المرأة لا تجد بسهولة في متناول يدها وسائل للتعبير عن خبرتها وصوغها في مفاهيم. بيد أنها تكافح للعثور على هذه الوسائل. وبهذه الطريقة أيضاً يمكن لمسعى المرأة الراهن أن ينير الحوادث العقلية الخفية التي تحصل عند الناس جميعاً.

من الصحيح قطعاً أن الظروف الاقتصادية عبر التاريخ قد أجبرت وما تزال تجبر معظم الناس أن يعيشوا حياة شاقة. كما أن من الصحيح أيضاً أنه حتى في أكثر الظروف جوراً يظل العقل الإنساني في حالة دائبة من النشاط،

ويقدم المعاني للحياة، ويحاول أن يجعلها قابلة للفهم. وبلغة العصر لا يبدو العقل "منظومة مغلقة"؛ بل منظومة قادرة على توسع لا نهائي. وكلما كان بوسع العقل أن يتمكن من الارتباط بما يختبره فعلاً كلما تحسن الإبداع المتأصل فينا. وكلما ازدادت الفرصة التي نمتلكها لتوظيف إبداعاتنا كلما زادت قدرتنا على أن نشعر ونفكر بشكل شامل.

إن التأثير المثير والمنير لخبرات المرأة التي ناقشناها يمكن أن تلقى التقدير حين ندرك أنها على الحافة القاطعة لرؤيةٍ أحدث وأكبر. فإبداع المرأة الشخصي هو ضرورة مطلقة في محاولة العثور على طريقة للعيش الآن. والمرأة التي تكتشف طريقة التعامل مع خبراتها التي تشعر بها بعمق تبدع في الوقت ذاته رؤية عامة جديدة أخرى للنسوية. ولكي تزدهر هذه الرؤية فإنها وبقية النساء سيكون عليهن أن يقمن مؤسسات لتوسيع هذه الرؤية ودعمها. عند هذه النقاط بالضبط يرى المرء أن الدافع الحقيقي لشكل جديد من العيش ينشأ اليوم عند النساء من حاجات شخصية تشعر بها النساء بقوة. أما طرق إنجازها هذا الشكل من العيش فإنها ستكون أيضاً طرقاً نسائية لأن إنجاز طرق للعيش تتواءم مع حاجات النساء كافة يصبح من المحتم انها سوف تنطوي على المزيد من التبادل والتعاون والترابط على المستوى الشخصي والاجتماعي الأكبر في آن معاً.

لم نتعامل هنا مع النساء اللواتي حققن بوجه خاص تقدماً في إحساسهن بمن هن وماذا يردن. فالواقع أن ثمة نساء اليوم يتميزن بقدرتهن على التصرف على أسس من إدراكاتهن وتقويماتهن الخاصة. نساء قطعن شوطاً بعيداً على طريق إبداع أسلوب جديد للعيش. هؤلاء النساء لديهن إيمان راسخ وقوي

بجدارتهن وبحقهن في تطوير الذات وتحقيق الأصالة. إن لدى البعض منهن خلفية من الإنجاز السامي، ولدى البعض الآخر إحساس بالنضال كمجموعة، وتنطلق هذه المحاولة من النقاط التي يمكن أن تنبثق منها الحركة إلى الأمام. لذا تصبح الحوادث في حياة نساء معينات أمثلة في المحاولة للحديث عن هذه القوى. لكن جزءاً من أسباب القيام بذلك هو الأمل في الإثبات أن الحاجة إلى الأصالة والإبداع لا تنتمي حصرا إلى النخبة المتقدمة والمتعلمة لأن هذه القوى تستنفد بطرق شتى من أجل النساء وفي ظروف مختلفة، بيد أنها ضرورية لنا جميعاً.

نسمع في وقتنا هذا قدراً كبيراً عن افتقار الناس إلى الأصالة، أما ما لا نستطيع أن نسمعه بوضوح فهو أن السعي إلى الأصالة لدى نصف الناس يتطلب مجازفة واضحة ومباشرة. وحين تتصرف النساء وتستجيب لتصرفات الآخرين انطلاقاً من ذواتهن فإن ذلك يعني أنهن يتمردن على تعريفهن المحدّد والطريقة التي حددت لهن العيش. لذا فإن التحرك نحو الأصالة ينطوي على الإبداع بطريقة شخصية ضاغطة ومباشرة. ويبدأ نسيج حياة الشخص يتغير برمته ويراه المرء في ضوء جديد وكما تعبر عنه إحدى النساء بقولها: "مازلت أرى كل شيء بمعنى مختلف الآن. أشعر معظم الأيام كما لو أنني أكتشف طريقي من جديد. إنني لا أتبع النص الذي اعتدت عليه". هذا الإبداع الشخصي العميق جداً والجديد لا ينطوي على علاقات إرشاد بل غالباً ما يكون ثمة غضب وقلق. لكن ثمة كذلك الرضا الواضح والفرح على طول الطريق حتى قبل وقت طويل من وجود شيء مثل الإحساس بإكمال المسيرة.

الفصل العاشر

كل هذا، لكن لا يكفي

تكاد "السلطة" تكون كلمة قذرة. وهي بشكل ما تشبه ما كانت عليه كلمة "الجنس". ففيما يتعلق بالمرأة، على وجه الخصوص، كانت موضوعاً لا يمكن التطرق إليه. إلا أن كل نقاط القوّة التي نوقشت في الفصول السابقة سوف تظل "غير حقيقية" ولا يمكن إدراكها ما لم تمتلك المرأة السلطة لتضعها موضع الفعل المؤثر. ولكي تكون قادرة أن تفعل ذلك فيكون عليها أن تكتسب القوة والسلطة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ففي الوقت الحاضر لا تمتلك المرأة أيّاً من هذه.

إن الخطة العامة والإجراءات المرحلية لبلوغ عمل مؤثر على الجبهات الاقتصادية والسياسية تتطلب تحليلاً وحواراً موسعين. ويتم بذل جهد من هذا القبيل في أماكن عديدة. وللتوحد مع هذا الجهد لابد من طرح سؤال عن الطبيعة والمعنى النفسي للسلطة والاستقلال الذاتي خشية أن نخطئ في وصف ميزات المرأة ومسؤولياتها إزاء هذا الكفاح. إن مصطلحي "سلطة" و"استقلال ذاتي" قد اكتسب مفاهيم ومضامين معينة. هذا يعني أنهما ينطويان على أنماط من السلوك تنطبق على سلوك الرجال أكثر من النساء. لكن قد تكون الحقيقة

أن هذه الأنماط ليست ضرورية وأساسية لمعنى المصطلحين المذكورين. ومثل كل مفاهيم وتصرفات الفئة السائدة يمكن أن تكون "السلطة" قد شُوهت وحُرفت. فقد استقرت بشكل حصري تقريباً في أيدي أناسٍ عاشوا ومازالوا يعيشون وهم بحاجة مستمرة للاحتفاظ بسيطرة غير عقلانية، وعلى أيديهم اكتسبت "السلطة" سمة من الطغيان. وعلى نحو مماثل كانت فكرة الاستقلال الذاتي عند الفئة السائدة قد بنيت على قاعدة شملت بنسبة واحدة تقييد الفئة الأخرى.

هذا ليس استقلالاً ذاتياً بالمعنى الصرف بل مفهوم جوهري اكتسب المعاني الجوهرية لطبيعته الحقيقية؟ أي علامات لعملية خفية أخرى.

لذا فإن من المهم أن نتفحص بعض معاني السلطة والاستقلال الذاتي لنرى فيما إذا كنّا كنساء نكافح في الميادين الاقتصادية والسياسية وغيرها، وفيما إذا كنا قادرات على تحديد معنى السلطة والاستقلال الذاتي.

السلطة

يمكن، بشكل عام، تعريف السلطة بالنسبة للنساء بأنها "القدرة على الإنجاز". إن قسماً كبيراً من هذه المهمة هو وضع قدرات النساء التي يمتلكنها موضع التنفيذ. كما أن ثمة حاجة للاستفادة من القدرات الجديدة التي تطورها النساء. هذا لم يكن معنى "السلطة" في الماضي. فالسلطة بشكل عام كانت تعني وما تزال القدرة على تطوير الذات والسيطرة والكبح، وإن كان بالإمكان تدمير سلطة الآخرين وقواهم. هذا يعني أن السلطة حتى الآن لها مكونان: السلطة من

أجل الذات والسلطة، والسلطة على الآخرين (ثمة تمييز مهم بين القدرة في التأثير على الآخرين والسلطة للسيطرة عليهم وكبحهم). لقد كان تاريخ المنازعات على السلطة قائماً على هذه الأسس. فقدرة شخص آخر أو فئة من الناس كان ينظر إليها باعتبارها خطيرة. كان عليك أن تسيطر عليهم أو أنهم سوف يسيطرون عليك. لكن في دنيا التطور الإنساني لم تعد هذه الصيغة صحيحة. أصبح الوضع مقلوباً تماماً. وبالمعنى الجوهري كلما تطور الفرد أصبح أقدر وأكثر تأثيراً وأقل عوزاً للتحجيم أو الكبح. لكن لا تبدو الأمور تسير على هذا النحو.

لم تأتِ النساء من خلفية عضوية في فئة كانت تعتقد أنها بحاجة إلى تابعين. كذلك ليس لدى النساء تاريخ من الإيمان بأن سلطتهن ضرورية للمحافظة على صورة الذات. لكن لدى النساء مشاكل خاصة بهن تتعلق بالسلطة. فانعدام خبرة النساء في استخدام كل سلطاتهن اليوم بالاتحاد مع مخاوفهن من السلطة تتخذ الآن أشكالاً جديدة. فبينما تنخرط النساء في نشاط ومجال واسعين فإنهن يواجهن ضروباً من صراعات السلطة والمنافسين. فمعظم النساء غير متمرسات بالأشكال و(التقاليد التي بوساطتها خلق الرجال متنافسين منذ الطفولة). (جين، على سبيل المثال، تحاشت صراعات على السلطة مع أفراد من كلا الجنسين). وقد تكون مشاعر النساء بشكل خاص ما تزال مادة خام في هذه العوالم. وقد تكون بعض الحالات محبطة جداً.

مع ذلك لا يمكن القفز فوق الصراعات. إنها ميادين مهمة يجب أن تحظى باهتمام النساء. وقد يقترف البعض أخطاء في سياق التعامل معها. لكن ثمة عوامل جديدة أيضاً. لقد أبدعت النساء أشكالاً للامتحان الأكثر انفتاحاً

وتعاونـاً. هـذا الامتحـان يعنـى برغبـاتهن وجوانـب القـصور لـديهن في عـوالم الصراعات. إن الكثير من النسـاء يستطيع أن يلتفت بسـرعة كبيرة إلى الآخرين يحدوه الأمل بالتعامـل مع هـذه المجالات. إن بوسـعهن أن يـستخدمن قـدراتهن لدعم بعضهن بعضاً حتى حين يطورن طرقاً أكثـر فعاليـة وتلاؤمـاً في التعامـل مع السلطة وذلك من خلال تـصنيف استخدامها الملائم والاستجابة لاسـتخدامها غير الملائم لديهن ولدى الآخرين.

لابـد مـن مواجهـة مـسائل الـسلطة لأن ثمـة عوامـل صـراع بـين النـساء أنفسهن. من المهم قبل كل شيء دعم التفاهم بـين النـسـاء أنفسـهن، والإقـرار بأن النساء لا يحتجن إلى إضعاف غيرهن من النساء. ولهذا لا تحتاج النساء إلى تـبني صـفاتٍ مـدمرة ليـست بالـضرورة جـزءاً مـن سـلطتهن الفاعلـة. بـل كانت مجرد صفات وظيفتها المحافظة على نظام المهيمن ـ التـابع. إن النـساء بحاجة إلى السلطة لدفع تطورهن إلى الأمام. لكنهن لا "يحتجن" الـسلطة للحد من تطور الآخرين.

لكن النساء يبدأن من وضع أصبحن فيـه تحت الـسيطرة. إن الخـروج مـن هـذا الوضـع يتطلـب قاعـدة لـسلطة تنطلـق منهـا الخطـوة الأولى؛ أي لمقاومـة محاولات السيطرة عليهن وتحجيمهن. وتحتـاج النـساء أن يتـابعن الانتقـال مـن هذه الخطوة إلى مزيد من السلطة.

السلطة لجعل التطور الكامن ممكناً. ومن المهم التشديد على هذه النقطـة. أمـا الفئـات المهيمنـة فإنهـا تـنـزع إلى وصـف مقاومـة التـابعين الـصغيرة الأوليـة للسيطرة السائدة بأنها مطالب لتحقيق قدر مفرط من الـسلطة. (وكمثـال علـى

ذلك اليوم: عندما يبدأ التابعون بالخطوة الأولى، برفض إحضار قهوة المكتب فإنهن يعاملن كما لو أن لديهن الآن سلطة على رب العمل).

كما أن ثمة شكلاً تم فيه تشويه السلطة كما رأيناها تعمل حتى الآن، لقد عملت دون قيم خاصة يمكن للنساء أن يضفنها إليها. فالواقع أن الصفات النسوية بدت بلا معنى أو تأثير على "حقائق" السلطة في العالم. وأنا هنا لا أقترح على النساء أن يلطّفن أو يحسّن السلطة؛ بل بدلاً من ذلك تستطيع النساء من خلال تشاركهن تقوية أداء السلطة بشكل ملائم.

تستطيع النساء أن يجلبن مزيداً من القوة إلى السلطة باستخدامها عند الحاجة لا باستخدامها بديلاً ضعيفاً لفتح المجال لافتراضات مغلقة. والهدف في نهاية المطاف هو اندماج المجال برمته من مكوناته التي هي السلطة الفاعلة والقوى النسوية كما نسعى إلى تعريف هذه القوى.

الاستقلال الذاتي

تأتي المرأة من وضع حدّد فيه الآخرون طبيعتها. كانت ذاتها قد حُدّدت بكاملها تقريباً من خلال ما تعتقد الثقافة السائدة أنها تحتاج من المرأة. ونتيجة لذلك حثت المرأة أن تكون كذلك. إن هذه التعريفات، كما أشير في مستهل هذا الكتاب، هي زائفة حتماً. علاوة على ذلك، وكما أشير في ثنايا هذا الكتاب، فإن هذه التعريفات قد شوهت برمتها بسبب المشاكل والأزمات التي لا حل لها والتي تعاني منها الفئات المهيمنة. لذا فإن هذه التعريفات قد أبعدت كثيراً عن "الطبيعة الحقيقية" للمرأة. ومن المؤكد أنها لا تعكس أن ما تسعى إليه المرأة هو

أن تكون فرداً لها استقلالها الذاتي وللبدء بتعريف نفسها من "لا شيء" تقريباً، ولتكتشف أن ما يراه الآخرون هو عبء كبير لأي شخص.

ولاشك أن السلطة ترتبط بهذه المجازفة بشكل وثيق. وبدون سلطة لوضع مثل هذه المحددات موضع العمل فإن المرأة سوف تتابع العيش في حياة مقيدة يسيطر عليها الآخرون ـ أولئك الذين لا يقدرون على صناعة قرارات صحيحة.

هنا أيضاً، كما في كل الموضوعات السابقة، قد تفتقر المصطلحات الأساسية للنقاش إلى الدقة والوضوح. زد على ذلك أنها قد تكون أشراكاً. ومن الأمثلة على ذلك أن من الجائز حتماً أن تكون المرأة مستقلة اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ونفسياً. ومع ذلك فإن النقيض البسيط في أن تكون "مستقلة"، وفق المفهوم السائد للمصطلح، هو أن يكون ذلك هدفاً غير شرعي. قد تكون ثمة أهداف أفضل من "الاستقلالية" كما عرفت هذه الكلمة. بل بالأحرى قد تكون ثمة ظروف أفضل تنزع الكلمة ذاتها إلى إنكارها. وكمثال على ذلك الشعور بالنفوذ إلى جانب الشعور بروابط عميقة مع الآخرين.

قد يكون الاستقلال الذاتي مفهوماً ذا مغزى فقط حين يبدأ حيث تبدأ المرأة. وفي الوقت نفسه فإن فهم موقع المرأة بحد ذاته يغير ويوسع معنى المصطلح وذلك بإضافة آراء النساء إلى مضمون المصطلح. هذه الآراء يمكن أن تساعد في الجهد الهادف إلى المحافظة على الاستقلال الذاتي بدلاً من حرف النساء نحو اتجاهات قد لا تكون شرعية، حتى الاتجاهات مثل الاتجاه المخيف الذي يدعى استقلال الذكر. وهذه تعريفات قد لا تكون صادقة بأي حالٍ من الأحوال. وبدلاً عن ذلك فإن خوف المرأة من سلطتها واستقلالها هو ذاته بات

متأصلاً إلى درجةٍ يتطلب عندها فحصاً دقيقاً. إن استكشاف هذا الخوف بحد ذاته قد يوفر مفاتيح مهمة لدروب استقلال ذاتي وسلطة أكبر.

خوف المرأة من السلطة

ما يزال المجتمع الذكوري، كما تشكل حتى الآن، خائفاً من تأثير المرأة الموجه ذاتياً. ثمة رأي يصف كيف يكون هذا الأفق مخيفاً، ويرى أنه يحصل حين تتحدث المرأة عن سلطتها بدلاً من الحديث عن تأثيرها. ولأن الرجال خائفون؛ فقد استحثوا خوفاً لدى المرأة ذاتها. لكن القوى المحركة مختلفة جداً بين الجنسين. ومن المهم بيان ذلك. فالمرأة بالتأكيد ليس لديها الأسباب نفسها للخوف الذي يعتقد الرجال أنهم يعانون منه. لكن تمّ ابتداع ما يبدو أن عليها أن تخاف منه.

لقد سمعنا جميعاً وما نزال مصطلحات مثل "المرأة المحطية" أو "العاهرة" وما شابه. وكانت هذه المفردات كافية لردع العديد من النساء، ليس فقط دفعاً للعدوان بل حتى لمجرد توكيد الاستقامة. لكن علينا أن نسأل: من ابتدع هذه المصطلحات؟ من هو صاحب التجربة التي انبثقت منها؟

إن خوف الذكور من النساء له أسباب عديدة. وتتراوح هذه الأسباب بين السطحي والعميق جداً، وهي متداخلة بشكل عام. وكما قلت أن المرأة تبدأ الطريق حين تبدأ بالحركة خارج المكان المحدد لها؛ عندئذٍ تهدد الرجل بالمعنى العميق جداً. إنها تهدد بالحاجة إلى إعادة دمج الكثير من أساسيات التطور الإنساني ـ الأساسيات التي ما تزال النساء يحملنها للمجتمع برمته. هذه الأشياء جرى صدها وأصبحت مخيفة على نحو مضاعف فبدت كما لو أنها ستوقع الرجال

في مصيدة "العواطف" والضعف، والجنس، والهشاشة، والعجز، والحاجة إلى الرعاية، وغير ذلك من أمور ليس لها حلول. وعلى مستوى أكثر وضوحاً فإن تأثير المرأة سوف يفضي بسرعة إلى حاجة واضحة لإعادة فحص الكثير من أنواع الدعم بما في ذلك العمل الرخيص الذي توفره المرأة بشكل دائم وسريع.

من ناحية أخرى، ما هي أسباب خوف المرأة من سلطتها الخاصة؟ في المقام الأول يؤدي استخدام المرأة أحياناً لسلطتها المباشرة لمصلحتها الذاتية إلى رد فعل سلبي صارم من الرجل. هذا بحد ذاته منع، في أحيانٍ كثيرة، فرداً ما في الفئة غير المستقلة من استخدام سلطتها الخاصة بشكل مباشر. وبسبب مثل هذه التجارب أظهر العديد من النساء معادلة داخلية مبالغاً فيها وهي أن استخدام المرأة الفعال لسلطتها يعني أنها على خطأ؛ بل هي مدمرة. علاوة على ذلك فإن هذه هي الرسالة التي تتبلغها الفتيات منذ نعومة أظفارهن وحتى قبل أن تكون لديهن الفرصة لاختبارها في حياتهن الخاصة. فهل من المفاجئ إذن أن المرأة قد طورت إحساساً داخلياً مفاده أن استخدامها لنفسها بشكل فعال ومباشر لابد أن يكون مدمراً لشخص آخر؟ في الواقع أن الطريقة التي تنتظم بها حياة المرأة والنظر في الأشياء التي يفترض أن المرأة تفعلها من أجل الآخرين يثبت أن الواقع الراهن له حظ جيد لأنه يبدو مؤكداً لهذا المفهوم لها. أقصد المفهوم التدميري. فالعمل من أجل الذات يراد له أن يبدو كأنه حرمان للآخرين أو إيذاء لهم. هذا، على سبيل المثال، يبين كيف أن امرأة مثل آن Ann، التي مرت في الفصل السادس، كانت تؤكد على عملها كفنانة. فبينما كانت آن قادرة أن ترى أن هذا المفهوم عملي؛ فإنها قالت أنه كان ما يزال من

الصعب أن "تريح بالها منه". لقد حصل رد الفعل نفسه بسمات أكثر تعقيداً لدى العديد من بقية النساء اللواتي نوقشت أحوالهن سابقاً.

أما جين التي تعرضنا لها سابقاً فإنها تصف الخوف الذي أعاق حتى الشرط المسبق للسلطة. فهي ذاتها كانت قد اتخذت القرار في الانتقال إلى هذه المدينة اعتقاداً منها أن ذلك يفضي إلى أمور أفضل. ولدى مناقشة حقيقة أن هذا القرار كانت له نتائج طيبة قالت:

قفي! لا أريد أن أسمع ذلك. ذلك يخيفني، بل إن من المرعب لي التفكير أنني أنا فعلاً اتخذت ذلك القرار وأن صحته قد ثبتت... إن من المخيف حقاً أن أدع نفسي تشعر بذلك.

أنا لم أقرر شيئاً لنفسي البتّة. كان ثمة دائماً هذا الشعور بأنني لن أتخذ قراراً صائباً. ومما لا ريب فيه أنني لا أعلم ما أفعل. إنني أخشى السقوط في كل شيء... لكن حتى إذا قررت شيئاً فعلاً فإنني لا أريد أن أعرف عنه. إذا سمحت لنفسي أن أفكر أنني قررته، صنعته وتبيّنَ أنه جيد أشعر بالقلق، تماماً كما أنا الآن. هذا يعني أنني أنا في الواقع أعرف أنني أستطيع استنباط شيء... ثم يتركز التفكير (على حقيقة) أن من الممكن أن يكون صحيحاً لي أن أعرف شيئاً.

أنت لا تعرفين كم هو مخيف ذلك. أنت لا تفهمين ذلك. لو كان لدي أي أسس لتصديق (انني) أنا أعرف ما هو صالح لي، يصبح الأمر عندئذ أصعب بكثير.

إن محاولة جين أن تخدع نفسها يكشف القلق العميق الذي تشعر به حول هذه الخطوة الأولية في استخدام قواها الذاتية. لكن من المهم أن نستذكر أن جين كانت قد دفعت إلى أن تحاول كسب قوة مطلقة تقريباً بشكل غير مباشر. لم تكن فعالة قط، لم تنجز القوة أو السلطة مطلقاً، لكنها على غير المتوقع ظلت متشبثة بتلك الطريقة. وثمة امرأة أخرى هي فرانسيس Frances التي كانت في مرحلة مختلفة من عملية تأخذ فيها على عاتقها مزيداً من القوة والاستقلال الذاتي. وبالرغم من أنها كانت شخصاً نشيطاً وقادراً فإنها لم تطلق لنفسها العنان لتتعرف على طاقاتها. في حديثها عن الماضي تقول:

حين كان سام Sam (زوجها) هناك كانت لدي ثقة وكان لدي خوف أقل بكثير من الإخفاق في أمور حياتي. كنت أبدو قادرة أن أتحرك وأجعل الأشياء تحصل. كانت الإمكانات مفتوحة. (حين ترك (زوجها)، بدا كل شيء كما لو أنه توقف) بدا أن الأمور لن تعود إلى مجاريها. سوف أفشل فيها. كنت خائفة من الإقدام على أي عمل. وبطريقة ما حين كان موجوداً كان يمكن أن تحصل أشياء. كانت كما لو أنه يجعلها تحصل.

أرى الآن أنني فعلت معظمها؛ بل إنني فكرت بها أيضاً. لكنها لم تظهر على ذلك النحو أبداً. لقد بدا كما لو أنه هو من يفعل ذلك.

لقد غيّرت الآن كل شيء. أنا أعلم أنني أتسبب في حدوث الأشياء. شيء مضحك. الآن يريد أن يعود، وكل شيء يبدو معكوساً. يبدو أن الأبواب ستوصد على الأشياء. هذا ما سوف يحصل إذا أعدت إلى الطريقة القديمة، سوف أكون "بلا قوّة" من جديد. كان على النهج

القديم أن يتركز حول رؤيتنا نحن الاثنين له بتلك الطريقة، وتصرفنا كما لو أنه صانع كل شيء. لست بحاجة أن أراه بتلك الطريقة البتّة. أرى الآن أنه كان يحتاج إلى ذلك بشكل ما.

لقد بات واضحاً أن بعضاً من شعور فرانسيس بالعجز كان ناجماً عن خوفها من أن تدرك أن لديها قوى. إنها كانت قادرة أن تكون هي صانعة الأشياء والأحداث، وأن من الأسلم أن تفعل ذلك. في البداية لم تكن تبالي بأي اقتراح بأن تفعل شيئاً من تلقاء نفسها ولنفسها: "لي أنا فقط؟" إذا كان لي فقط، ما الفائدة؟ هذا لا يبدو سبباً البتة". هناك، في تلك الصدفة تظهر قوة المرأة ومشكلة المرأة.

الماسوشية والقوة

تدور حول قضية القوة بعض مظاهر ما يدعى الماسوشية النسوية. توضح جين السبب لماذا يمكن أن يكون من الأيسر للمرء أحياناً أن يكون ويستمر ضحية من أن يكافح من أجل ذاته. فحتى من أجل وضع مدمر موضوعياً ليس على الضحية أن تواجه رغباتها لتغيير هذا الوضع أو تستخدم قوتها لفعل ذلك، ولا غضبها الذي تصاعد وتراكم على وضعها الذي جرت التضحية به. قد يبدو من الأيسر توجيه اللوم إلى الشخص الآخر؛ وبذلك يحمي المرء نفسه من التعامل مع هذه القضايا الشائكة. فبما أن المجتمع يشجع المرأة بقوة كي تبقى في هذا الوضع فإن الخروج منه يعني العمل ضد شواذ خطرة. ومحاولة تغيير الوضع يهدد المرأة بفقدان أي مكان تذهب إليه ـ لا بدائل. إن الأسوأ من كل

ذلك إدانة وعزلة تامتان : مثل هذه التهديدات يمكن أن يثبتها الواقع ثم تدور الأمور للتأكيد من جديد على الأمور المتركزة عميقاً في الداخل.

إن الغضب هو بوجه خاص جزء هام من العجز. والبقاء في حالة من لا حول ولا قوة قد يكون ملاذاً آمناً من غضب جبان. كما أن إدراك الغضب والشعور به هو في البداية أمر مخيف جداً. فإذا أحس المرء بأنه لا حول له ولا قوة لفترة طويلة فإنه غالباً ما يرد بالغضب. (الناس غالباً لا يقبلون مثل هذه الأشياء بل يردون عليها). وحتى النساء اللواتي يرغبن الآن بالتوكيد الذاتي يمكن أن يقعن فريسة للخوف من أن يغضبن وهو الأمر الذي لا يرغبنه في غالب الأحوال. من الصعب أحياناً أن تفصل الغضب عن توكيد الذات. كذلك تخشى النساء من أن تصل درجة غضبهن إلى حالة من الإفراط، وألا يكون مثل هذا الغضب مبرراً. ومن المألوف أن المرء يستطيع أن يتعلم كيف يفصل الاثنين لمجرد أن يعطي لنفسه الحق في أن يختبر الغضب ويتفحصه. علاوة على ذلك يمكن تبرير قدر كبير من الغضب أكثر مما يسمح الإنسان لنفسه الإقرار به. إن استمرار الدوائة الماشوسية قد يبدو أصعب بكثير من إدانة الذات. هذا صحيح بشكل خاص على نحوٍ مأساوي إذا كان المرء يعتقد أن الشخص الآخر ضروري تماماً لوجود المرء ذاته. قد يبدو أن "الشخص الماسوشي" يوجه اللوم للظالم، لكن المرأة تلوم نفسها أكثر، ولا يتغير الوضع لأي من الشخصين.

عوالم القوة واللا قوة في الحياة

قد تبدو جميع عناصر القوة النسوية التي ذكرت آنفاً مصدر عون وراحتين ضئيلتين لدى النساء اللواتي يحاولن بناء حياتهن وكفاحهن مع العمل

والأسر. كيف لعناصر القوة هذه أن تساعد النساء في تحسين حياتهن؟ إنها ليست السمات التي تساعد المرء أن "يصنعها" في العالم ضمن تركيبته القائمة. هكذا هو الحال تماماً؛ تلك هي المسألة بعينها. يمكن النظر إلى كل هذه السمات (عناصر القوة النسوية) بوصفها قيمة فقط حين يمكن رؤيتها أيضاً في حالة من الفعالية، في حركة نحو شيء آخر. والواقع أن الأمر يبدو اليوم للعديد من النساء أن هذه هي الاتجاهات ذاتها التي ينبغي عليهن أن يكافحن بأقوى ما يمكن للتخلص منها إذا كان لهن أن يعملن لأنفسهن. ثمة أوقات مهمة جداً تشعر فيها النساء أن عليهن أن يصلبن أنفسهن ضد هذه الصفات إذا أردن الوصول إلى أي مكان أو أن يتخلصن من رباط شخصي معين.

يبدو لي في هذه الأوقات أن هذه الصفات لا تعمل على إيقاع النساء في أشراك أو دفعهن إلى الخلف بل هي الطريقة التي تستخدم فيها هذه القدرات. إن الحقيقة الساطعة هي أن المرء حين يتصرف على هذه الأسس فإنه ينقاد بسهولة إلى الاستعباد، والافتقار إلى الكرامة، والحرية.

إن الأمر لا ينبغي أن يكون كذلك لأن عوامل القوة والاستقلال الذاتي هما العاملان الحاسمان في الموضوع. لكن قد يظل من الصعب جداً فرز الخيوط الشخصية المتصارعة. قد يبدو في وقتٍ من حياة المرء أن من الضروري التخلي عن كثير مما في "السلة" لأن الكرامة والحاجة إلى تجسيد أصالة الذات هما قانونا اليوم، أي أن ذلك هو الخطوة الأساسية التالية لفعل شيء أو الإفلات من رباط غير محرك. وعلى المستوى الفردي ينبغي على كل امرأة أن تبدأ من مكانها الخاص. لكن قد تساعد الرؤية على نطاق الإمكانات الأوسع في فهم التنوعات الفردية العديدة.

إن جميع الصفات التي ذكرت آنفا مثل المشاركة في تطوير الآخرين سوف لن تصل بامرأة إلى قمة جينرال موتورز General Motors لو كان الطريق مفتوحاً للنساء. كما أنها لن توفر للنساء أي استقلال ذاتي، أو أصالة أو حياة فعالة. في الواقع أن الأساس هو أن الصفات عينها التي تكون بشكل خاص معطلة للنجاح كما هي عليه. ومن الواضح أن هذه ليست مصادفة؛ لكن قد تكون هي الأهم لجعل العالم مختلفاً.

إن اكتساب القوة الحقيقية ليس مناقضاً لهذه الصفات القيمة. إنها ضرورة لنموها الكامل وغير المشوه.

من الواضح أنه في الوقت الذي تسعى فيه النساء الآن إلى السلطة، فإنهن يواجهن صراعاً جدياً. إن الصراع في المجتمع، مثلما هو ميدان للدراسة في أحد العلوم، ظل يتجلى عنصراً إشكالياً على وجه الخصوص. ومن المهم أن نتعمق في فحصه لأن الصراع أيضاً ليس هو بالضرورة ما أتيح له أن يظهر.

الفصل الحادي عشر
الصراع المستَرَدّ

ما يزال الصراع منطقة محظورة على النساء لأسباب رئيسة. كان يفترض بالنساء أن يكن مصدر مساعدة وتوسيط وتكييف وتلطيف جوهري. ومع ذلك يصبح الصراع ضرورة إذا شاءت النساء أن يبنين للمستقبل.

نحن جميعاً والنساء على وجه الخصوص نُعلَّم أن نرى الصراع شيئاً مخيفاً وشريراً. أضافت هذه المضامين الفئة المهيمنة، وعتّمت على ضرورة الصراع. ليس هذا وحسب بل إنهم على نحو أكثر حسماً يحجبون الطبيعة الجوهرية للواقع لأن الصراع بمعناه الجوهري أمر لا مفر منه. إنه مصدر النمو برمته. وهو ضرورة مطلقة إذا كان للمرء أن يحيا.

بينما تتعلم النساء الاستفادة من الصراع فإنهن ينجزن مهمتين رئيسيتين هما:

أولاً: سوف ينجين من مصيدة الصراع "المبيّت"؛ أي الصراع الذي يدار حصراً وفق قواعد وضعها الآخرون، قواعد تضمن أن المرأة سوف تخسر. وعلى نحو مماثل سوف يلقين الضوء على فهم أن الصراع هو حقيقة حتمية في الحياة وليس أمراً سيئاً على الإطلاق.

قلت أن محاولة الفئة المهيمنة تجاهل وإنكار وجود بعض الصراعات والمشاكل التي لم تجد حلولاً قد أدى بهذه المهمة إلى استخدام النساء

كمستودعات ملائمة لهذه الجوانب في الحياة. (أشير هنا إلى المستوى الاجتماعي بالرغم من أن هذا بالتأكيد صحيح على المستوى الشخصي الحميمي أيضاً). ومع القيام بذلك تميل الفئة المهيمنة إلى القول أن "الأشياء هي ما هي"، وأن "ما هي هو الصحيح". لكن ما اكتشفه المحللون النفسيون هو أن الأشياء ليست كما قيل عنها: إنها تعبيرات عن الصراع ومحاولات للحل. أياً "يكن" ما تولد في الصراع فإنه سوف يستمر في حركته المؤثرة في هذا الصراع. إن الأسئلة المهمة هي: ما الذي يسبب الصراع حقاً؟ وهل صغنا بدقة قواعد الصراع؟ كان الاكتشاف الرئيس الأول في التحليل النفسي أن الأعراض ليست ما تبدو - إنها ليست مثبتة وساكنة. ومن الأمثلة على ذلك أن الشلل الهستيري ليس مثل الشلل البدني. فهو ليس شللاً بأي معنى للكلمة. إنه محاولة أو يعبر عن محاولة للتحرك حين تكون الحركة، مثلاً، معوقة بشكل متزامن لأسباب عديدة. هذا "الشلل" هو عملية تمثل جزءاً من صراع، وليس "شيئاً" أو حتى حالة ساكنة للكائن. إنه في حركة ولذا فهو قادر على التغيير.

إن حقيقة وجود الصراع هو نقطة الحسم هنا. ليست الأعراض وحدها هي التي تجسد الصراع، بل الحياة برمتها أيضاً. ولنقل ببساطة أن السر الكبير الذي اكتشفه التحليل النفسي هو سر الصراع نفسه وأنه الأساس لكل أسراره الأخرى.

حين تسعى المرأة إلى تعريف الذات واستقلال الذات؛ فإنها بحكم الظروف، سوف تنير على نطاق واسع جديد وجود الصراع كعملية أساسية في الوجود. ونظراً لأن المرأة ما فتئت تُستخدم في محاولة شاملة لقمع بعض الصراعات الإنسانية الجوهرية فإن عملية الصراع نفسها ظلت في عتمة دامسة. وحين تخرج المرأة من هذا الوضع يصبح بالإمكان تحول الصراع إلى شيء معروف وبالتالي متيسر لمزيد من الاهتمام مع أمل أكبر بكثير لفهم

عقولنا في نهاية المطاف. هذا لا يعني أن المرأة لا تبعد عن الصراع، بل إنها تبرز أن الصراع حقيقة موجودة. هنا مرة أخرى لا نبدأ بمحاولة لإعادة تعريف بعض المصطلحات التي أصبحت مألوفة لدينا.

بالإضافة إلى هذه المستويات العامة والمجردة إلى حد ما ثمة صراعات ملموسة تواجهها النساء اليوم على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. هذا واضح مثل نارٍ مستعرة. وبشكل دقيق فإن المرأة تواجه هذه الصراعات بمجرد أن تحاول التقدم إلى الأمام. وهنا تستطيع المواجهة بشكل أفضل لفتح الباب على أكثر المستويات المجردة صعوبة. إن أفراد الفئة السائدة قادرون أن يتحاشوا بسهولة أكبر المعلومات عن وجود الصراع. إن قدرة المرأة الحالية على إدراك ضرورة الصراع إذا ما أرادت البحث عن تعريف الذات ومصلحة الذات يمكن أن تصبح نتيجة لذلك مصدراً أول وأساسياً وكبيراً للقوة. قوة تستطيع النساء أن تأخذها بأيديها وتستخدمها. أما المصدر الكبير الثاني للقوة فقد يكون، مرة أخرى، الإمكانية. إمكانية لا تستطيع الفئة السائدة أن تستوعبها أو تتمثلها بسهولة. تلك الإمكانية التي لا تملك فيها هذه الفئة إدارة الصراع بحيث تبقيها كما هي عليه. هذا يعني أن أساليب إدارة الصراع لا ينبغي أن تكون هي تلك التي كنا نعرفها دائماً. قد يكون ثمة طرائق أخرى.

الصراع الخفي

في الفصول المتقدمة ارتأينا أنه بمجرد أن تقوم فئة بالاحتفاظ بالهيمنة؛ فإنها تنزع حتماً إلى خلق حالة من الصراع، وتسعى في الوقت ذاته إلى كتم الصراع، علاوة على ذلك فإن التابعين الذين يقبلون مفاهيم المسيطرين عنهم بوصفهم منفعلين ومطواعين لا ينخرطون علناً في الصراع. إن الصراع يحصل بين

المسيطرين والتابعين لكنه يشق طريقه تحت الأرض. هذا الصراع الخفي تشوهه وتشحنه القوة المدمرة. إن مجرد معرفة ألم الصراع الخفي وعبثيته تجعل المرء يصدق أن تلك هي ماهية الصراع الحقة.

لكن من غير المفيد عملياً أن نحث التابعين كي يديروا صراعاً مفتوحاً على المستوى الشخصي كما لو أنهم مستقلون وأقوياء. لذا كانت النساء كفئة ومازلن قادرات على إدارة لا شيء سوى صراع غير مباشر حتى يصبح في مقدورهن أن يتصرفن انطلاقاً من قاعدة قوة في "العالم الحقيقي" من المستحيل عملياً أن تبادر إلى صراع مفتوح حين تكون معتمداً، بشكل ما، على الشخص الآخر أو الفئة الأخرى من أجل المادة الأساسية والوسائل النفسية. علاوة على ذلك ثمة عقبات إضافية رئيسة في طريق كسب القوة الاقتصادية والاجتماعية والسلطة لأن حياة المرأة مرتبطة بالوظيفة الحيوية وهي تربية الأطفال. من الواضح أن تعريفات هذا الدور تتطلب عدم منع النساء من المشاركة التامة في الحياة والعالم. لكن من أجل تغيير هذا الوضع يتطلب الأمر إعادة تنظيم رئيسة لمؤسساتنا والسبل إلى القوة فيها. فمن السهل ابتكار برامج عمل وترتيبات تتيح لكل النساء والرجال المشاركة في تربية الأطفال والمشاركة في الحياة في عصرنا إذا كان الطرفان يرغبان في عمل ذلك. لكن لإحداث هذا الأمر عند عدد كبير من الناس فإنه يتطلب مزيداً من التغييرات في الترتيبات الاجتماعية والاقتصادية تتجاوز ما كان على الفئات المظلومة أن تنجزه. هذا يدفعنا إلى أن نسأل كيف يمكن أن تتواءم النساء مع المؤسسات وتتقدم فيها حيث أن هذه المؤسسات كانت قد نظمت على نحو يلائم الرجال؟ ثم كيف ينبغي أن يعاد تنظيم هذه المؤسسات لكي تضم النساء؟ وكمثال على ذلك ما يزال السؤال التالي مطروحاً: ماذا تقترح للإجابة

على حاجة الأطفال للرعاية؟ تلك هي محاولة لإنشاء الصراع وفق المعاني القديمة. لنا فإن من الأفضل أن يكون الوضع على النحو التالي: "إذا كنا كجماعة إنسانية نريد أطفالاً، فكيف يمكن للمجتمع بأسره أن يؤمن لهم الرعاية؟ كيف يمكن أن يرعاهم بطريقة لا يكون على النساء فيها أن يعانين أو يخسرن أشكالاً مختلفة من المشاركة والقوة؟ كيف يمكن للمجتمع أن يخطط لينظم أموره بحيث يستفيد الرجال من مشاركة مساوية في رعاية الأطفال؟ من الواضح أن أياً من التغييرات الرئيسة لن تحصل دون معارضة. بيد أن من المفيد أن تُحدد الأهداف العامة، وأن يتم حوار على ذلك الأساس دون أن ينحرف إلى صراع على مصطلحات زائفة.

إن حقيقة أن هذه التغييرات الضرورية تبدو بعيدة جداً ومختلفة جداً يمكن أن تخدم كمصدر آخر للإحباط. أضف إلى ذلك أن النساء يجدن صعوبة في أن يضمن الحق بأن يطلبن المزيد. إنها ليست مطالب غير عقلانية وغير معتدلة. وبدلاً من ذلك فإن من المهم أن نسأل لماذا يمكن أن يكون التخطيط لمثل هذه الحاجات الواضحة للنساء ما يزال يبدو سؤالاً غير مقبول؟ لذا فإن من الضروري إعادة النظر أكثر في الأبعاد الجوهرية للصراع.

بوتقة الصراع

يبدأ الصراع مع لحظة الولادة. فالرضيع ومن ثم الطفل يبدأ الصراع فوراً وبشكل مستمر حول رغباته. والمشارك الأكبر سنّاً في هذا التفاعل يتعامل مع الطفل محضِراً معه بنيته النفسية وهي مفاهيم مفعمة بتاريخ من المفاهيم عما يريد أن يعمل، وما يجب أن يعمل، وماذا ستكون النتيجة، وهكذا.

هذا الشخصان لهما حالتان مختلفتان جداً من حيث البنية النفسية والحاجات. وحين يتفاعلان يكون الناتج خلق حالة جديدة لدى كل شخص. كذلك

ستكون النتيجة مختلفة إلى حد ما عما "قصده" أي منهما. (بالطبع "لا يقصد" الرضيع بشكل واعٍ، لكن لديه أهداف حقيقية ومهام يسعى إليها). ونتيجة لذلك التفاعل سوف يتغير كلا الطرفين لكن كل واحد منهما بأشكال مختلفة وبدرجة مختلفة. وخارج هذه التفاعلات التي لا حصر لها يتكرر الصراع مرات ومرات، وبأشكال مختلفة إلى حد ما يطور كل شخص مفهوماً جديداً لما هو. هذا المفهوم المتجدد باستمرار يشكل بدوره رغبة جديدة تالية، وسوف ينشأ عن هذه الرغبة الجديدة فعل جديد. هذا صراع كما يستخدم المصطلح هنا. يتعامل كلا الطرفين مع التفاعل بنوايا وأهدافٍ مختلفة. وسوف يجبر كل منهما الآخر أن يغير مقصده وهدفه كنتيجة للتفاعل. هذا يعني أن ذلك يحدث نتيجة للصراع.

في الحالات المثالية تكون المقاصد والأهداف أكبر وأغنى كل مرّة، ولا تكون مقيدة وضيقة. هذا يعني أن على كل طرف أن يدرك أكثر، ويطلب أكثر كنتيجة لكل مواجهة، ويكون لديه مزيد من الموارد التي يتصرف بها. لكن، في أغلب الأحوال، يكون العكس هو الصحيح، وتنجم عن الصراعات أهداف أدنى وتناقض في القدرات.

يمكن للصراع المثمر أن ينطوي على شعور بالتغير والتطور والسعادة. وقد يكون عليه في وقت من الأوقات أن ينطوي على عذابٍ وألم أيضاً. بيد أن هذه الأمور مختلفة عن المشاعر التي ينطوي عليها الصراع المدمر أو المعوّق. فالصراع المدمر تنشأ عنه قناعة بأن المرء قد لا يستطيع أن "يكسب"، أو بدقة أكثر أن لا شيء يمكن أن يتغيّر ويكبر. إنه غالباً ما ينطوي على شعور بأنه يفقد المرء الارتباط بأكثر ما يحمله من رغبات وحاجات مهمة.

يبدأ الأطفال والشبّان تدريجياً بأن "يدركو" أن من الخطورة بمكان المبادرة بالصراع. أما الكبار فقد تعلموا جيداً قمع الصراع لكنهم لم يتعلموا كيف يديرون صراعاً بنّاءً. ولا يعرف الكبار ما فيه الكفاية كيف يدخلون إليه بصدق واحترام ودرجة من الثقة والأمل. بناء على ذلك لا أرى أن من المدهش أن الكثير من الصراعات تنتهي بشكل سيئ تاركة الكبار مع الألم والخوف من الصراع. إنه أمل وخوف لا يلبث الأطفال أن يشعروا به.

هذه الصعوبة الأساسية مع الصراع، والتي تشكل العامل الأساسي للمشاكل التي تظهر لدى معالجة أي صراع خاص تحمل شبهاً قوياً بالطريقة التي ينظر فيها إلى الصراع وإلى شكل إدارته من قبل أي مجموعة سائدة في حالة غير متكافئة.

لذا فإن من المهم جداً أن ننظر إلى الشكل الذي تمّ فيه فحص الصراع وإدارته في مشهد أوسع، ولماذا كان من الصعب تثبيته على قاعدة مثمرة.

آراء ووجهات نظر قديمة عن الصراع

لو سُئلنا كيف يمكننا التحرك نحو وضع الصراع على قاعدة مثمرة؛ فإن من المهم أن ندرك أن هذه القدرة ليست قدرة يتعلمها أي شخص بشكل جيد في مجتمعنا ولا في مجتمعات كثيرة أخرى. لقد خرجنا مؤخراً ونسبياً فقط من حالة كان الصراع فيها لا يحتمل قطعاً. كان ثمة قانون مطلق وجزاءات قاسية توقع على أولئك الذين لم يكونوا يذعنون. واليوم ما تزال الصراعات قائمة بين الفئات المختلفة من الفئات الذكورية على أساس خطر ومخيف للغاية.

ضمن هذا السياق قد يبدو الصراع ذاته مهدداً ومدمراً. لكن من المرجح أكثر أنه يصبح أخطر حين نحجب ضرورته. عندئذ ينزع إلى الانفجار بشكل متطرف على المستويين الفردي والاجتماعي. هذه السمة التي تميز الصراع عند قمعه تتحول نحو العنف وتعمل بشكل رادع وشامل للتابعين؛ فالصراع يتشكل ليبدو كما لو أنه يظهر دائماً في صورة من التطرف. لكن المشكلة في الواقع هي الافتقار الحقيقي إلى الاعتراف بالحاجة إلى الصراع وأنه سبب من أسباب الأشكال التي تنذر بالخطر. هذا الشكل مدمر ومخيف بجوهره لكنه ليس صراعاً أيضاً. ويكاد يكون العكس. إنه النتيجة النهائية لمحاولة تحاشي الصراع.

إضافة إلى هذا الرادع النفسي الشامل ثمة حقيقة راسخة مفادها أنه في أي وضع في العالم الحقيقي يكون المهيمنون هم من يمتلك معظم السلطة الحقيقية. هذه بجلاء هي القوة الرادعة. لكن حتى بوجود هذين الرادعين القويين ضد الصراع يظل من المهم طرح السؤال التالي: لماذا لا تتحرك النساء بأسرع وأفضل ما يستطعن؟ إن العامل الأهم هو انعدام الرغبة في المبادرة إلى الصراع.

المبادرة إلى الصراع

إن مجرد شعور المرأة بالصراع مع أي شخص، وبشكل خاص وليس حصراً، مع الرجال، كان يعني دائماً أن ثمة شيئاً غير طبيعي فيها من "الناحية النفسية" لأنه يفترض بالمرء أن ينسجم مع الآخرين إذا كان "على ما يرام". لذا فإن الإحساس الأولي بالصراع يكاد يصبح دليلاً على أن هذه المرأة مخطئة و"شاذة". وهكذا فإن أفل دوافع المرأة ومصادر طاقتها تقتل في مهدها. ويوجه إليها اللوم تحت عنوان أن لابد أن لديها شيئاً خاطئاً تماماً.

خلافاً لذلك نريد أن نؤكد أنه حين تشعر المرأة بالصراع؛ فإن ثمة سبباً وجيهاً في الغالب للاعتقاد أنها تكون في حالة صراع. وهذا عنصر مساعد في البداية على الأقل.

إن طاقات النساء وآمالهن لن تنضب قبل أن تتدفق من جديد. في الماضي عاشت النساء في ظل إطار من المفاهيم والوصفات التي كانت مدمرة لهن. فهن كنَّ يحاولن أن يضعن أنفسهن في قالب سلوكي لا يلائم أحداً، ثم يلمن أنفسهن إذا لم يستطعن الانحشار داخله أو حتى إذا شعرن بأنهن يصارعن في العملية.

(الرجال أيضاً يشعرون على طريقتهم أنهم يحاولون أن "يتلاءموا مع تلاؤم غير ملائم" كما قال كينيث بيرك Kenneth Burk. لكن سوء التلاؤم الخاص مختلف تماماً عند كلا الجنسين).

بالانتقال من هذه التعميمات إلى ما يخص المرأة اليوم يمكننا أن نعود باختصار إلى جين ودوريس ونورا؛ هؤلاء النسوة اللائي درسنا سعيهن إلى معرفة الذات والعمل لتوجيه الذات في فصول سابقة. إنّ كلاًّ منهن تواجه عقبة شخصية خاصة في طريقها. ولكي تتخذ الخطوة التالية مع زوجها كانت تبادر بالصراع.

كانت مشكلة دوريس مع زوجها. وكانت مشكلة نورا مع النساء في فئتها. أما جين فكانت مشكلتها مع زميلاتها العاملات. ومع ذلك فقد أظهرت كل امرأة بعداً مختلفاً للمبادرة بالصراع. كما أن كلاً منهن كان عليها أن تبادر إلى الصراع بقدر صعوبة معالجة الصراع مع الآخرين. كانت لكل من دوريس ونورا صورة عن نفسها تمثل "المرأة القوية"، وهي صورة لم تكن صادقة وضرورية. كانت جين تنظر إلى نفسها على أنها ضعيفة وامرأة غير مستقلة. وفي كل حالة كانت الصور تشكل عقبات في طريق التطور الأكمل. وقد شكلت هذه الصور عوائق وقفت في طريق اكتساب قوة حقيقة أكبر.

شن صراع حقيقي

قلنا أن الانتقال إلى تطور جديد وأبعد يؤدي إلى صراع لا يتوقف. فمن المحتم أن صراعاً سوف يحصل مع مستوى وعي المرء القديم لذاته. في خضم هذه العملية نكون بحاجة ماسة إلى الآخرين. وكمثال على ذلك لم يكن بوسع نورا أن تفهم صورها القديمة لوحدها. كانت بحاجة إلى الآخرين كي يشاركوها ويجازفوا معها، أشخاص تثق بهم (أو تبدأ معهم بناء أساس من الثقة لأن الثقة لا تأتي عفو الخاطر).

علاوة على ذلك حين يبدأ المرء بتطور معارضة للإطار السائد للثقافة المهيمنة يكون من الصعب حصول اليقين أن المرء يعي الأشياء بوضوح. إن من غير اليسير أن تصدق أن المرء على صواب. والأمر الجوهري أكثر هو أن لكل امرئ حقوقاً. لكل هذا يكون وجود جماعة من الناس تتميز بعقلية متشابهة أمراً أساسياً.

لعل التهديد الأكبر للنساء في الماضي كان الإشارة إلى الصراع لأن ذلك كان يعني إنذاراً بالإدانة والعزلة، وعلى الأغلب العزلة. (قد يكون هذا السلاح هو السلاح الأساسي لأي شخص. لكن كما رأينا في غالب الأحوال، كان الوضع قد بُني بحيث يبدو للنساء أن العزلة أمر وشيك الحدوث) وكانت النساء قد قمن ببناء بيئات داعمة للمساعدة في التغلب على هذا التهديد. فمن المؤكد أننا جميعاً بحاجة إلى أكبر مساعدة يمكننا الحصول عليها. إن من الصعب على المرء أن يرى طريقه كلها بمفرده، وأن يمتلك رؤية صحيحة على جوانب الصراع التي تكون ملائمة أو غير ملائمة، وأن يعرف متى يكون لدينا الحق في أن نسأل أو نؤكد، ومتى تقوم بمطالب مبالغ فيها أو مشوهة.

إنه ليس صراعاً سهلاً ومستقيماً. فالمعاني تتغير على طول الطريق وتتأثر بمسار الصراع نفسه. مَن تستطيع أن تعرف بوضوح وبشكل مباشر حاجاتها في

جميع الأوقات؟ في معظم الأحوال تبدو هذه الحاجات غير واضحة خاصة إذا كانت مهمة لأنها قد تكون مشحونة جداً بالعاطفة فيصبح تمييزها أمراً صعباً. إن ولوج هذا الصراع يتطلب شجاعة في البداية. يكمن الأمل في النجاح في لقاء مع الآخرين يتسم بالاحترام. كل هذا قد يكون مختلفاً. لقد بدأت النساء بخلق بيئة يستطعن فيها اللقاء في تفاعل يتسم بالاحترام ويدخلن في صراع حقيقي.

الصراع بين النساء اليوم

منذ صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب بات الناس أكثر وعياً للصراع بين النساء. والسبب، على وجه الدقة، هو أن النساء يحاولن أن يتصرفن بطرق جديدة، ويقتحمن أماكن جديدة في المجتمع. وتحدث الصراعات حول أدوار النساء في مكان العمل، وحول قضايا في المنظمات السياسية، وحول تلمس الطريق نحو موضوعات السلطة والمنافسة، وقضايا العلاقات الجنسية، والطبقة والعرق، وحول ممارسة علاقات قديمة بطرق جديدة، وعدد من القضايا الأخرى.

إن بذور هذه الصراعات كانت موجودة على الدوام، لكن الصراعات لم تظهر على السطح إلى الآن. فالصراعات تصبح أوضح حين يحاول الناس أن يفعلوا أشياء جديدة لأنهم بهذا يحطمون أنماطاً قديمة.

وحتى حين تكافح النساء في صراعات اليوم يمكننا أن ندرك أن الأنماط الرئيسة القديمة التي عرفناها لإدارة الصراع هي تلك المستمدة من صيغة المهيمن ـ التابع التي عشناها وكبرنا جميعاً تحت رايتها. إن اختبار الصراع ضمن هذه الصيغة قيّد قدراتنا على فهمها والتعامل معها.

لكن في الوقت ذاته تمارس النساء نمطاً آخر، نمطاً يختلف عن صيغة المهيمن - التابع. وكمثال على ذلك في الأسرة وفي العلاقات الأخرى تحاول النساء أن يتفاعلن مع أشخاص آخرين بطرق تشجع تطور الجميع. هذا النمط لا يعمل على قاعدة اكتساب القوة لممارستها على الآخرين، أو من أجل الفوز، أو لعبة الغالب والمغلوب. فالنساء دائماً لا ينجحن في هذا المسعى لكنهن عادة يحاولن جاهدات. كذلك تختبر المرأة المتعة في علاقات تصاعدية متبادلة. ويكون مصدر السرور أنهن وسّعن حياة الآخرين أكثر مما قلصنها، وبشكل عام، ترغب النساء نقل خبراتهن في العمل في هذه الصيغة إلى ميادين جديدة من النشاط الذي يدخلنه.

إن العمل بطريقة السمو بالحياة في الأسرة ليس أمراً يسيراً لأن الأسر كانت قد تكونت على قاعدة المهيمن - التابع. لكن العديد من النساء اكتسب مهارة كبيرة لدى تركيزه على خبرة الجميع حتى وهن يعملن ضمن نمط اللامساواة الأساسي. في هذا السياق لا يمكن للتفاعلات المتسامية والمتبادلة أن تزدهر تماماً، لكن تكون النساء ضمن نطاق مألوف.

حين تنتقل النساء إلى مزيد من المؤسسات والمنظمات في المجتمع يجدن صورة مختلفة للعوالم. لقد وجد بعض النساء طرقاً وأساليب ينقلن من خلالها طرقهن التعاونية إلى أماكن العمل والمنظمات. وفي حالات أخرى اصطدمت النساء بصعوبات حين واجهن قوى عاملة في البيئات العامة.

إننا بحاجة إلى أنماط جديدة للتعامل مع الصراع داخل المؤسسات والمنظمات، لكننا لم نمتلك هذه الأنماط بعد. إن الكثير من النساء يركز على هذه المهمة الصعبة في محاولة لأن يتعلمن من التجارب والأخطاء عبر السنوات الأخيرة وكمثال على ذلك:

Women's Self Help Network of North Vancauver Islamd in Candda

التي أنتجت سلسلة من الكراسات والكتيبات التي تحل تجربة العمل والصراع في منظمات النساء وتقدم إرشادات للتصرف. هذه المجموعة تقوم بإحدى أكثر المحاولات تناغماً وإبداعاً لمواجهة هذه القضايا الصعبة.

في الوقت الحالي من التحول، تأمل بعض النساء من بقية النساء أكثر مما يأملن من الرجال. ولذا يشعرن بمزيد من الإحباط والغضب حين لا تتحقق آمالهن، وفي الوقت نفسه تتخلى بعض النساء عن دورهن الداعم. وبدلاً من ذلك يعملن علناً وبشكل مباشر أكثر مع بقية النساء بشكل خاص. هذا التغيّر هو تغيّر جيد. لقد تدربت النساء جيداً أن يتصرفن بخضوع للرجال أو أرباب العمل الذكور أو القادة. وفي بعض الحالات مازال بوسعهن أن يذعن أو يخضعن للرجال. بيد أنهن في عملهن مع النساء يشعرن أنهن أكثر قدرة أن يدركن ويصرحن بعدم الموافقة. هذه القدرة على التعبير عن الاختلاف يمكن أن تفضي إلى علاقات أفضل. ولأن الصراع يصبح علنياً يمكن للناس مواجهته بطريقة مثمرة أكثر. إلا أن انفتاحاً أكثر يمكن أن يفسر بداية على أنه صراع متزايد.

ما تزال الطرق الأكثر انفتاحاً في التصرف مع الآخرين من الخبرات الجديدة عند النساء. في الماضي تصرف العديد من النساء بشكل مدمر إزاء غيرهن من النساء وأصبح التنافس بينهن شديداً. وغالباً ما تركزت هذه المنافسات حول الرجال ومستلزمات دور الزوجة الأم مثل امتلاك أفضل منزل وأذكى أطفال. وهكذا لم تكن الصراعات تدار بطريقة أصدق وهو ما يتمناه الآن الكثير من النساء.

قد تبدو الصراعات مادة خام ومتحجرة لأن النساء يحاولن التصرف بطرق ليس لديهن فيها خبرة طويلة. لكن الرجال لديهم قواعد يتعاملون بوساطتها

مع الرجال الآخرين حين يحتدم الصراع. وكمثال على ذلك أن الرجال، في بعض الجلسات العامة، يقدمون من يتبوأ منهم مراكز رفيعة بعضهم بعضاً مع إطراء كبير حتى حين لا يؤمنون بما يقولون. وهم يخلقون نوعاً من التبادل مع الإدراك بان كلاً منهم سيدعم الصورة العامة للآخر وخلف الكواليس قد يتنافسون بحدة ويديرون مناورات القوة للفوز بسطوة على غيرهم من الرجال. وفي أوقات معينة يشكلون تحالفات قائمة على تقديرات محسوبة جيداً للقوة التي يمكن لأي منهم أن يقايضها. إن الكثير منهم يعرف ويتكهن بأساليب التصرف هذه لأنهم كانوا قد تدربوا بشكل جيد كي يلعبوا هذه المباريات. لكن النساء تقليدياً غير مسموح لهن بالقيام بمثل هذه الألاعيب. والأهم من ذلك أن الكثير من النساء لا يرغب في الانخراط بأي منها.

لم نمتلك نحن معشر النساء حتى الآن أشكالاً متطورة جيداً نفهم ونوزع بوساطتها بعضنا بعضاً في الوقت نفسه الذي نتعامل فيه مع الصراع. فإذا كنا لا نريد الانخراط في أشكال معينة لألعاب القوة التي يمارسها الرجال فإن علينا أن نبدع طرائقنا الخاصة للتعبير عن الصراع دون أن ندعه يتحول إلى صراع مدمر. وإلى أن نطور طرقاً أفضل فإن صيغة المهيمن ـ التابع قد تعود إلى الظهور. ما يزال بعض النساء يحاول أن يقلد الفئة المهيمنة بكسب المكانة والقوة على حساب التابعين، وهم في الغالب النساء الآن. إن فهم هذه النزعات قد يكون صعباً خاصة حين تحصل لدى النساء اللائي يعترفن بإخلاصهن لقضايا المرأة. هل تحاول امرأة (أو مجموعة من النساء) أن تبني قوة شرعية وملائمة لنفسها ولغيرها من النساء أم هل تحاول أن تكسب قوة شخصية على حساب غيرها أم أنها تدمج الاثنين معاً؟

ربما ما يزال بعض النساء يقلد الفئة المهيمنة عبر العثور على طرق فظة أو لطيفة لفصل أنفسهن عن النساء ، أما الأشكال التي يستخدمنها لعمل ذلك فإنها تتراوح بين سعيهن لتطوير أنفسهن كي يصبحن أقوى من بقية النساء وسعيهن للتميز بشكل ما . وعلى سبيل المثال يمكن للنساء أن يؤكدن منزلتهن المهيمنة كوسيلة للنأي بأنفسهن عن أنهن "مجرد نساء" وهذا يعني أن المرأة تستخدم تمايزاتها الفردية في محاولة للهروب من كونها امرأة ؛ أي شخص من الدرجة الثانية . وتظهر المآزق الأخرى حين تصبح المجموعات النسوية أفضل تأسيساً . ففي السنة الأولى للمجموعة أو التنظيم غالباً ما تجد النساء سعادة عارمة في وجودهن معاً ومشاركتهن الكثير من المشاعر والأفكار التي لم يكن يعبر عنها سابقاً ، كما يتفهم ويساند بعضهن بعضاً . ويمكن أن تنشأ المشاكل حين تبدأ النساء بالتعرف على خبراتهن وإدراكاتهن المختلفة . قد يخشين فقدان الارتباطات التي يتقْنَ إليها إضافة إلى خوفهن من الوحدة . كما يخشين من أن ظهور الفوارق سوف يعيد خلق حالة المهيمن ـ التابع . ويمكن لأي فرق يظهر أن يكون بمثابة تهديد وإشارة إلى أن بعض الناس "أفضل" أو أعلى والآخرون أقل وأدنى .

لقد تغلب بعض المنظمات النسائية على هذه المخاوف ، لكن معظمنا يحتاج إلى مزيد من الممارسة في تعلم تقويم الفروق حق تقويمها . وكما ورد في مستهل هذا الكتاب ليس بوسعنا ولا بوسع المجتمعات الأخرى أن تطوق الفروق بل أن تعلّ الفروق بوصفها مصدراً للأمل ونمواً لنا جميعاً . إن معنى الفرق يتحول إلى "أحسن" و"أسوأ" .

الفروق هي مصدر للقوة لكل منا مادامت لا تستخدم ضدنا . إن لدينا جميعاً تاريخاً طويلاً من التعلّم بأن نخاف من الفروق . وتستخدم الفروق لتكون

مصدراً للقوة ومصدراً لتدمير الآخرين. فضلاً عن ذلك فإن سمات معينة مثل الطبقة والجنس والقدرة الشخصية، كقدرة شخص على إتقان مهنة، كلها تستخدم لتعريف الشخص بشكل كامل.

وأيّاً كانت القدرات أو (حسن الطالع) التي قد يمتلكها شخص ما فإن لكل شخص ذكراً كان أم أنثى حدوداً ونواقص. وبما أن كلاً منا كأفراد محدود حتماً؛ لذا فإننا حقاً نحتاج الآخرين. لكن ما يزال الإقرار بهذا الواقع صعباً. والخوف هنا ينبع من تقليد المهيمن ـ التابع حيث يعني الفرق نقصاً، ويصبح النقص هو المبدأ الناظم. لقد تعلمنا كتابعين أننا ناقصون. هذا زيف. لذلك استخدمت النواقص المزعومة ضدنا. وفي غضون ذلك يدعم المهيمنون الإدعاء بأنهم لا يعانون من أي نواقص. وهذا زيف آخر. الجميع يخشى الفروق لأنها تعني النقص. وتحت السطح تعني أن يكون الرجل "مثل امرأة" أكثر مما هو شخص كامل النضج.

ضمن سياق أساسه المهيمنون ـ التابعون تشكل الفروق الطبقية والعرقية طبيعة الحال برمتها تقريباً. ففي العقد المنصرم طرحت النساء بعمق أكثر أسئلة معقدة عن الطبقة والعرق والجنس. وما تزال المناقشات والحوارات مستمرة حول أي من هذه العوامل أكثر بروزاً، وأي منها أكثر ظلماً، وكذلك حول ما إذا كان هذا هو السؤال الملائم. إن النساء اللواتي تعرضن لظلم مضاعف أو أكثر بسبب العرق أو الطبقة أو الجنس قد تحدثن علناً بقوة عن هذه القضايا على الصعيدين القومي والدولي. وقد فهمت النساء البيض ذات المكانة المرموقة الكثير عن الطرق العديدة التي استنفدن فيها على حساب الآخرين من الأقلية والطبقة العاملة والنساء الفقيرات. إنهن يتناولن الطعام ويرتدين الملابس ويمتلكن الكثير من الضروريات الأساسية التي وفرها لهن أشخاص

يعملون بأجور تساعد على العيش معظمهم من النساء، وفي بعض المنظمات النسائية قامت النساء من طبقات وأعراق مختلفة ببناء إطار أفضل بكثير للعمل معاً، ويقوّمن الفروق في الوقت نفسه. وغالباً ما انخرطت هؤلاء النسوة في صراعات مريرة. وقد استمرت هذه الصراعات لكن على مستويات جديدة؛ وأفضل مما كان عليه الحال في الماضي.

إن الفرق بين النساء السحاقيات ومتغايرات الجنس يخلق صراعات ذات أبعاد أخرى. وبمعنى من المعاني لم يشكل التفضيل الجنسي قاعدة لبناء مجتمعي ذي ميزة اقتصادية واجتماعية مثل تلك التي تملكها الطبقة والعرق. بعبارة أخرى تتحدى النساء السحاقيات، بمجرد وجودهن، البنية الجوهرية لاعتماد النساء على الرجال. لهذا السبب كانت النساء السحاقيات أكثر من وقع عليهن ظلم قاسٍ، وغالباً ما كانت النساء بين من مارسوا الظلم. ففي العقود الأخيرة رفعت السحاقيات مستوى الوعي عند النساء جميعاً. لقد قامت الكاتبات والفنانات السحاقيات بتحليل رائع لوضع النساء بكامله وخلقن قواماً جديداً كاملاً من العمل الفني، وفي العمل النسوي ضمن المنظمات كان الصراع بين السحاقيات والمغايرات مؤلماً جداً في كثير من الأحيان. هنا أيضاً تحركت بعض تجمعات النساء خلف المراحل المبكرة لهذه الصراعات ووجدن طرقاً جديدة ليكرم بعضهن الآخر.

إضافة إلى الفروق النابعة من القوى الاجتماعية الرئيسة تواجه النساء صراعات أخرى بين الأشخاص. قد لا تحب النساء دائماً النساء الأخريات بسبب المظهر والحماسة والتفضيلات وأشكال الرعاية المختلفة وغيرها، ومما لا ريب فيه أنه لا ينبغي لكل امرأة أن تحب وترضي بقية النساء جميعاً. إن الكثير

من النساء يطور روحاً جديدة في قبول ذواتهن وغيرهن من النساء مدركات حاجة النساء لامتلاك طرق متنوعة ليكن أنفسهن، وليكن مع الآخرين. هذه الروح مختلفة جداً عن تقويم النساء والحكم عليهن وفق معايير ضيقة، ومن ثم وضع منزلة لكل منهن وفق هذه المعايير والأحكام. قد ننسى كم كان الماضي مخيباً. كانت النساء يستدرجن إلى أحكام قاسية عن غيرهن من النساء. وكانت الأحكام غالباً مبنية على عوامل خارجية مثل أي حد تبدو (فلانة) أنيقة الملبس، أما إذا كانت متزوجة فمن هو زوجها، وكم لديها من الأطفال. هذه النزعات مستمدة أيضاً من صيغة المهيمن ـ التابع الأساسية. ويشجع التابعون على الانخراط في هذه التصرفات الحكمية ضد بعضهم بعضاً. لكن الكثير من النساء ابتعد عن هذه المصيدة المدمرة.

ارتأى عدد من الكتاب والكاتبات الموجهين وفق التحليل النفسي أن مشكلة الصراع برمتها بين النساء تنشأ من علاقة الأم ـ الابنة وبشكل عام يستخدم هذا التوكيد التحليل النفسي بطريقة اختزالية، يمكننا بسرعة أن نجد شروحاً مبنية على التحليل النفسي لكل شيء. ويمكن لهذه الشروح أن تتحول إلى نسخة من لوم الأم. وهو موضوع له تاريخ طويل في علم النفس التحليلي. ومن الأيسر توجيه اللوم إلى الأمهات أكثر من استيعاب كل النظام الذي قيّد المرأة، من الصحيح أن الأمهات يتفاعلن أكثر مع البنات؛ وبذلك يكن وسائط مباشرة أكثر في نظام ظالم، لكن الأمهات أنفسهن كن ضحايا لهذا النظام.

إن من المفيد أن نلاحظ أن الكثير من نساء الطبقة العاملة والأقليات لا يوجهن اللوم إلى أمهاتهن بالطريقة التي تفعلها النساء البيض من الطبقة

المتوسطة. قد يكون من الأيسر أن يدرك المرء أن أمه ضحية إذا رأى منزلها الذي نطفته أو عملها في المصنع، وكيف يعاملها رب العمل بقسوة.

إضافة إلى ذلك فقد شاهد الكثير من النساء الطبقة العاملة والأقليات أمهاتهن يتصرفن كنساء قويات حتى في مواجهة ظروف الظلم، ولم يدنّ أمهاتهن لكونهن ضعيفات أو يخضعن لتحولهن إلى ضحايا. وبذلك غالباً ما تكون الصورة الإجمالية للقوى مختلفة جداً عند أعراق وفئات طبقية مختلفة.

لا يعني كل ما تقدم الإنكار أن عدداً كبيراً من الأمهات قد أحبطن بناتهن لأن المجتمع الذي عشن فيه كان قد أحبطهن. ففي نظام يقيد النساء بشكل كامل قد لا تكون النساء قادرات على إعطاء بناتهن ما يحتجن لأنهن لم يأخذن ما احتجن كأمهات. لكن من الصحيح أيضاً أن الأسلوب الذي ترتبط فيه النساء بالأطفال (والكبار أيضاً) قد يكون هو الشكل الوحيد الذي نملكه في طريقة جديدة من العيش. إنه شكل يقوم على تشجيع تطور الشخص الآخر. لقد كافحت النساء للعثور على وسائل للتفاعل مع الأطفال. ومن شأن هذه الوسائل أن تصعّد نمو الأطفال. لكن لم ينتبه أحد لما تحتاجه النساء حقاً. لقد حرمت النساء وجرى الحط من قدرهن وجندن كعميلات لنظام يشوه النساء جميعاً. وقد شعرت البنات بالارتدادات المشوهة لكل هذه القوى. زد على ذلك أن من المستحيل تحليل علاقة الأم ـ الابنة دون تحليل لتصرفات الأب. وبشكل أدق تحليل السياق الذي يحدد بنية الأسرة.

في بعض الأحيان تتخذ صراعات الأمهات والبنات اليوم أشكالاً قوية؛ والسبب بدقة هو أن نساءً كثيرات يحاولن بناء شخصياتهن بطرق مختلفة عن طرق أمهاتهن. والواقع أن الكثير من الأمهات يحاولن تغيير حياتهن لرفع

القيود التي وضعنها على بناتهن. وبشكل متزامن تقوم العديد من الأمهات والبنات بتطوير طرق جديدة للتعامل فيما بينهن. وقد عمل الكثير منهن على هذا الصعيد، وحققن بشكل خاص علاقات صائبة بسبب الأعماق الجديدة للفهم الذي تحقق لديهن عن القوى التي تؤثر على الطرفين.

هذه فقط بضع طرق تختبر النساء فيها الصراع مع غيرهن من النساء. إن الكثير من الصراعات هي أعراض للتحوّل من الخطوات الأولى التي اتخذتها النساء إلى أن يصبحن كاملات النمو. وقد يكون من غير الممكن للنساء أن يقمن بتغيير الأنماط المتواضعة عميقاً في الحياة. إننا نرى أن النساء اليوم يتصرفن بطرق لم نعهدها قط. إنهن يقتحمن أرضاً جديدة عملياً ونفسياً. وفي عملهن هذا يصعدن الصراع إلى مستوى جديد وأكثر وعياً، ويبحثن عن طرق أفضل للتعامل معه.

في حياتنا كأفراد لا بد أن تنطوي جميع العلاقات على صراع. فكلما تفاعل شخصان مع بعضهما بعضاً يقدم كل منهما للآخر شيئاً جديداً، شيئاً مختلفاً عما يمكن أن ينشأ من داخلها نفسه أو نفسها. إن قدرتنا على التعامل مع الأفكار والمشاعر الجديدة هي مصدر نمونا ونمو العلاقات بيننا. ولدى النساء رغبة للتعامل مع الآخرين. هذه الرغبة يمكن أن تكون مصدراً للقوة في الصراع. إن أفضل الصراعات هي تلك التي تفضي إلى ارتباطات أكثر وأفضل أكثر مما تفضي إلى الانفصال. فهذا النوع من الصراع يفضي إلى النمو، لكن كلا الشخصين (أو الجميع) المنخرطين في الصراع عليهما أن يكونا مستعدين لولوج هذا الشكل من الصراع. إن للنساء تاريخاً من الارتباطات. وأفضل نهج لنا يكمن في تقويم هذا التاريخ بينما نواجه الصراعات التي تكمن أمامنا.

خاتمة

نعم، لكن...

إن إحدى النقاط التي تتعلق بكلمة تبصر كما تستخدم بشكل عام في علم النفس هو أننا نبدأ فعلاً بأن نفهم شيئاً فقط بعد أن نكون قد بدأنا بتغييره. وهذا قد ينطبق على عَرِضٍ وسمة الشخصية وطريقة العيش. وحتى ذلك الوقت لا يمكننا أن نراه فعلاً. ولأن النساء بدأن يغيرن وضعهن فإن بوسعنا الآن أن نعي طرقاً جديدة لفهم المرأة. إننا نبدأ رؤية أن كل ذلك كان متضمناً في مكانة المرأة من الدرجة الثانية. ولا يقتصر هذا على المرأة ولكن يشمل كامل البنية العقلية للإنسان ولمحاولاتنا أن نفهم كيف نشأت تلك البنية.

من الواضح تماماً أنني حاولت أن أكون موحية لا محددة، وأرى في هذا الكتاب خطوة يشارك فيها العديد من الناس، كان عدد من الناس قد سمع بعضاً من الأفكار، وقد ساعدوني فيها طيلة عملي في الكتاب، وقد صعقني رد إحدى النساء كونه وثيق الصلة بالموضوع، قالت: "كنت دائماً أود أن أقول لك: "نعم، لكن..." و"لا، لم تأخذي في الحسبان..." إذا استطعنا أن نستمر في عمل هذا لبعضنا بعضاً فسوف نستمر في التنقية والتنقيح. وأخيراً صوغ

أفكارنا معاً من جديد : إن لدينا الآن جماعة كبيرة من النساء والرجال المتنورين يقومون بذلك. هذه ظاهرة جديدة.

نرى اليوم أن مهمة إعادة التفكير أكثر تعقيداً مما يمكن أن يكون الكثير من النساء قد توقع. فالتفكير في طريقتنا عبر هذه التعقيدات ليس سهلاً. ومن الأفكار التي أرسلتها لي النساء بعد قراءة هذا الكتاب أنهن "شعرن أنهن دائماً يعرفن هذه الأشياء لكن لم يعبرن عنها بالكلام"، "لم ينشرنها حيث كان يمكنهن النظر إليها". وفي حين أشعر شخصياً بالامتنان لهذه الكلمات التي تؤكد صحة ما ذهبت إليه، فإنني أعتقد أن ثمة المزيد من الدلالات المهمة التي تنطوي عليها هذه الكلمات. ثمة الكثير من الأمور التي تعرفها النساء لكن لم يصغن ذلك على شكل كلمات.

أما الأسباب القوية لعدم قيام النساء بذلك فإنها ما تزال قائمة. فالكثير منا بالرغم من أن العدد أقل من الماضي ما يزال متشبثاً بفكرة أننا لا نستطيع أن نكون على مسار مفيد إذا كنا نقول أشياء لا تتوافق مع ما قيل أو ما قيل لنا عن الكيفية التي ينبغي أن نختبر بها شيئاً.

من المهم أن تبدأ النساء من خبراتهن الخاصة لاسيما إذا كانت هذه الخبرة "لا معنى لها". وبينما تتابع النساء عمل ذلك فإنني أعتقد أننا سوف نجد الأنظمة السائدة في التفكير غير دقيقة، وحتى الكلمات المتوفرة لن تكون ملائمة سواءً كانت علمية أم عادية، إن المعنى الوحيد هو أنه قد يصبح لها معنى.

إن قول هذا لا يعني أن جميع النساء هن "على صواب" دائماً في كل شيء. إن ذلك يعني أننا نخلق مناخاً لتوضيح مستمر. يمكن لأي منا أن ينتقد تفكير الآخر ويشجع على حوار معمق. أعتقد أن هذا هو أملنا للمستقبل.



نحو علم نفس جديد للمرأة

كتاب في سطور

قد يبدو هذا الكتاب كما لو أنه دفاع عن حقوق المرأة المفقودة على مدى التاريخ. لكن الكتاب في بعده الأعمق ليس كذلك. فالمؤلفة لا تركز على ما يدعى الصراع بين المرأة والرجل، بل تناقش بأسلوب ووسائل جديدة الجوانب السلبية في الثقافة السائدة التي تنظر إليها بوصفها ثقافة ذكورية محضة. وترى أنها مسؤولة عما حصل من تشوه لكل من المرأة والرجل والمجتمع نتيجة لذلك. وهذا ما يستدعي برأيها إعادة النظر في أسس الثقافة السائدة.

ومما ساعد المؤلفة على عرض أفكارها هو تجربتها الطويلة كطبيبة ومعالجة نفسية وأستاذة في ميدان التحليل النفسي. وهذا ما أتاح لها الفرصة للاستعانة بحالات وأشخاص عايشتهم لتقديم أفكارها والوصول إلى استنتاجاتها. وفي عرضها لهذه الحالات والأشخاص أضافت إلى الكتاب مسحة تشبه السرد الروائي الممتع.

ومن أهم ما جعل الكتاب جديراً بالقراءة والنقاش هو أن الكاتبة ترى أن عالم اليوم الزاخر بالعنف، والتدمير، والحروب، والظلم، والاضطهاد، هو نتاج الثقافة السائدة. فإذا كان الأمر كذلك، فهل يمكن وضع الخطط الشاملة والملائمة لتعديل أو تغيير هذه الثقافة بغية التخفيف، على الأقل، من الحالة القائمة التي تلف عالم اليوم؟.

الإجابة ليست سهلة بالتأكيد، لكن أي قارىء قد يصل إلى استنتاجات ما؛ حين يقرأ الكتاب حتى الصفحة الأخيرة.

دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق ص.ب: 34312

هاتف: 03 83 661 11 963+

تلفاكس: 15 09 666 11 963+